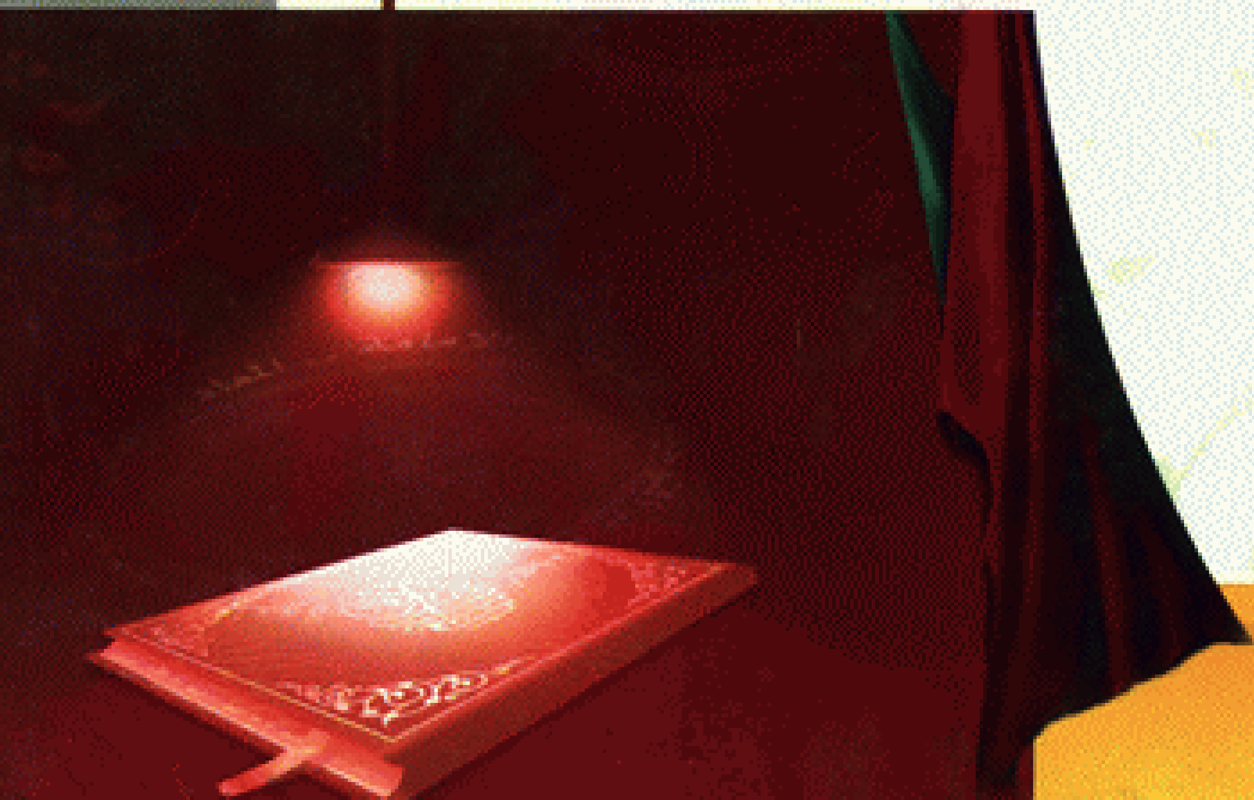
البيان الإسلامي

أحاديث في العقيدة..



سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

المرجع الديني
آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

البيان الإسلامي

انتشارات محبان الحسين

البيان الاسلامي

احاديث في العقيده

المرجع الديني آية الله العظمى السيّد محمّدتقي المدرّسي

الناشر: انتشارات محبّان الحسين عليه السلام

الطبعة الاولى: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م - ٣٠٠٠ نسخه

العنوان: قم المقدسة - شارع انقلاب - فرع ٤٧ - رقم ٥

ISBN: 978 - 964 - 427 - 084 - 0

مركز التوزيع:

كربلا المقدسة - شارع قبلة الامام الحسين عليه السلام - هاتف ٣٢٨٥١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وآله الهداة المرضيين.

لماذا الحديث عن العقائد ؟

العقائد مفتاح شخصية الإنسان ، إذ أنها تحكي معالم شخصيته ، وتبين نمط تفكيره ، وتكشف محتوى منهاجه ..

خصوصاً إذا ما عرفنا بأن العقائد إنما هي منظومة فكرية يصوغها الانسان لنفسه ، فيؤمن بها باختياره. ولذلك تقع مسؤولية صحتها وسقمها .. خيرها وشرها .. على عاتقه فقط لا غير.

وقد منح الله تعالى الإنسان هذه المنحة ليحكم عقله في التمييز بين العقائد الحقة والعقائد الباطلة ، حتى يختار لنفسه ما يزكيها وينقذها من الجهل والضلالة ، ليفوز بجنان الخلد عند مليك مقتدر.

وعند ذاك تكون العقائد نور في القلب ، ووهج في الضمير ، وهدى في المسير ، وبصيرة في الحياة .

وإذا ما شخصنا العقائد الحقة ، واخترنا السبيل القويم ، عندئذ يجدر بنا أن نحيط علماً بأبعادها وآفاقها حتى يستقر بنا الإيمان وتترسخ في أعماقنا المعرفة ، فنكون على بصيرة من أمرنا. عند ذاك نستقيم على الهدى دون أن تزلزلنا العواصف الهوجاء من ثقافات خاطئة وأفكار هدامة ونفثات شيطانية .. خصوصاً ونحن اليوم نعيش في واقع

صعب للغاية . حيث تمكن أصحاب العقائد المنحرفة والتوجهات الخاطئة من السيطرة بشكل واسع على وسائل الاعلام ذات الانتشار الواسع ، وهم يبذلون جهدهم لازاغة البشرية عن هدى الأنبياء ومنهاج رسالات السماء .. ولتحقيق ذلك أخذوا يثيرون الفتن ، ويشيعون الاضطرابات الفكرية والعقائدية .. وهدفهم من كل ذلك إشاعة الفرقة والاختلاف ، ليتصيدوا في الماء العكر.

اذن ، لكي نحصن أنفسنا في قبال هذه الأمواج العاتية من الزيغ والضلال ، يجدر بنا أن نعمل على ترسيخ إيماننا بحيث نجعله مستقراً لا مستودعاً ، وأن نحيي قلوبنا بالمعرفة ، وأن نزرع اليقين في وجودنا ، وذلك من خلال توسيع دائرة معرفتنا بعقائدنا ، وأن نتمعن أكثر في تفاصيلها ..

وكخطوة على هذا الطريق بادرنا الى انتقاء جملة من أحاديث سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي حفظه الله تعالى في القضايا العقائدية، وأضفنا إليها فصلاً من كتابه (الوجيز في الفقه الإسلامي- أصول العقائد وأحكام التقليد والبلوغ) تحت عنوان: أصول العقائد في الكتاب والسنة، بغية أن يطلع القارئ الكريم على ما ذكر هناك، لأنه قد لايتاح له ذلك، خصوصاً وأنه ذكر في طيات البحوث الفقهية، ولأن له صلة وثيقة بموضوع هذا الكتاب، عمدنا إلى ذكره مرة أخرى؛ رجاء تعميم فائدته. وقد أعددنا كل ذلك في كتاب سميناه (البيان الإسلامي ؛ أحاديث في العقيدة)، آملين أن يعود على القراء الكرام بما ينفعهم دنيا وآخرة ، وأن يتقبله الله تعالى منا بقبول حسن إنه ولي التوفيق .

مكتب المرجع الديني

آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

٥ / شعبان / ١٤٢٨هـ

الفصل الأول

أصول العقائد في الكتاب والسنة

تمهيد

لماذا علينا أن ندرس العقائد ونؤمن بها عن وعي وبصيرة ومعرفة؟

لأن العقائد تبين مبدأ الإنسان ومصيره وخط سيره في الحياة الأولى والآخرة، ومن لا يدرس العقائد ببصيرة، قد يحسب أنه على صراط النجاة، بينما هو على طريق الشقاء في الدنيا وسبيل النار في الآخرة فيخسر نفسه في الدارين، ومن هو أشقى ممن خسر نفسه في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف، ١٠٣- ١٠٤).

وللدراسة العقائد ثلاثة مناهج مختلفة:

١- منهج الفلسفة، ويعتمد على المنطق الأرسطي وفلسفة الاغريق الإلهيين وعلم الكلام الإسلامي المقتبس منهما. ودراسة العقائد وفق هذا المنهج استعارة ناشزة للقالب الفلسفي في عرض العقائد الإسلامية حيث تتلوث بتصورات البشر الوثنية، بينما الإسلام مبدء حنفي جديد على الإنسان، موحى إليه من الغيب، وله قالب يناسبه، وأي إقحام لمفاهيم الفلسفة ومناهجها وألفاظها في بنائه الفكري يشوه صبغته ويخل بتوازنه ويقضي على وحدته العضوية الداخلية. وقد نعت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أول من قام بهذه المحاولة الخاطئة في المسلمين بأنه **(سامري هذه الأمة)**[1] لأنه بدل عبادة الله الأحد بعبادة التوهمات الغريبة عندما أشاب نقاء الحنفية الإسلامية بوثنية الأغارقة المشركين.

٢- منهج التصوف، وينبثق هذا المنهج من الإغراق في التقشف، ويعتبر الإنسان رمز الشرور والخطيئات الذاتية، ويرى أن فناء الإنسان في غياهب العدم والسلبية هو المنهج الموصل الى الحقيقة. ونجد هذا التصور الخاطئ بارزاً في الفلسفة البرهمية والفلسفات الآسيوية

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٤٢، ص١٤١، باب ١٢٣، ح٢.

البعيدة، وقد طرقت أبواب المسلمين في بداية القرن الثاني مع نشاط حركة الترجمة بين المسلمين.

وينكر هذا المنهج دور العقل في معرفة حقائق الكون، ويدعو الى السلبية ونبذ النظم الدينية والاكتفاء بالصفاء الروحي الذي يتحول شيئاً فشيئاً الى الإنطواء واللامبالاة. والواقع: إن ابتعاد هذا المنهج عن روح الإسلام هو كبعد الإسلام عن روح الجاهلية.[1]

٣- المنهج السليم في دراسة العقائد هو المنهج الذي يُستوحى من القرآن الحكيم ومن السنة الشريفة، ويقوم على أسس ثابتة من الفطرة السليمة والمتميزة عن دواعي الهوى والغضب. أما ميزات هذا المنهج القرآني فهي باختصار: إيقاظ الوعي، وإثارة العقل، والدعوة الى التدبر والتفكر، والتوجيه الى الانفتاح على الحياة لمعرفة أعماقها، وملامسة أغوارها ومخاطبة روحها النقية الخالصة. واسلوب الحديث في هذا المنهج: التذكرة والتنبيه والإبتعاد أبداً عن المراء والجدل والمكابرة على الحق.

وعلى المسلم أن يتبع هذا المنهج لمعرفة العقائد، لأن الإسلام لا يمكن فهمه إلاّ عبر الطريق الذي رسمه الباري عز وجل، فهو طريق قريب، واضح المعالم، بليغ البينات، منسجم الفطرة وضرورات الحياة..

ولذلك فإن منهجنا هنا، في عرض العقائد الإسلامية بإيجاز، هو الاستلهام من القرآن الحكيم ومن السنة الشريفة الشارحة له، دون ان نحاول التأويل في آيات الذكر أو خلطها برواسب الثقافات الغربية.

١- للمزيد من التفاصيل يراجع كتابنا "الفكر الإسلامي مواجهة حضارية" و "العرفان الإسلامي".

١/عن التوحيد

التوحيد في القــــرآن الكريم

لا تستطيع الخروج من ظلمة الشرك لو لم تخرج من سجن الذات، ومعتقل هوى النفس. وإذا أمعنت النظر لرأيت جذر كل كفر وشرك وعصيان، حب النفس وهواها؛ بل وحتى الذي يعبد الأصنام أو الطغاة فانما يعبد هواه في صورة الطغاة، وشهواته في هيكل الأصنام. فاذا خرجت من حب الذات، وتحديت ظلمات الهوى، فانك تنطلق في رحاب التوحيد باذن الله، بلا قيود وبلا حدود. وبوابتك الى معرفة التوحيد سورة الاخلاص، التي تختصر بصائر الوحي في معرفة الرب ببضع كلمات.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ❁ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ❁ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ❁ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ❁ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

بالرغم من أن كلمة "أحد" مشتقة من "واحد" كما قالوا، إلا أنها أبلغ دلالة على معنى الوحدانية، وأنه سبحانه لا نظير له ولا شريك، ولا أعضاء فيه ولا أجزاء، لا في الواقع ولا في العقل والوهم سبحانه. وليس معنى الأحد والواحد أنه واحد من اثنين، أو أنه نوع من الأنواع، كلا.. إنه الواحد بلا عدد، الأحد بلا مثل ولا شبه.

وتتجلى أحديّة الله في معرفة هيمنته الشاملة على كل شيء، وأنه الفعّال لما يريد، وأن له العبادة، وأن ما يُعبد من دونه ليس بشيء.

ومن مظاهر أحدية الله أنه "الصمد" وتشير الصمدية الى حقائق شتى تجمعها بصيرة واحدة، هي أن الله بلا أعضاء وأجزاء، ولا حالات تطرأ عليه سبحانه.

وصفة الصمدية تتجلى أيضاً في أنه لم يلد ولم يولد، إذ الولادة دليل إضافة جزء إليه لم يكن فيه، أو انفصال جزء منه كان فيه. والصمد الذي لا أجزاء له، لا يتصور فيه زيادة (بالتولد) ولا نقيصة (بالإيلاد).

وإذا اهتدينا الى أن الله صمدٌ لا جزء له، ولا تطور، ولا ولادة، فقد ارتفع الحجاب الأكبر الذي بيننا وبين الله، حجاب التشبيه الذي ينشأ من جهل الإنسان ونقص مداركه. فلأن الإنسان لا يرى إلاّ نفسه والمخلوقات، يقيس خالقه بنفسه طوراً، وبالكائنات أطواراً، غافلاً عن أن هذا القياس يتنافى والإعتقاد بالخالق أصلاً، إذ نقرأ في ختام سورة الاخلاص: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.

أكبر شهادة

قال الله سبحانه: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الانعام، ١٩).

تتلاحق الأحداث، وتترى الظواهر، وتجري سفينة الحياة في بحر عال الموج، عاصف الريح، ولكن وراء تلك الظواهر أنظمة حكيمة تمسكها، والله من وراء تلك الأنظمة يمسك زمامها ويوجهها. فالله هو غيب الكون — الذي لا يخلو منه مكان — وهو شاهدٌ على كل شيء، وحاضرٌ عند كل شيء، وكل شيء آية له، لأنه منه ومعه وإليه. فالله إذاً أكبر شهادة من أي شيء. إنه يدل على ذاته بذاته، ويدل على كل شيء؛ إنه يعطيك السمع والبصر والبصيرة، ويتجلى بآياته في مهرجان الحياة، حتى تعيش معه في كل لحظة ومع كل شيء. يبقى أنت الذي قد تغيب عن ربك (دون أن يغيب عنك)؛ إنه قريب المسافة، بينك وبينه لحظة الالتفات والتوجه. ولكي لا تغيب عنه، ولكي تتكامل ذاتك الى مستوى العيش مع ربك، أرسل الله الأنبياء وزودهم بالكتاب لينذرك، لأن الانذار أقرب الطرق الى قلب البشر.

آيات التوحيد

قال الله سبحانه: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۞ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة، ١٦٣- ١٦٤).

إن هذه الآيات تدعونا الى التوجه الى الله وحده، ونبذ الأنداد من دونه. وهذه الدعوة تتصل بفطرة الانسان الراسخة في حب من أحسن إليه، ومن أعظم إحساناً علينا من الله سبحانه؟

ولكي يكرس القرآن الكريم هذه الفكرة، يوجهنا الى فطرتنا، ويأمرنا بالنظر الى آيات الله في السماء والأرض، خصوصاً تلك التي تعكس رحمة الله الواسعة والمستمرة، من اختلاف الليل والنهار، وجريان الفلك في البحر، ونزول الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وبث الدواب فيها، وتصريف الرياح، وتسخير السحاب و.. و.. إن هذه الآيات ومئات غيرها تدل بوضوح على وحدانية الله عز وجل.

إله واحد

وقال الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۞ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ (النحل، ٥١- ٥٢).

الكافر يخضع لما هو خاضع لله: يخضع للشمس والقمر والنجوم، يخضع للأنوار والأشجار والأحجار، يخضع للثروة والقوة والدعاية. فيا ترى، لماذا يرهب الإنسان جانب الطبيعة حتى يعبدها من دون الله، ولماذا يرهب الطاغوت حتى يستسلم له؟

إن أكثر ما تتم العبادة من جانب البشر للأشياء، إنما تتم بسبب الهيبة والرهبة، ألا فلتسقط هيبة الطبيعة؛ ألا فلنرهب ربها وخالقها فقط.

وإذا تجاوزنا الخشية من الطبيعة، وتحررنا من رهبتها، أسلمنا الوجوه لرب العالمين، وخضعنا لحاكميته وسيادته القانونية وحده، وبالتالي لدينه الخالص.

كمال التوحيد

قال الله سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الممتحنة، ٤).

لا يكتمل ايمان العبد بربه الأحد إلاّ إذا تبرأ من كل ما هو دون الله، فنبذ عبادة ما سوى الله، ورفض الخضوع لكل من يكفر بالله. فالتوحيد يكتمل بالكفر بالجبت والطاغوت..

فقد كان النبي ابراهيم عليه السلام يتيماً يحتاج الى الحماية الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه لم يخضع لعمه آزر الذي كان يعبد الأصنام، طمعاً في توفير تلك الحماية؛ بل مضى قدماً على نهجه الحنيف في التمسك بالتوحيد ورفض ما سوى الله سبحانه. فلم يتحدَّ الكفار اعتماداً على عمه ولا على قومه، بل تحدى قومه بدءاً من عمه، وتحدى كل الشرك بدءاً من قومه؛ فأصبح أسوة المؤمنين في تكميل ايمانهم بالله وتوحيدهم له برفض كل ما سواه.[1]

---

١ - آيات القرآن الحكيم حول الإيمان بالله وتوحيده كثيرة جداً، وقد ذكرنا هنا عدة نماذج بما يتناسب وحجم هذا البحث الموجز.

التوحيد في السنة الشريفة

حق معرفة الله

كيف تتحقق معرفتنا لله عز وجل؟ وكيف تكون معرفتنا حق المعرفة؟ ومتى يكون توحيدنا لله سبحانه خالصاً من كل شائبة؟ لنستمع الى رسول الله ﷺ وهو يجيب على من سأله قائلاً:

ما رأس العلم؟

فقال رسول الله ﷺ: **«معرفة الله حق معرفته».**

قال السائل: وما حق معرفته؟

قال النبي ﷺ: **«أن تعرفه بلا مثال ولا شبه، وتعرفه إلهاً واحداً،خالقاً قادراً، أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، لا كفو له ولا مثل له. فذاك معرفة الله حق معرفته».**[1]

أدعوا الى الله

في كل تطورات الحياة وتقلباتها يلمس الإنسان بكل وجوده آثار خلق الله وهيمنته وقدرته، فعندما يصيبه الضر يجأر إليه ويدعوه لكي يكشف عنه ضره فيتحسس قدرته اللامتناهية، وحين يواجه مكروباً يستعين به فيعينه الله سبحانه.. وهكذا في كل تحولات الحياة الأخرى.

أتى النبي ﷺ رجل من بني تميم يقال له أبو أمية، فقال: الى ما تدعو الناس يا محمد؟

فقال له رسول الله ﷺ: **«أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وأدعو الى من إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن استعنت به وأنت مكروب أعانك، وإن سألته وأنت مقل أغناك».**[2]

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٣، ص١٤

٢- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٣٥.

بم عرفت ربك؟

إذا تدبر الإنسان في الخلق والخالق، عرف بفطرته تباين الخالق عن الخلق، فالمخلوق تحده الجهات، وله صورة مادية تُحس وتُلمس، وله قُرب وبُعد، ويتوالد بعضه من بعض، ويتداخل بعضه في بعض.. أما الخالق فليس يشبه خلقه في شيء من ذلك، سبحانه وتعالى عن كل ذلك علواً كبيراً.

فلقد سئل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ: بمَ عرفت ربك؟

قال: "عرّفني نفسه".

قيل: وكيف عرّفك نفسه؟

قال: "**لا يشبهه صورة، ولا يحس بالحواس، ولا يقاس بالناس. قريب في بعده، بعيد في قربه. فوق كل شيء ولا يقال شيء فوقه. أمام كل شيء ولا يقال له أمام. داخل في الأشياء لا كشيء داخل في شيء. وخارج من الأشياء لا كشيء خارج من شيء. سبحان من هو هكذا، ولا هكذا غيره، ولكل شيء مبتدء**".[1]

نفي الصفات

إذا تفكرنا في الخلق وجدنا فيه صفات نقص وضعف فتتحول الى صفات كمال وقوة، ثم تعود الى النقص والضعف. فهو جاهل فيصبح عالماً بالتعلم، ثم يجهل بالنسيان والسهو، وهو عاجز فيصبح قادراً بالتمرس ثم يعجز بالمرض والشيخوخة، وهو صغير فيكبر ثم يعود متضائلاً صغيراً، وهو فقير فيستغني بالكسب أو غيره، ثم يعود فقيراً حين يخسر كل شيء، وهكذا.. ولكن هذه الصفات وتغيراتها لا تصدق بحق الخالق عز وجل، إذ توحيده يعني نفي الصفات عنه، لأن طُروّ هذه الصفات وزوالها يدل على مصنوعية

١ـ الاصول من الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٦٧.

الشيء، والله صانع وليس بمصنوع. لنستمع الى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فهو يلقي علينا درساً بليغاً في التوحيد بقوله:

"أول عبادة الله معرفته، وأصل معرفته توحيده، ونظام توحيده نفي الصفات عنه، جلّ أن تحله الصفات لشهادة العقول أنّ كل من حلّته الصفات مصنوع، وشهادة العقول أنه جل جلاله صانع ليس بمصنوع، فبصنع الله يستدل عليه، وبالعقول يعقد معرفته، وبالفكر تثبت حجته، جعل الخلق دليلاً عليه فكشف به عن ربوبيته، هو الواحد الفرد في أزليّته، لا شريك له في إلهيته، ولا ندّ له في ربوبيته...".[1]

ذلكم الله رب العالمين

جاء رجل الى الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، فقال له: يابن رسول الله: صف لي ربك، حتى كأني أنظر إليه.

فأطرق الإمام الحسن بن علي عليهما السلام ملياً، ثم رفع رأسه، فقال: **«الحمد لله الذي لم يكن له أول معلوم، ولا آخر متناه، ولا قبل مدرك، ولا بعد محدود، ولا أمد ب(بحتى)، ولا شخص فيتجزأ، ولا اختلاف صفة فيتناهى. فلا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفِكَر وخطراتها، ولا الألباب وأذهانها صفته فتقول: متى؟ ولا بدئ مما، ولا ظاهر على ما، ولا باطن فيما، ولا تارك فهلا. خلق الخلق فكان بديئاً بديعاً؛ إبتدأ ما ابتدع، وابتدع ما ابتدأ، وفعل ما أراد، وأراد من استزاد. ذلكم الله رب العالمين».**[2]

ما هو التوحيد؟

لا نحتاج للاجابة على هذا السؤال أن نلجأ للأبحاث الفلسفية والكلامية المعقدة التي قد لا تزيدنا من الله إلاّ بعداً، فالسنة الشريفة هي أفضل مصدر لذلك، فهي توجهنا الى حقيقة

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٤، ص٢٥٣.
٢- التوحيد، الشيخ الصدوق، ص٤٥- ٤٦.

التوحيد عبر إثارة عقولنا وهدايتنا الى فطرتنا السليمة، بعبارات وجدانية بسيطة وواضحة..

لنصغ الى عدد من الروايات في هذا المجال:

١- عن عبد العزيز بن المهتدي، قال: سألت الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام عن التوحيد، فقال: "**كل من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وآمن بها فقد عرف التوحيدلله**."[1]

٢- روي عن الإمام جعفر الصادق ﷺ، أنه سأله رجل فقال له: إن أساس الدين التوحيد والعدل، وعلمه كثير، ولابد لعاقل منه، فاذكر ما يسهل الوقوف عليه ويتهيأ حفظه.[2]

فقال ﷺ: "**أما التوحيد فأن لا تجوز على ربك ما جاز عليك، وأما العدل فأن لا تنسب الى خالقك ما لامك عليه**".[3]

٣- قام رجل الى الإمام الرضا ﷺ فقال له: يابن رسول الله؛ صف لنا ربك، فان من قبلنا قد اختلفوا علينا.

فقال الإمام الرضا ﷺ: «**إنه من يصف ربه بالقياس لا يزال الدهر في الالتباس، مائلاً عن المنهاج، ظاعناً في الاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل. أُعرّفه بما عرّف به نفسه من غير رؤية، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة؛ لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه، ومتدان في بُعده لا بنظير، لا يُمثّل بخليقته، ولا يجور في قضيته. الخلق الى ما علم منقادون، وعلى ما سطر في المكنون من كتابه ماظون، ولا يعملون خلاف ما علم منهم، ولا غيره يريدون. فهو قريب غير ملتزق، وبعيد غير متقص،**

١- الاصول من الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٧٢.

٢- التوحيد، الشيخ الصدوق، ص٩٦.

٣- التوحيد، الشيخ الصدوق، ص٩٦.

يحقق ولا يمثل، ويوحد ولا يبغض، يُعرف بالآيات، ويثبت بالعلامات، فلا إله غيره، الكبير المتعال".[1]

أدنى المعرفة

ما هي أقل درجات معرفة الله عز وجل؟

هذا السؤال أجاب عنه الإمام أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام في رواية الفتح بن يزيد، حيث سأله عن أدنى المعرفة، فقال الإمام عليه السلام: "**الإقرار بأنه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، وأنه قديم مثبت، موجود غير فقيد، وأنه ليس كمثله شيء**".[2]

لا تفكروا في الله

مادام الله هو خالقنا وصانعنا، وهو أكبر منا يحيط بنا ولا نحيط به علماً، فلماذا التفكر في ذات الله؟ إن هذا التفكر يزيد الانسان تيهاً وضلالاً، وقد نهتنا السنة الشريفة عن ذلك.

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: "**إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا الى عظمته فانظروا الى عظيم خلقه**".[3]

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: "**إياكم والتفكر في الله، فان التفكر في الله لا يزيد إلاّ تيهاً. إن الله عز وجل لا تدركه الأبصار، ولا يوصف بمقدار**".[4]

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: "**تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله، فان الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلاّ تحيراً**".[5]

١- التوحيد، الشيخ الصدوق، ص٤٧.
٢- الاصول من الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٦٧.
٣- الاصول من الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٧٣.
٤- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٣، ص٢٥٩.
٥- الاصول من الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٧٢.

ثمن التوحيد

إذا كان أول عبادة الله معرفته، وأصل معرفته توحيده – كما في الرواية السالفة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام – فإن التوحيد يكون أساس كل شيء في الحياة، وبناء عليه أو على عدمه تكون الجنة أو النار. فالتوحيد هو باب الجنة، والشرك بالله ظلم عظيم يولج الله صاحبه النار. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "**التوحيد ثمن الجنة**".[1]

وروي عن الإمام علي عليه السلام في قول الله عزوجل: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾. قال: "**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن الله عز وجل قال: ما جزاء من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلاّ الجنة**".[2]

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "**يقول الله جل جلاله: لا إله إلاّ الله حصني، فمن دخل حصني آمن من عذابي**".[3]

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: "**إن الله تبارك وتعالى حرم أجساد الموحدين على النار**".[4]

أفضل الأعمال

عن محمد بن سماعة، قال: سأل بعض أصحابنا الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فقال له: أخبرني أي الأعمال أفضل؟

قال: "**توحيدك لربك**".

قال: فما أعظم الذنوب؟ قال:

"**تشبيهك لخالقك**".[5]

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٣، ص٣.

٢- المصدر، ص٣.

٣- التوحيد، الشيخ الصدوق، ص٢٤.

٤- المصدر، ص٢٠.

٥- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٣، ص٨.

العدل في القرآن الكريم

أكبر صفات الله العدل الذي يجريه في الطبيعة، حيث يسنّ للحياة سننا يجريها بقدرته وسلطانه، فلا يدع جانبا منها يطغى على جانب آخر؛ والانسان هو المخلوق الوحيد الذي أكرمه الله بالحرية، ولكنه حدد حريته بوقت، فبعده يعيده الى حدوده بالقوة إن لم يعد إليها بالهداية. ومن أولى بتطبيق العدالة في الحياة من العزيز (المقتدر) الحكيم (الخبير بالأمور)؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ١٨).

يأمر بالقسط

وقال الله سبحانه: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الأعراف ٢٩).

العدالة فطرة كامنة في البشر، وطموح كبير. وإذا لم يهو أحد القيام بالقسط بنفسه، فلا ريب أنه يحبه للآخرين ويطالبه منهم. والله تبارك وتعالى لا يمكن أن يأمر بغير القسط، والكون كله يشهد له بالعدالة في كل شيء.

الصدق والعدل

قال الله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الانعام ١١٥).

تتميز كلمات الله، وخلاصة وحيه الى البشرية بأنها تامة، ويعني ذلك أنها تفي بكل الحاجات البشرية، وأنها صادقة تطابق الحق، والحق هو ما في الكون من أنظمة وسنن. وبما أن ربنا هو جاعل هذه الأنظمة ومجريها، فانه سبحانه هدى البشر إليها عبر كلماته بصدق؛ وأن كلمات ربنا سبحانه هي العدالة، حيث أنها تعطي لكل فرد حقه ولكل طائفة وقوم وجيل حقه، ذلك لأن الله فوق الميول والشهوات، وقادر وحكيم وعليم، لذلك لا يوجد لديه سبحانه أي سبب للظلم من عجز أو ما أشبه.

لا يظلم أحدا

قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (النساء، ٤٠).

من أبرز تجليات عدالة الله تعالى، أنه لا يظلم أبداً ولو بمقدار ذرة. فهو يجازي الناس بالضبط وبكل دقة؛ فاذا كفر شخص بقدر وزن ذرة صغيرة، فانه يجازيه بقدر كفره لا أكثر من ذلك. وإذا عمل خيراً بمثقال ذرة فإنه لا يضيع عمله. قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة، ٧ - ٨).

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس، ٤٤).

فعندما يغلق الانسان سمعه وبصره عن تلقي أمواج الهداية الربانية، لا يجوز له أن يزعم بأن الله سبحانه قد ظلمه، إذ سلبه سمعه وبصره. كلا؛ فالله لا يظلم أحداً، بل الانسان هو نفسه الذي لا ينتفع بسمعه وبصره وبالتالي يظلم نفسه. فالناس هم الذين لا يستفيدون من أدوات التوجيه التي وهبها الله لهم ليهتدوا عبرها. وربما كان تعبير القرآن هنا بكلمتي "الناس" و "أنفسهم" هو لسبب أن الناس يظلم بعضهم بعضاً بالتضليل عن صراط الهدى، ولذلك فإنهم المسؤولون عن هداية بعضهم البعض.

الموازين العادلة

قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

في يوم القيامة يواجه كل انسان جزاءه. حيث الحساب الدقيق والعسير: إن خيراً فخير. وإن شراً فشر. وتعالى الله أن يظلم أحداً شيئاً؛ حتى لو أن الانسان أحسن وعمل عملاً بوزن مثقال حبة من خردل، وفي أي مكان على وجه الأرض، وعلى أية درجة من السرية والكتمان، فان الله سيأتي به – بقدرته وعلمه اللامحدودين – مثبتاً ومسجلاً، يعرضه على صاحبه في يوم القيامة، ثم يعطيه جزاءه العادل عليه.

العدل في السنة الشريفة

قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له يحمد الله فيها: "**الذي صدق في ميعاده، وارتفع عن ظلم عباده، وقام بالقسط في خلقه، وعدل عليهم في حكمه..**"[1]

وقال عليه السلام في خطبة أخرى: "**الذي عظم حلمه فعفا، وعدل في كل ما قضى..**"[2]

هو العدل

لا شك في قدرة الله على كل شيء.. وأن باستطاعته في أقل من لحظة عين أن يزرع الهدى في قلوب الضالين؛ أو أن يضل المهتدين. ولكن حاشاه أن يستخدم قدرته في ظلم عباده. فإذا رسخ الهدى في قلب انسان، فإن الله لا يظلمه بنزع الإيمان من قلبه.

سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن ذلك، حيث قال له الحسين بن نعيم الصحاف: أيكون الرجل مؤمناً قد ثبت له الإيمان ثم ينقله الله بعد الإيمان الى الكفر؟

فقال الإمام عليه السلام: "**إن الله هو العدل، وإنما بعث الرسل ليدعوا الناس الى الإيمان بالله، ولا يدعوا أحداً الى الكفر**".[3]

ما عرف الله..

هناك جملة من الناس تتهرب في الحياة من مسؤولية أعمالها السيئة، وذلك بإلقاء تبعة الذنوب على الله عز وجل، فيزعمون أن الله هو الذي يريد لهم ارتكاب الذنوب، ولولا ارادة الله عز وجل لما أذنبوا، إلاّ أن هذه النظرة تتنافى وعدل الله عز وجل.

١- نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطبة رقم ١٨٥.

٢- نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطبه رقم ١٩١.

٣- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج١١، ص٤٠.

يقول الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ: "**ما عرف الله مَنْ شَبَّهَهُ بخلقه، ولا وصفه بالعدل مَنْ نسب إليه ذنوب عباده**".[1]

الله أعدل

وفي الرواية المأثورة عن الإمام الرضا ﷺ نجد التعبير عن هذه القضية بلغة أخرى. فالله لا يجبر عباده على السيئات ثم يعذبهم على ذلك. إذ أن ذلك يتناقض مع عدله وحكمته.

روي أن الفضل بن سهل سأل الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ بين يدي المأمون. فقال: يا أبا الحسن؛ الخلق مجبورون؟

فقال: "**الله أعدل من أن يجبر خلقه ثم يعذبهم**".

قال: فمطلقون؟

قال: "**الله أحكم من أن يهمل عبده ويكله الى نفسه**".[2]

الله أكرم

كما أن الله سبحانه لا يكلف أحداً ما لا يقدر عليه، إذ أن ذلك ظلم هو الآخر. والله منزه عن كل أنواع ودرجات الظلم. قال الإمام جعفر الصادق ﷺ: "**إن الله أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقون، والله أعز من أن يكون في سلطانه ما لا يريد**".[3]

ليبتلي من أراد

لماذا إذن نجد بين الناس الفقير والغني؟ أليس من الأفضل أن يقسم الله الأرزاق بالسوية بين الناس، فلا فقير ولا غني؟ كلا؛ ليست المساواة تعني العدل دائماً. فدار الدنيا دار

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٥، ص٢٩.
٢- المصدر، ص٥٩.
٣- المصدر، ص٤١.

الابتلاء والاختبار. ومن أسباب الإختبار هو السعة أو الضيق في الرزق. يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: "**وقَدَّرَ الأرزاق فكثّرها وقللها، وقسمها على الضيق والسعة، فعدل فيها ليبلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها..**"[١]

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٥، ص١٤٨.

الرسالة والرسول في القرآن الكريم

قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد، ٢٥).

إن الله أرسل الرسل دليلاً إليه وتعريفاً للناس به تعالى، فهم يتحملون مسؤولية محددة هي تبليغ رسالة الخالق الى المخلوقين، وهدايتهم الى معرفته، والايمان به، والعمل برسالته. فالرسل هم السفراء بين الخالق والمخلوق، وحبل الله الممدود من السماء إلى الأرض.

ولكن كيف نعرف صدقهم وصدق دعوتهم من بين القادة المنحرفين والدعوات الضالة؟

القرآن يجيب: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولهذه الكلمة معنيان يبدو أنهما معاً مقصودان بهذه الآية:

١- تفاصيل الهدى المتمثلة في البصائر والمناهج المنبثقة منها، واشتمال رسالات الأنبياء على هذه التفاصيل دليل على أنها وحي من عند الله، إذ قد يهتدي إنسان أوتي صفاء النفس الى بعض معاني الغيب، ولكن أنّى للانسان أن يأتي بهذه المنظومة المتكاملة من البصائر الغيبية، فليس ذلك إلاّ دليل إتصاله المباشر بالوحي.

٢- الحجج والآيات التي تهيمن على النفس والعقل، كالمعاجز والخلوص من الهوى والمصلحة، والتمحّض للحق. وهذا يهدينا إلى أن الرسالات الإلهية قائمة قبل كل شيء

على الإقناع، لأنه الذي ينمي الإيمان في النفس، ويحركه بفاعلية أكبر وأبقى من أي عامل آخر. وحينما يتخلف أحد من المؤمنين عن الاستجابة للرسول وللوحي، فإن ذلك يدل على تزلزل قناعاته.

ولأن الإيمان بالرسل لا يؤتي ثماره إلاّ إذا تحول الى نظام تربوي، اجتماعي، اقتصادي، سياسي، ثقافي.. شامل لجوانب الحياة، يكفل للبشرية السعادة، أنزل الله مع رسله شريعة متكاملة الى جانب البينات متمثلاً بالكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

الرسل ومسؤولية الإنسان

ليس الهدف من بعث الرسل هو سلب المسؤولية عن الناس وإلقائها على عاتق الأنبياء، كما كان يزعم البعض. فقد تطرق فريق من الناس فزعموا إن الرسول إنما يأتي ليكون مسؤولاً بدلاً عنهم، أو ليجبرهم على الهدى، أو حتى ليؤمّن لهم عملياً كل وسائل السعادة. ولكن الله يفنّد هذا الزعم قائلاً:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الانعام/٤٨).

فالهدف من بعث الرسل هو توفير وسيلة الأمان في النفوس وفي الواقع. فالذين يؤمنون بالرسل ويتبعونهم لا خوفٌ عليهم من المستقبل، مما يدل على وجود حالة السلام في أنفسهم، ولا هم يحزنون من الماضي مما يدل على وجود السلام في الواقع الخارجي، حيث لا يصيبهم ما يحزنون بسببه لتمسكهم بمناهج الرسل.

غاية الرسل

إن الغاية من بعث الرسل هي: التبشير بحياة أفضل، والتحذير من الهلاك، حتى لا يقول الناس غداً: ربنا لِمَ لَمْ تبعث إلينا الرسل حتى لا نضل ولا نقع في الهلاك. إن هذا

الهدف العقلاني لدليل على إن الله قد بعث الرسل بالتأكيد، ثم لأن الله قادر على بعث الرسل، ولأنه حكيم فهو لا يعذب البشر قبل أن يقطع عليهم الحجج، ويسوق إليهم الأعذار. قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء، ١٦٥).

لا.. للاكـراه

من آثار رحمة الله أنه لم يبادر الى إنزال العقوبة بعباده فور إنحرافهم عن الدين القيّم، مما يعرّضهم للاصطدام بالسنن الإلهية. كلا؛ وإنما أنذرهم عبر رسله.

أرأيت لو شاهدت طفلاً يلعب على حافة جبل، أولست تخشى عليه السقوط وتسعى بكل جهدك أن تردعه؟ كذلك رسل الله سعوا من أجل إيقاف سقوط الأمم في وديان الفساد. ولكن ذلك لا يعني أبداً إكراه الناس على الهداية، بل الذين أجرموا تعرضوا لانتقام الرب في النهاية، أما المؤمنون بالرسل فكان حقاً على الله أن ينصرهم. قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم، ٤٧).

للناس كافـة

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ، ٢٨).

إن ما يميز رسول الله ﷺ عن سائر الأنبياء عليهم السلام، أنه بُعث لعامة الناس، إذ لم تختص دعوته بجماعة دون أخرى، ولا بقوم دون آخر. وهذا بذاته دليل على صدق رسالته، ذلك أن

الانسان مهما حاول التجرد فانه يبقى ابن بيئته التي تعكس عليه آثاره في واقع الثقافة، كما تعكس عليه الآثار الطبيعية. وهكذا حين يأتي الرسول برسالة تتجاوز القومية والعنصرية والاقليمية، نظرياً وعملياً، فان ذلك يكون دليلاً على أن رسالته إلهية.

الرسول أسوة

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١).

معرفة الرسول والاقتداء به لا يمكن إلاّ للانسان المؤمن والعارف بالله، لأن الرسول جاء من عند الله، وكلما ازداد الانسان معرفة بربه ازداد معرفة بنبيه. وقد جاء في الدعاء: **"اللهم عرّفني نفسك فانك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك، اللهم عرّفني رسولك فانك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرّفني حجتك فانك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني"**[١].

أما الذي يكون هدفه شهواته أو زينة الدنيا، فانه لا يستطيع الاقتداء بالرسول ﷺ، الذي أخلص نفسه ووجهه لله، وزهد في درجات هذه الدنيا الدنية، وزخرفها وزبرجها.

ليظهره على الدين

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة، ٣٣).

لقد بعث الله تعالى رسول الله ﷺ لتحقيق هدفين أساسيين، هما:

---

١ - الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٣٣٧.

١- توفير فرصة الهداية للناس حتى يتم الحجة عليهم. والهدى هو الوصول الى الحقيقة، ولا يصل البشر الى الحقيقة إلاّ بالعلم بها والتسليم القلبي لها. ذلك لأن العلم الذي لا يشفعه الإيمان لا يكفي، إذ يبقى الجحود والغفلة حاجزاً بين البشر وبين الحقيقة.

٢- إقامة سلطة الحق؛ سلطة العدالة والقانون؛ سلطة القيم والمبادئ، وذلك في مقابل سلطة القوة التي هي شريعة الغاب ومنطق الجبارين. ومن الواضح إن المجتمع إما تسوده شريعة الغاب أو شريعة الله؛ شريعة الحق أو شريعة الباطل، لأن الله تعالى الذي خلق الحياة، منح قدراً من الحرية للناس، إلا أن العاقبة هي للحق. ولقد تنامت أمواج الرسالة في العالم منذ انبعاث الرسول العظيم محمد بن عبد الله ﷺ والى اليوم. أوليس ذلك دليلاً على تحقق وعد الله في ظهور الإسلام على الدين كله؟

طاعة الرسول

قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (آل عمران، ١٣٢).

حين يتطهر المجتمع من الاستغلال، يتطهر من أكبر أسباب التمرد والنفاق، ويستعد لطاعة الرسول، خصوصاً لدى تحكيمه في الخلافات العرقية والقومية والمصلحية، بين فئات المجتمع. وطاعة الرسول تستدرج الرحمة والرفاه، لأنها تقضي على نوازع الشر، وأسباب الخلاف والتمرد، وتوجه الأمة كلها باتجاه البناء في ظل اطمئنان وارف يشعر الجميع فيه بأن جهودهم لن تذهب سدى.

دليل طاعة الله

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء، ٨٠).

إن طاعة الرسول هي طاعة الله، لا اختلاف بينهما ولا تناقض؛ إذ أن الرسول إنما يبين كتاب الله. ولولا طاعة الرسول لانهار بناء التوحيد. وهذا التماسك في المبادئ الاسلامية والتكامل والوحدة فيها لدليل على أنها من الله تعالى، إذ أن أي مبدأ بشري لابد أن تجد فيه تناقضاً بين الأيدلوجية والتشريع، وبين بنود الأيدلوجية ذاتها، وبين قوانين التشريع مع بعضها.

وعلى هذا فان حاجة الأمة الى الطاعة المبدئية هي أكبر من حاجتها الى أي شيء آخر. اذ التعاون والتطوير، والمواجهة مع الأعداء، وبناء وإعداد الجبهة الداخلية.. كل تلك نتيجة مباشرة للطاعة؛ وإنما تتقدم الأمم بقدر تماسكها واندفاعها ووحدة مسيرتها، وهي كلها تأتي نتيجة الطاعة.

الرسالة والرسول في السنة الشريفة

لماذا بعث الله الأنبياء؟

هذا السؤال يطرحه غرور الانسان على طول التاريخ، ناسياً حاجته الملحة لمن يبشره بالطريق الأقوم في الحياة، وينذره من سلوك الدرب الأعوج. فقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام: لأي شيء بعث الله الأنبياء والرسل الى الناس؟ فقال الإمام عليه السلام: "لئلا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل، ولئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولتكون حجة الله عليهم. ألا تسمع الله عز وجل يقول حكاية عن خزنة جهنم واحتجاجهم على أهل النار بالأنبياء والرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾". (الملك ٨ ـ ٩)[1]

وفي نفس السياق قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله بالحق، ليخرج عباده من عبادة الأوثان الى عبادته، ومن طاعة الشيطان الى طاعته، بقرآن قد بيّنه وأحكمه، ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه، وليقرّوا به بعد إذ جحدوه، وليثبّتوه بعد إذ أنكروه. فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته، وخوّفهم من سطوته، وكيف محق من محق بالمثلات، واحتصد من احتصد بالنقمات".[2]

كيف نثبت الرسل؟

وروي عن هشام بن الحكم قال: سأل الزنديق الذي أتى الإمام الصادق عليه السلام، فقال: من أين أثبت أنبياء ورسلا؟

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج١١، ص٣٩.

٢- نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطبة رقم١٤٧.

قال أبو عبد الله ﷺ: "إنّا لمّا أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق. وكان ذلك الصانع حكيماً، لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه، ولا يباشرهم ولا يباشروه، ويحاجّهم ويحاجّوه، فثبت أنّ له سفراء في خلقه يدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم. فثبت الآمرون والنّاهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عند ذلك أنّه له معبّرين، وهم الأنبياء وصفوته من خلقه، حكماء مؤدّبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم في الخلق والتركيب، مؤيّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فلا تخلو أرض الله من حجّة يكون معه علمٌ يدلّ على صدق مقال الرسول ووجوب عدالته".[1]

حجة ظاهرة

ويزعم البعض أنه تكفينا عقولنا، فهي حجة الله علينا، ولا حاجة لنا بالرسل والأنبياء، غافلين عن أن عقول الناس هي حجج باطنة تدس تحت ركام الجهل والغفلة والعصبية فتحتاج الى من يعضدها من الخارج وهم الرسل.

قال الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: "بعث الله رسله بما خصهم به من وحيه، وجعلهم حجة له على خلقه، لئلا تجب الحجة لهم بترك الإعذار إليهم، فدعاهم بلسان الصدق الى سبيل الحق".[2]

وقال الإمام موسى بن جعفر الكاظم ﷺ: "إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة. فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول".[3]

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج١١، ص٣٠.
٢- نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطبة رقم١٤٤.
٣- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٨٥.

استجيبوا لأنبياء الله

ولا يكفي مجرد الإيمان القلبي بالرسل والاعتراف بهم، بل ينبغي أن يكتمل ذلك بالعمل وفق مناهجهم والاستجابة لدعواتهم عملياً. يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: **"استجيبوا لأنبياء الله، وسلموا لأمرهم، واعملوا بطاعتهم، تدخلوا في شفاعتهم".**[1]

ويقول الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: **"يا هشام؛ ما بعث الله أنبياءه ورسله الى عباده إلاّ ليعقلوا عن الله. فأحسنهم إستجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأعقلهم أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة".**[2]

نهج الأنبياء

وقد بيّن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حكمة بعثة الرسل في كلمات بليغة أشار فيها إلى:

أولاً: إن الله سبحانه قد أخذ من الأنبياء ميثاق الطاعة، فهم يختلفون عن سائر الخلق في الاستقامة على الطريق والاعتصام بالله عن الزلاّت.

ثانياً: لأن أكثر الناس بدّلوا عهد الله اليهم بطاعته وأصبحوا من نصيب الشيطان، كان بعث الأنبياء ضرورياً لهدايتهم.

ثالثاً: لأن الله سبحانه قد أودع في فطرة البشر توحيده وأخذ ميثاقهم عليه (في عالم الذر) فبعث الأنبياء ليطالبهم باداء ذلك الميثاق.

رابعاً: ولأنه أنعم عليهم بمعرفته ولكنهم نسوه، فبعث الأنبياء ليذكروهم بتلك النعمة المنسية.

خامساً: لأن الله سبحانه يجازي الناس على كفرهم، فارسل الأنبياء ليتموا الحجة عليهم.

١- غرر الحكم، عبدالواحد الآمدي. ص١٣٣.

٢- تحف العقول. ابن شعبة الحراني. ص٢٨٥.

سادساً: لأن عقول الناس قد دست في ركام الجهالات، أرسل الله الأنبياء عليهم السلام ليثيروا للناس ما دُفِن من عقولهم فيعرفوا الحق والباطل والوسيلة الى ذلك. إن الرسل يقومون بإراءة الناس آيات ربهم في الافاق.

إذا دعنا نتأمل في كلمات الإمام بدقة، يقول عليه السلام:

"واصطفى سبحانه من ولده (ولد آدم) أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقّه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم[1] الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويُذكّروهم منسيَّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول. ويروهم آيات المقدرة: من سقفٍ فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تُحييهم، وآجالٍ تُفنيهم، وأوصابٍ[2] تُهرمهم، وأحداثٍ تتابع عليهم؛ ولم يخلِ الله سبحانه خلقه من نبيٍّ مرسلٍ، أو كتابٍ منزلٍ، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة؛ رسلٌ لا تُقصِّرُ بهم قلّة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم؛ من سابق سُمّي له من بعده، أو غابرٍ عرّفه من قبله. على ذلك نسلتِ القرونُ، ومضتِ الدهورُ، وسلفتِ الآباء، وخلفتِ الأبناءُ.

إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عدته، وإتمام نبوّته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورةً سماتُهُ، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ مللٌ متفرّقةٌ، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبّه لله بخلقه، أو ملحدٍ في اسمه، أو مشيرٍ الى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة. ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقاءه، ورضي له ما عنده. وأكرمه عن دار الدنيا، ورغب به عن مقام البلوى، فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله، وخلّف فيكم ما خلّفتِ الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملاً، بغير طريق واضح، ولا علم قائم".[3]

١- اجتالتهم: صرفتهم عن قصدهم.

٢- أوصاب: متاعب.

٣- نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطبة رقم ١.

لنعظم الأنبياء جميعاً

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

"إن الله عزّ وجل مكّن أنبياءه من خزائن لطفه وكرمه ورحمته، وعلّمهم من مخزون علمه، وأفردهم من جميع الخلائق لنفسه، فلا يشبه أخلاقهم وأحوالهم أحد من الخلائق أجمعين، إذ جعلهم وسائل سائر الخلق إليه، وجعل حبّهم وطاعتهم سبب رضاه، وخلافهم وإنكارهم سبب سخطه، وأمر كلّ قوم باتّباع ملّة رسولهم، ثمّ أبى أن يقبل طاعة أحد إلاّ بطاعتهم ومعرفة حقّهم وحرمتهم ووقارهم وتعظيمهم وجاههم عند الله؛ فعَظِّمْ جميع أنبياء الله ولا تنزلهم بمنزلة أحد من دونهم، ولا تتصرّف بعقلك في مقاماتهم وأحوالهم وأخلاقهم إلاّ ببيان محكم من عند الله وإجماع أهل البصائر بدلائل تتحقّق بها فضائلهم ومراتبهم. وأنّى بالوصول الى حقيقة ما لهم عند الله؟ وإن قابلت أقوالهم وأفعالهم بمن دونهم من الناس أجمعين فقد أسأت صحبتهم، وأنكرت معرفتهم، وجهلت خصوصيّتهم بالله، وسقطت عن درجة حقيقة الإيمان والمعرفة. فإيّاك ثمّ إيّاك".[1]

خاتم الأنبياء

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

"فاستودعهم (أي الأنبياء) في أفضل مستودع، وأقرّهم في خير مستقر، تناسختهم[2] كرائم الأصلاب الى مطهرات الأرحام؛ كلّما مضى منهم سلفٌ قام منهم بدين الله خلف.

حتى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالى الى محمد صلى الله عليه وآله؛ فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً. وأعزّ الأرومات مغرساً؛ من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناءه. عترته خير العتر، وأسرته خيرُ الأسر، وشجرته خير الشجر؛ نبتت في حرمٍ، وبسقت في كرمٍ؛ لها فروع طوالٌ، وثمرٌ لا يُنال. فهو إمام من اتّقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمعَ

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج١١، ص٣٧.

٢- تناسختهم: تناقلتهم.

ضوؤه، وشهاب سَطَعَ نورُهُ، وزندٌ برق لمعه: سيرته القصدُ، وسُنّته الرشدُ، وكلامه الفصلُ، وحُكمُهُ العدلُ؛ أرسلهُ على حين فترةٍ من الرسلِ، وهفوةٍ عن العمل، وغباوةٍ من الأممِ".[1]

أكرمهم على الله

عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: "خلق الله عز وجل مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، أنا أكرمهم على الله ولا فخر. وخلق الله عز وجل مائة ألف وصي وأربعة وعشرين ألف وصي، فعلي أكرمهم على الله وأفضلهم".[2]

١- نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطبة رقم ٩٤.

٢- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج١١، ص٣٠.

الإمامة والإمام في القرآن الكريم

كما لا تكمل الرسالة بدون الرسول ﷺ، كذلك لا تتم الشريعة بدون إمام. ذلك لأن طبيعة البشر تهوي به إلى الأسفل، ولا يكفيها وجود شريعة محفوظة في الأسفار، بل لابد من تجسيد تلك الشريعة في إنسان يتمتع بتفوق تشريعي يعطيه صلاحية تطبيق الشريعة على الناس. إذ لابد لكل قانون من مطبق نافذ الكلمة، وإلاّ عاد القانون حبرا على ورق.

ولقد شاء الله تبارك وتعالى أن يسعد الإنسان في الحياة بدون أن يجبره على ذلك فيسلبه كرامته وحريته. وهكذا كان ينبغي عليه أن يوفر له كل وسائل السعادة حتى إذا شاء أخذ بها، فشرع له الشرائع وعبّد له المناهج، ثم بعث رسولاً يبين له وينذره ويبشره ويدعوه الى تطبيق ذلك ويشرف على تنفيذه. وكان عليه أن لا يترك الخلق فوضى دون منفذ للشريعة بعد الرسول ﷺ: بل كان ينبغي أن يعين لهم أئمة يتمتعون بما يتمتع به الرسول من صلاحيات، ويقومون بما يقوم به الرسول من مهمات. كل ذلك إتماماً للنعمة وتحقيقاً للحكمة وتوفيراً لوسائل السعادة. ولكن كما لم يشأ الله أن يُكره الناس على الهدى في عهد الرسل إبقاءً لهم على النعمة الكبرى الموهوبة لهم، وهي نعمة الحرية، فكذلك لم يشأ أن يجبرهم على إتباع الإمام جبراً. وهكذا أبقى على الإمام الأخير صاحب الزمان عجل الله فرجه إتماماً لحجته على خلقه، وتوفيراً لمنتهى ما يمكنهم أن يبلغوه من سعادة الدنيا والآخرة.

أولوا الأمر

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بإطاعة أولي الأمر من بعد الرسول، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ (النساء، ٥٩).

فأولوا الأمر هم الامتداد الطبيعي للرسول، وهم أهل بيته من بعده؛ العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه، الأكفاء على القيام بأمره، الصابرون المتقون، وبالتالي هم أكثر الناس طاعة لله، وأقربهم إلى نهج رسوله.

من يعين الإمام؟

وكما أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يعين من قبل الناس أنفسهم، لأنه وسيلة متصلة بين الله والانسان، فإن الإمام لا يمكن أن يعين إلاّ من قبل الله أيضاً.

وبتعبير آخر: إن الإمام ينبغي أن يكون مؤيداً بالغيب، عارفاً بالله ودينه ومعارفه، بعيداً عن تأثيرات المادة وبعيداً عن ظروفها الضيقة. ولا يؤيد الله من يختاره الناس، بل من يصطفيه هو سبحانه، وليس للناس الخيرة إذا قضى الله أمراً، ذلك لأنهم عباد مربوبون يجب أن يسلموا بالحاكمية المطلقة لله في كلّ الشؤون. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤). وقال سبحانه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (ص: ٢٦). وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

من هذه الآيات يظهر بوضوح إن الخلافة والإمامة – اللذين هما تعبيران عن واقع واحد – ليستا من حق أحد، وإنما هما لله وحده لا شريك له.

الإمامة وفضل الله

إن الأنبياء والأئمة يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق علم عامة الناس. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩). وقال عز وجل في طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ

عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة، ٢٤٧). وقال عز وجل لنبيه ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء، ١١٣). وقال عز وجل في الأئمة من أهل بيت النبي (ص) وعترته وذريته: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء، ٥٤).

وإذا اختار الله عز وجل أحد عباده لأمور عبيده، شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً.

من هم الأئمة؟

قال الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة، ٢٤).

الآية الكريمة ترشدنا الى جملة من صفات الإمام الرئيسية، وهي: -

١ - الهدى الى الله وبأمره، وليس الى نفسه أو حزبه أو وطنه.. وما أشبه من الدعوات الجاهلية.

٢ - الصبر وتحمل الشدائد. فالقائد الإلهي هو الذي تتبلور شخصيته في ميادين العمل الجهادي وسوح القتال في سبيل الله، وليس الذي يركب الموجة أو يتسنم صهوة الانتصار من دون عمل وخلفية جهادية. وربما لذلك كان الله تعالى يختار الأنبياء والرسل والأئمة من رحم الشدائد، وعند اجتياز أصعب العقبات.

٣- اليقين. وذلك يعني وصوله الى مستوى رفيع من الإيمان بالله، لا يهن بعدد ولا يرتاب في طريق الحق، سواء انتصر أو انتكس مرحلياً.

الإمامة والإمام في السنة الشريفة

قال عبد العزيز بن مسلم: كنا مع الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو، فاجتمعنا في المسجد الجامع بها فأدار الناس بينهم أمر الإمامة، فذكروا كثرة الاختلاف فيها. فدخلت على سيدي ومولاي الإمام الرضا عليه السلام فأعلمته بما خاض الناس فيه، فتبسم عليه السلام، ثم قال:

يا عبد العزيز، جهل القوم وخدعوا عن أديانهم. إن الله جل وعز لم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء: وبين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس جملاً، فقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾، وأنزل عليه في حجة الوداع وهو آخر عمره صلى الله عليه وآله:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.(المائدة: ٣) وأمر الإمامة من كمال الدين، ولم يمض صلى الله عليه وآله حتى بين لأمته معالم دينه وأوضح لهم سبلهم وتركهم على قصد الحق وأقام لهم علياً عليه السلام علماً وإماماً، وما ترك شيئاً مما تحتاج إليه الأمة إلاّ وقد بينه. فمن زعم أن الله لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله، ومن رد كتاب الله فقد كفر. هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة، فيجوز فيها إختيارهم؟

إن الإمامة خص بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة والخلة مرتبة ثالثة وفضيلة شرفه بها وأشاد بها ذكره، فقال جل وعز: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال الخليل سروراً بها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم الى يوم القيامة وصارت في الصفوة. ثم أكرمها الله بأن جعلها في ذرية أهل الصفوة والطهارة، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا

جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾.

فلم تزل يرثها ذريته عليه السلام بعض عن بعض، قرناً فقرناً، حتى ورثها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الله: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. فكانت لهم خاصة فقلدها النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم العلم والإيمان. وذلك قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ على رسم ما جرى وما فرضه الله في ولده الى يوم القيامة. إذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمن أين يختار هذه الجهال الإمامة بآرائهم؟

إن الإمامة منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله وخلافة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وخلافة الحسن والحسين عليهما السلام.

إن الإمام زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين. الإمام أس الإسلام النامي وفرعه السامي. بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وإمضاء الحدود والأحكام ومنع الثغور والأطراف.

الإمام يحلل حلال الله ويحرم حرامه ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله ويدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة.

الإمام كالشمس الطالعة المجللة بنورها للعالم وهو بالأفق، حيث لا تناله الأبصار ولا الأيدي.

الإمام البدر المنير والسراج الزاهر والنور الطالع والنجم الهادي في غيابات الدجى والدليل على الهدى والمنجي من الردى.

الإمام النار على اليفاع[1] ، الحار لمن اصطلى والدليل في المهالك، من فارقه فهالك.

الإمام السحاب الماطر والغيث الهاطل والسماء الظليلة والأرض البسيطة والعين الغزيرة والغدير والروضة.

الإمام الأمين الرفيق، والوالد الشفيق والأخ الشقيق، وكالأم البرة بالولد الصغير، ومفزع العباد.

الإمام أمين الله في أرضه وخلقه، وحجته على عباده وخليفته في بلاده والداعي الى الله والذاب عن حريم الله.

الإمام مطهر من الذنوب، مبرء من العيوب، مخصوص بالعلم، موسوم بالحلم، نظام الدين وعز المسلمين وغيظ المنافقين وبوار الكافرين.

الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم ولا يوجد له بدل ولا له مثل ولا نظير؛ مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهاب؛ فمن ذا يبلغ معرفة الإمام أو كنه وصفه؟

هيهات هيهات، ضلت العقول، وتاهت الحلوم، وحارت الألباب، وحصرت الخطباء، وكلت الشعراء، وعجزت الأدباء، وعييت البلغاء، وفحمت العلماء عن وصف شأن من شأنه أو فضيلة من فضائله، فأقرت بالعجز والتقصير؛ فكيف يوصف بكليته، أو ينعت بكيفيته، أو يوجد من يقوم مقامه، أو يغني غناه؟ وأنى وهو بحيث النجم عن أيدي المتناولين ووصف الواصفين، أيظنون أنه يوجد ذلك في غير آل رسول الله صلى الله عليه وعليهم؟ كَذَّبتهم والله أنفسهم، ومنتهم الأباطيل إذ ارتقوا مرتقى صعبا ومنزلاً دحضا، زلّت بهم الى الحضيض أقدامهم، إذ راموا إقامة إمام بآرائهم، وكيف لهم باختيار إمام؟ والإمام عالم لا يجهل، وراع لا يمكر، معدن النبوة لا يغمز فيه بنسب ولا يدانيه ذو حسب ؛ فالبيت من قريش والذروة من هاشم والعترة من الرسول ﷺ، شرف الأشراف

---

١ - اليفاع: التل المُشرف وكل أرض مرتفعة.

والفرع من عبد مناف، نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالأمر، عالم بالسياسة، مستحق للرئاسة، مفترض الطاعة، قائم بأمر الله، ناصح لعباد الله.[1]

أبـواب الله

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "**الأوصياء هم أبواب الله عز وجل التي يؤتى منها، ولولاهم ما عرف الله عز وجل، وبهم احتج الله تبارك وتعالى على خلقه**".[2]

حجج الله على خلقه

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "**يا علي! أنت والأئمة من ولدك بعدي حجج الله على خلقه، وأعلامه في بريته: فمن أنكر واحداً منهم فقد أنكرني، ومن عصا واحداً منهم فقد عصاني، ومن جفا واحداً منهم فقد جفاني! ومن وصلكم فقد وصلني، ومن أطاعكم فقد أطاعني، ومن والاكم فقد والاني، ومن عاداكم فقد عاداني! لأنكم مني، خُلِقْتُم من طينتي، وأنا منكم**".[3]

بالإمام يُعرف الله

عن أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام: "**إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالاً**".

قلت: جعلت فداك؛ فما معرفة الله؟

قال: **تصديق الله عز وجل، وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله، وموالاة علي عليه السلام، والإئتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام، والبراءة الى الله عز وجل من عدوهم. هكذا يُعرف الله عز وجل**".[4]

١- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٣٢٢- ٣٢٤.
٢- الاصول من الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص١٥٠.
٣- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٢٢، ص٩٧.
٤- الأصول من الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص١٣٨.

فمن والاهم.. فهو مني

قال الإمام محمد الباقر ﷺ: "لما أُنزلت ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ قال المسلمون: يا رسول الله؛ ألست بإمام الناس كلهم أجمعين؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا رسول الله الى الناس أجمعين، ولكن سيكون بعدي أئمة على الناس من أهل بيتي من الله، يقومون في الناس فيكذبونهم، ويظلمهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم. ألا فمن والاهم واتبعهم وصدقهم فهو مني ومعي وسيلقاني، ألا ومن ظلمهم وأعان على ظلمهم وكذبهم فليس مني ولا معي وأنا منه بريء".[١]

معرفة الإمـام

قال رسول الله ﷺ: "من مات ولا يعرف إمامه، مات ميتة جاهلية".[٢]

وعن يحيى بن عبد الله، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) ﷺ، أنه قال: "يا يحيى؛ من بات ليلة لا يعرف فيها إمام زمانه، مات ميتة جاهلية".[٣]

وروي عن أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق ﷺ أنه قال: "نحن الذين فرض الله طاعتنا، لا يسع الناس إلاّ معرفتنا، ولا يعذر الناس بجهالتنا. من عرفنا كان مؤمناً، ومن أنكرنا كان كافراً، ومن لم يعرفنا ولم ينكرنا كان ضالاً حتى يرجع الى الهدى الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة، فان يمت على ضلالته يفعل الله به ما يشاء".[٤]

تـول عليا ﷺ

قال رسول الله ﷺ: "من أحب أن يحيى حياة تشبه حياة الأنبياء، ويموت ميتة تشبه ميتة الشهداء، ويسكن الجنان التي غرسها الرحمن، فليتولّ علياً وليوال وليه وليقتدِ بالأئمة

١- بحار الانوار، محمد باقر المجلسي، ج٢٤، ص٢٦٦.
٢- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٢٣، ص١٨.
٣- المصدر، ص٧٨.
٤- الاصول من الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص١٤٤.

من بعده، فانهم عترتي خُلِقوا من طينتي. اللهم ارزقهم فهمي وعلمي، وويل للمخالفين لهم من أمّتي، اللهم لا تنلهم شفاعتي".[1]

الأئمة إثنا عشر

عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**الأئمة من بعدي إثنا عشر كلهم من قريش**".[2]

وقال رسول الله ﷺ: **إن الأئمة من بعدي إثنا عشر، فمن أحبهم واقتدى بهم فاز ونجى، ومن تخلف عنهم ضل وغوى**".[3]

وقال رسول الله ﷺ: "**إثنى عشر من أهل بيتي أعطاهم الله تعالى فهمي وعلمي وحكمتي وخلقهم من طينتي، فويل للمتكبرين عليهم بعدي، القاطعين فيهم صلتي، ما لهم؟ لا أنالهم الله شفاعتي**".[4]

وقال رسول الله ﷺ: "**يا علي! أنت وصيي، حربك حربي، وسلمك سلمي، وأنت الإمام وأبو الأئمة الأحدى عشر الذين هم المطهرون المعصومون ومنهم المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً. فويل لمبغضهم.**

يا علي! لو أن رجلاً أحبك وأولادك في الله لحشره الله معك ومع أولادك، وأنتم معي في الدرجات العلى، وأنت قسيم الجنة والنار، تدخل محبيك الجنة ومبغضيك النار".[5]

١- المصدر، ص١٦٢

٢- منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، لطف الله الصافي، ص٢٤.

٣- المصدر، ص٢٨

٤- منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، لطف الله الصافي، ص٣٢.

٥- المصدر، ص٥٦.

مسؤوليتنا تجاه الإمام عليه السلام

ماذا يجب على الناس تجاه الإمام؟

هذا السؤال يفرض نفسه على من اعتقد أن الإمام شخص ينتخبه الله تعالى، وجواب هذا السؤال لابد أن يأتي من قبل الأئمة أنفسهم - بعد الإيمان بهم مجملاً - وهناك عدة وظائف مفروضة على الناس بالنسبة الى الإمام نشير الى عشرة منها، ونذكر ما يشير اليها من كلماتهم عليهم السلام:

١-معرفة الإمام بشخصه.

والدليل على ذلك قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: "من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية".[1]

٢-أن يعتقد بولايتهم.

والحجة على ذلك قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "إن أول ما يُسأل عنه العبد إذا وقف بين يدي الله جل جلاله: عن الصلوات المفروضات، وعن الزكاة المفروضة، وعن الصيام المفروض، وعن الحج المفروض، وعن ولايتنا أهل البيت. فمن أقرّ بولايتنا ثم مات عليها، قبلت منه صلاته وصومه وزكاته وحجه، وإن لم يقرّ بولايتنا بين يدي الله جل جلاله لم يقبل الله عز وجل منه شيئاً من أعماله".[2]

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٢٣، ص٧٨، ح١.

٢- المصدر، ج٨٠، ص١٠.

٣- أن يسلم لهم ولا يرد عملا من أعمالهم.

والبرهان على ذلك قول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: "إن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، ولا يصاب إلاّ بالتسليم، فمن سلّم لنا سلِمَ، ومن اهتدى بنا هُدي، ومن دان بالقياس والرأي هلك، ومن وجد في نفسه شيئاً للمما نقوله أو نقضي به حرجاً كفر بالذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم، وهو لا يعلم".[١]

٤- الطاعة للإمام بصورة مطلقة.

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: "ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأنبياء ورضى الرحمان الطاعة للإمام بعد معرفته. ثم قال: إن الله يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾".[٢]

٥- أن يرد أمر المشاكل إليه.

عن سدير، قال: قلت لأبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام: تركت مواليك مختلفين، يتبرأ بعضهم من بعض.

قال: "ما أنت وذاك؟ إنما كُلِّفَ الناس ثلاثة: معرفة الأئمة، والتسليم لهم فيما يرد عليهم. والردّ إليهم فيما اختلفوا فيه".[٣]

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٢، ص٣٠٣.
٢- المصدر، ج٢٣، ص٢٩٤.
٣- المصدر، ج٢، ص٢٠٢.

٦- أن يتعلم منه الأحكام والعلوم والأخلاق.

قال رسول الله ﷺ: "ستفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية والباقون هالكون، والناجون الذين يتمسكون بولايتكم ويقتبسون من علمكم ولا يعملون برأيهم فأولئك ما عليهم من سبيل."[١]

٧- أن يرجع في تفسير القرآن وتأويله إليه.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ نحن نعلمه..[٢]

٨- أن يفزع إليه في الدواهي.

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: "الإمام، الأمين الرفيق والأخ الشفيق ومفزع العباد في الداهية".[٣]

٩- أن يعرض على الإمام النصرة متى شاء.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: "إنما أُمِرَ الناس أن يطوفوا بهذه الأحجار (أي الكعبة) ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم".[٤]

---

١ - المصدر، ج٣٦، ص٣٣٦.

٢ - بحار الانوار، محمد باقر المجلسي، ج٩٢ ص٨٩.

٣ - المصدر ج٢٥ ص ١٢٣- ١٢٤.

٤ - المصدر، ج١٣، ص٩٠

١٠- أن يؤمن به وبحقانيته.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في تفسير الآية الكريمة:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ النور والله الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله الى يوم القيامة عليهم السلام.[١]

هذه هي الوظائف العامة التي تلزمنا تجاه الإمام في كل عصر.. ولكن هناك عدة مسؤوليات ضخمة مفروضة علينا اليوم بصورة خاصة بالنسبة الى الأئمة عليهم السلام، وهي:

١ - أن نفهم معارف الأئمة عليهم السلام التي هي بحق المعارف الإسلامية، نفهمها بعيداً عن التيارات الدخيلة التي تلصصت في المناخ الفكري الإسلامي وهي ثلاثة:

أ/ التيار الفلسفي الذي دخل العالم الإسلامي في بداية القرن الثاني ولبس ثوبا إسلاميا، في حين إن جوهره إغريقي مادي.

ب/ التيار الاجنبي الذي لا يزال يتغلغل في أعماق مجتمعاتنا عن طريق مختلف وسائل الاعلام المتطورة، التي تحتوي على سموم بالغة من حيث البناء والإيحاء والإتجاه.

ج/ التيار الجاهلي الذي نبع عن ابتعادنا نحن عن مصادر الأئمة المعصومين عليهم السلام، حيث انجررنا وراء الأهواء والآراء الشخصية.

والتحصن ضد هذه التيارات إنما يمكن بالتوجه الى المنابع الأولية للمعارف الإسلامية، وهي الروايات الشريفة دون أن نستعين في فهمها أو تأويلها بشيء من التيارات المشار إليها، بل نعتمد على التدبر العميق في الأحاديث كما لو كنا نحن المخاطبين بها.

١- المصدر، ج٢٣، ص٣٠٨.

٢- أن نكيّف حياتنا العملية والفكرية مع توجيهات الأئمة الأطهار ﷺ دون أن ندع حرفاً واحداً منها غير مطبق تطبيقاً كاملاً.

٣- أن ننشر معارف الأئمة الهداة ﷺ في الأوساط العامة وبمختلف المستويات، ونضحي في سبيل ذلك بالوقت والمال والمجهود.

نسأل الله أن يوفقنا لذلك حتى نحظى بسعادة الدنيا والآخرة.

البعث والنشور في القرآن الكريم

تدعونا الى الإيمان بالبعث بعد الموت نظرة واعية الى ما يجري حولنا من أحداث في هذه الدنيا الواسعة :

١ - فهناك طائفة كبيرة من الناس يعيشون معنا ، يحيون ويموتون طيبين - أعمالاً وقلوباً - لا يبرحون عن إسداء الخدمات الانسانية إلى نظرائهم من البشر دون أن يريدوا منهم جزاءاً أو شكوراً.. إنهم يعبدون ربهم ويذكرونه بالعشي والابكار، ولكن مع ذلك تجدهم مظلومين، مقهورين، منكدة عيشتهم، طويلة أحزانهم، متوالية نكباتهم وويلاتهم. وإلى جنب هذه الطائفة يوجد أُناس يتمتعون بالعدة والثروة والجاه العريض. وبعكس ما قد يُتصور لا يزالون قاسطين، ظالمين، بغاة يهتكون الحرمات ويرتكبون الخطيئات. وكثير منهم يموت على ما هو دون أن يلقى جزاءه في الدنيا.

وإن كثيراً من أولئك الطيبين يبلغون في مكارمهم القمة، كالأنبياء والصالحين والمتمسكين بالحق وهم الألوف الألوف.

وإن كثيراً من هؤلاء المجرمين يهبطون في أعمالهم السيئة الى الحضيض ويقتلون الملايين ويقترفون الجرائم البشعة بحق البشرية جمعاء.

والله الحكيم الذي نرى آثار حكمته في السماء والأرض، لم يخلق شيئا عبثاً. ولا كان بحاجة الى اللعب واللهو، تعالى عن ذلك. الله القادر الذي نجد في ذات أنفسنا وفي كل ما حولنا من أشياء آيات قدرته العظيمة التي لا تحد.. كيف لا يعطي جزاء هؤلاء وهؤلاء؟

أعبثاً خلقهم؟ أم خلقهم ليظلم قويهم ضعيفهم بغير سبب؟ أم أراد بذلك أن يؤذي غير المؤذي؟ أم عجز عن أن يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإسائته؟ كلاّ ثم كلاّ.

فسبحان الحكيم الغني أن يخلق الخلق عبثاً (ولا حاجة له الى العبث) وسبحانه أن يعجز عن أن يجازيهم، أو أن يعجز عن خلقهم مرة أخرى وهو الذي أنشأهم أول مرة.

٢- كل دلائل الكون تهدينا الى أن ما فيه قد سخر لنا (أو قد خلق لأجلنا). كل ما فيه من شمس وقمر ونجوم تعمل — ليل نهار — لتبقى الحياة مستمرة. وكل ما فيها مسخر لنا، بما أوتينا من موهبة العقل والقدرة والحرية. وإذا كان كل شيء لنا، فنحن لماذا؟ هل خُلقنا لكي نتمتع في الدنيا؟ ومن منا استطاع أن يتمتع بها سعادة وافية؟ أكبيرنا أم صغيرنا؟ سيدنا أم مملوكنا؟ رئيسنا أم مرؤوسنا؟ ليس هناك من استطاع أن يتذوق حقيقة السعادة في الدنيا، فلماذا إذاً خُلقنا؟

هناك جوابان على ذلك لا ثالث لهما:

أ/ إن الله سبحانه أراد أن يلعب ويعبث فخلقنا ليضحك علينا.

وهذا بعيد عن دلائل حكمته التي نراها في الكون، وعما يهدينا إليه العقل من كمال ربنا، إنه قدوس ليس فيه نقص.

ب/ إنه خلقنا لعالم آخر، وجعل ما في هذه الدنيا من خير دليلاً على أفضل منه وأكمل منه يوجد في الآخرة، وما هنا من شر دليلاً على أسوأ منه وأطول منه يوجد في الآخرة، وأذاقنا من هذا حيناً ومن هذا حيناً، ثم بين لنا عن طريق رسله كيف نتجنب ذلك ونقترب الى هذا.

وهذا هو التفسير الصحيح لظواهر الكون كلها.

٣- والى هذا تشير الآيات القرآنية التي سوف نلم بنبذة يسيرة منها، والتي تعتبر بذاتها دليلاً مستقلاً على الحياة الآخرة، لما ثبت بالأدلة العقلية أن لنا إلهاً كاملاً وأنه بعث رسلاً

صادقين ونقلوا عنه أن من عمل سوءاً جوزي به وأنه من صلح عملاً أثيب عليه، علمنا بأن وراءنا جزاءا وثوابا. لنقرأ معاً بعض هذه الآيات القرآنية:

لا ريب فيه

قال الله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية، ٢٦).

بلى: يوم القيامة لا ريب فيه واقعاً؛ أي لا محالة واقع، وليس في ذلك تردد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا الواقع، ولا يغير جهل البشر من الواقع شيئاً. فنحن نجهل – مثلاً – وجود منظومة شمسية في آخر آماد هذا الفضاء، فهل يجعل جهلنا بها وجودها عدماً؟ كلاً.. ولعل هذه الآيات في القرآن تعالج حالة نفسية عند البشر، وهي أنه يزعم إن مجرد شكه في شيء يجعله في حل من الالتزامات المترتبة على وجوده. كلا. فالشك في الشيء لا يغير من الواقع شيئاً؛ فالواقع واقع، سواء آمنت به أو لم تؤمن، فإذا كان ذلك الواقع كيوم القيامة الرهيب فان تجاهله مأساة حقيقية للانسان.

لماذا البعث؟

من أهداف النشور بعد الموت تبيان الحق، وكشف زيف الكفار. وهكذا يكون من حِكَم الإيمان بالآخرة، الايمان بوجود مقياس ثابت للحق، يرجع إليه الناس، فيحكم بينهم فيما اختلفوا. قال الله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ (النحل، ٣٩). فلا يستطيع أحد من أن يبدل الحق باطلاً، ويخدع نفسه بأن الباطل قد أصبح حقاً. كلاً؛ إن وراءنا يوماً يميز فيه الحق عن الباطل بوضوح كاف.

يحيي ويميت

إن العالم مع ما فيه من تقدم كبير في مجال العلوم المختلفة، عاجز بأسره أن يضيف إلى الإنسان لحظة واحدة من الحياة، لأن الحياة بيد الله وحده، فهو الذي يحيي ويميت. وليس الإنسان وحده الذي يخضع لإرادة الله تعالى، بل لا تجد ظاهرة في الكون إلاّ وهي خاشعة له خاضعة لأمره.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (المؤمنون، ٨٠).

فالليل والنهار يتعاقبان، ليس فقط في التناوب الزمني، وإنما أيضاً في القصر والطول. ومن أوتي البصيرة، والنظر بعين قلبه الى اتقان تدبير الله في الليل والنهار، تبصر أيضاً بمعنى الحياة والموت وقدرة الله المهيمنة عليهما.

وإن الإنسان ليهتدي لهذه الحقيقة حينما يستفيد من عقله، أما حين يعطله بالأسباب المختلفة، كتقليد الآباء، فانه أبعد ما يكون عن استيعاب هذه الحقائق بالرغم من شدة وضوحها وقربها.

قال الله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۞ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون، ٨١- ٨٣).

لقد زعموا بأن هذه الحقيقة هي من الأفكار المتخلفة، ونسوا أن مبدأهم كان من التراب، وإن الذي خلقهم أول مرة لقادر على بعثهم من التراب مرة أخرى.

الحياة الآخرة

قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت، ٦٤).

إن الحياة الدنيا بصورتها العادية، ومقوماتها، وأبعادها المادية، مجرد لهو أو لعب بلا هدف. فالأهداف الجدية ترتبط جديتها بمدى ارتباطها بالحياة الآخرة، والقضايا الغيبية.

وفي الدار الآخرة تتوفر جميع مقومات الحياة من الخلود الأبدي، واللذات الجمة. والراحة النفسية الممتزجة بالطمأنينة.. فيتخلص المؤمن من هموم الدنيا ومشاغل الحياة.

يوم ينتظرك

لا يتخلص الإنسان من حب الدنيا إلاّ بذكر الآخرة: فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار هانت عليه مصيبات الحياة.

قال الله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ❖ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ❖ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ❖ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ❖ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ❖ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ❖ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ❖ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ❖ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ❖ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ❖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ❖ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ (العاديات: ١- ١١).

ذلك يوم ينتظرنا جميعاً، حيث تثار فيه القبور لاستخراج ما فيها. ويومذاك يحشر الناس للحساب، وتشهد عليهم جوارحهم، وتظهر ما في جوانحهم، وتبلو السرائر، وتسقط الأقنعة، ويعرف الإنسان مدى خسارته لفرصة العمر إذ لم يزك نفسه من حب الدنيا وبهارجها. وهنالك يعلم الناس يقيناً أن الله تعالى محيط بهم.

وهكذا نرى الإيمان بالآخرة وتذكر الحساب فيها كيف يكبح جماح شهوات الدنيا عند البشر.

وعد الله

إن النفس البشرية لا ترى بطبعها إلاّ ما أمامها من الحقائق المشهودة، ولا تتأثر بالمستقبل البعيد حتى ولو كان من الحقائق المعلومة يقيناً. وبضغط من الشهوات العاجلة، وبوساوس إبليس تعرض النفس عن الغيب للشهود، وعن المستقبل للحاضر. ولابد من تصوير الغيب،

وإبراز مشاهد من المستقبل حتى تهتم النفس بها. ولعل منهج القرآن في تصوير مشاهد البعث والجزاء باستثارة قوة الظن والخيال يتم لهذه الغاية. فهو ليس مجرد أُسلوب في البيان. بل هو منهج علمي لاصلاح النفس وإيجاد التوازن بين قوة الشهود وحقائق الغيب. وإنما المؤمنون هم الذين يستشرفون المستقبل، وينظرون الى الغيب بقوة الظن، ويستثيرون كوامن الخوف والرجاء بالتذكرة الذاتية.

والسياق القرآني في سورة يس يصور لنا جانباً من مشاهد الهلاك ثم النشور والجنة والنار.

قال الله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ (يس، ٤٩).

إنهم يستعجلون العذاب، ويقولون: متى هذا الوعد؟ بلى؛ ولكنهم ينتظرون بذلك أمراً عظيماً، إذا جاء لا يمكن رده أو تأجيله، فانما هو صيحة واحدة لا ثانية لها، لأنها القاضية، وهي تعمهم بالأخذ بغتة في وقت تراهم يخوضون في جدلياتهم التي لا تغني شيئاً.

ثم يقول ربنا عـز وجـل: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (يس، ٥٠).

وهذه المباغتة سريعة الى درجة أنها تمنعهم من أن يخلفوا وصيّتهم، بالرغم من أنهم لا يعودون الى أهلهم. فهم أحوج ما يكونون الى التوصية.

بعد ذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ❁ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس، ٥١- ٥٢).

ويمكث الناس في قبورهم ما شاء الله، حتى ينفخ في الصور الملك الكريم اسرافيل؛ وبمجرد النفخ تراهم يسرعون الى ربهم، حيث وضع الميزان العادل. وهنالك يعترف هذا

الإنسان الخصيم الذي استهزأ بكل المرسلين، وأعرض عن كل الآيات، وينادي بالويل لنفسه، ويزعم أنه كان نائماً، ويتساءل: أية قدرة استطاعت بعثه من محل نومه بعد طول الرقاد؟! فيأتيه الجواب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

الساعة آتية

كل إنسان مفطور على الإيمان بالبعث؛ ولكن بما أنه معرض لوساوس الشيطان، فهو يكفر إن لم يحاول قمع تلك الوساوس.

فإذا اعترى الإنسان ريب من البعث، فلينظر الى ماضيه، وهل باستطاعته أن يقول: إن الله لا يقدر على خلقه من جديد؟ فكيف - إذاً - خلقه أطواراً؟

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (الحج، ٥).

خلق الله الإنسان من تراب، ثم من نطفة، فعلقة فمضغة. وبعد الولادة كان في حالة تطور؛ فمن الطفولة الى الشباب، الى الهرم، الى الوفاة. وهذا التطور يسير حسب قانون وتدبير رشيدين، من لدن إله حكيم قدير.

فلكي تعرف مستقبلك انظر الى بداية خلقك، فبعد أن كنت ضعيفاً في رحم أمك قويت، وسوف تعاد كذلك في أرذل العمر. أوليس الذي أنشأك في ظلمات الأرحام، وفي الحياة خلقاً بعد خلق بقادر على إنشائك من بعد موتك؟!

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ❖ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (الحج، ٦- ٧).

وصفوة القول: إن الآيات المتقدمة تدعونا إلى أمرين؛ الأول: الى الايمان بقدرة الله تعالى. الثاني: إلى الايمان بيوم القيامة. ذلك إن الايمان بقدرة الله هو الطريق للايمان بالبعث، فكلما شككنا في البعث لابد أن ننظر إلى آيات قدرة الله؛ لأن الشك في البعث ناتج من الشك في أسماء الله سبحانه. أما من يعرف الله حقاً فانّه لا يشك في البعث.

خلقاً جديداً

إن الإيمان بالآخرة ضمان للتفكير السليم في الحياة؛ وإن الكفار لم يكتفوا بانكار الآخرة، وإنما كانوا يسعون لتبرير اعتقاداتهم بأفكار سخيفة وشبهات واهية: منها الشبهة التالية: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (الاسراء، ٤٩).

فكيف يبعث الإنسان وقد أضحى رفاتاً؟ هذا ما كان يتساءل الكفار عنه مستنكرين، فأجابهم الله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ❖ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الاسراء، ٥٠- ٥١). وبديهي أن الخلق ثانية أهون من الخلق ابتداء.

وأجاب القرآن عن شبهتهم بأن كلامهم يخضع لمقاييس المخلوقين، أما الخالق فهو على كل شيء قدير.

مستوى اليقين

وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة، ٤).

الإيمان الذي يتحلّى به المتقون، هو إيمان كامل لا يقتصر على بعض الحقائق فقط، وينحسر عما يخالف الأهواء؛ إنما هؤلاء يؤمنون بما أُنزل الى الرسول من كتاب وبما أُنزل على الرسل من قبل رسول الله محمد ﷺ، لا يفرقون بينهم، وإيمانهم بالآخرة راسخ يصل الى مستوى اليقين، فاذا بهم مطهرون من أي شك في يوم الجزاء. بذلك تتكامل عقائد المتقين؛ الإيمان بالله، ثم الإيمان بالرسالات، ثم الإيمان بيوم القيامة. وبالطبع الإيمان بالرسالات يدعونا الى الإيمان بخلفاء الرسل وبامتداداتهم، كما أن الإيمان بيوم الميعاد يأتي نتيجة للإيمان بعدالة الله. وهذه هي أصول الدين الأساسية التي تشكل جوهر شخصية المؤمن.

البعث والنشور في السنة الشريفة

قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام :

"أيها الناس، اتقوا الله واعلموا أنكم إليه راجعون، فتجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذّركم الله نفسه. ويحك يا ابن آدم الغافل وليس مغفولاً عنه، إن أجلك أسرع شيء إليك، قد أقبل نحوك حثيثاً، يطلبك ويوشك أن يدركك، فكأن قد أوفيت أجلك وقد قبض الملك روحك وصيّرت الى قبرك وحيداً، فردً إليك روحك واقتحم عليك ملكاك منكر ونكير لمساءلتك وشديد امتحانك. ألا وإن أول ما يسألانك عن ربك الذي كنت تعبده، وعن نبيك الذي أرسل إليك، وعن دينك الذي كنت تدين به، وعن كتابك الذي كنت تتلوه، وعن إمامك الذي كنت تتولاه، وعن عمرك فيما أفنيت، وعن مالك مِن أين اكتسبته وفيما أنفقته. فخذ حِذرك، وانظر لنفسك، وأعدّ الجواب قبل الامتحان والمساءلة والاختبار، فإن تك مؤمناً عارفاً بدينك، متبعاً للصادقين، موالياً لأولياء الله، لقّاك الله حجتك، وأنطق لسانك بالصواب فأحسنت الجواب، وبُشّرت بالجنة والرضوان من الله، واستقبلتك الملائكة بالروح والريحان، وإن لم تكن كذلك تلجلج لسانك، ودحضَت حجتك، وعييت عن الجواب، وبشّرت بالنار، واستقبلتك ملائكة العذاب بنزل من حميم وتصلية جحيم.

واعلم يا ابن آدم إن ما وراء هذا أعظم وأفظع وأوجع للقلوب، يوم القيامة، ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود يجمع الله فيه الأولين والآخرين، يوم ينفخ في الصور ويبعثر فيه القبور، ذلك يوم الآزفة، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ذلك يوم لا تقال فيه عثرة ولا تؤخذ من أحد فدية ولا تُقبل من أحد معذرةٌ، ولا لأحد فيه مستقبل توبة، ليس إلاّ الجزاء بالحسنات والجزاء بالسيئات، فمن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده، ومن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من شر وجده".[١]

١- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص١٨٠- ١٨١.

آية للنـاس

روي عن أبي عبد الله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في خبر طويل يذكر فيه قصّة بخت نصر أنّه لمّا قتل ما قتل من بني إسرائيل خرج إرميا على حمار ومعه تين قد تزوّده وشيء من عصير، فنظر إلى سباع البرّ وسباع البحر وسباع الجوّ تأكل تلك الجيف، ففكر في نفسه ساعة ثم قال: أنّى يحيي الله هؤلاء وقد أكلتهم السباع؟ فأماته الله مكانه وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾

أي أحياه، فلمّا رحم الله بني إسرائيل وأهلك بخت نصر ردّ بني إسرائيل إلى الدنيا، وكان عزير لمّا سلّط الله بخت نصر على بني إسرائيل هرب ودخل في عين وغاب فيها وبقي إرميا ميّتاً مائة سنة ثمّ أحياه الله، فأوّل ما أحيا منه عينيه في مثل غرقئ البيض فنظر، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾، ثم نظر إلى الشمس قد ارتفعت فقال ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي لم يتغيّر ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فجعل ينظر إلى العظام البالية المنفطرة تجتمع إليه، وإلى اللّحم الذي قد أكلته السباع يتألّف الى العظام من ههنا وههنا ويلتزق بها حتّى قام وقام حماره فقال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٧، ص٣٤.

قيام الساعة

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: قال عيسى عليه السلام لجبرئيل: متى قيام الساعة؟ فانتفض جبرئيل انتفاضة أُغمي عليه منها، فلما أفاق قال: يا روح الله؛ ما المسؤول أعلم بها من السائل، وله من في السماوات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة.[1]

يحيي العظام

عن الحلبي، عن أبي عبد الله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: جاء أبي بن خلف فأخذ عظماً بالياً من حائط ففته، ثم قال: يا محمد؛ إذا كنا عظاماً ورفاتاً، أإنا لمبعوثون خلقاً؟ فأنزل الله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس، ٧٩).[2]

يعيده كما بدأه

عن هشام بن الحكم أنه قال الزنديق للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: أنّى للروح البعث والبدن قد بلي والأعضاء قد تفرّقت؟ فعضو في بلدة تأكلها سباعها، وعضو بأخرى تمزّقه هوامها، وعضو قد صار تراباً بني به مع الطين حائط؟

قال: إنّ الذي أنشأه من غير شيء وصوّره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه.

قال: أوضح لي ذلك.

قال: إنّ الروح مقيمة في مكانها؛ روح المحسنين في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تراباً منه خلق، وما تقذف به السباع والهوامّ من أجوافها فما أكلته ومزّقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرّة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وإنّ تراب الروحانيّين بمنزلة الذهب في التراب فإذا كان حين البعث مطرت الأرض فتربوا الأرض ثم تمخض مخض السقاء فيصير تراب البشر كمصير

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٦، ص٣١٢.

٢- تفسير نور الثقلين، العروسي الحويزي، ج٤، ص٣٩٤.

الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللّبن إذا مخض، فيجتمع تراب كلّ قالب فينتقل بإذن الله تعالى إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصوّر كهيئتها وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً.[1]

خلقت للآخـرة

إن مشكلة الإنسان هي أنه قد ينغمس في زخارف الدنيا وزبرجها الى حد كبير، بحيث ينسى أنه مسافر في هذه الدنيا وليس خالداً فيها، وينسى أن الموت ينتظره لكي ينقله الى دار الآخرة. ففي كتابه الى الإمام الحسن ﷺ، قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: "واعلم أنك خلقت للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وأنك في منزل قلعة ودار بلغة وطريق الى الآخرة".[2]

وقال ﷺ أيضا: "إنك مخلوق للآخرة فاعمل لها".[3]

وقال ﷺ: "غاية الآخرة البقاء".[4]

وقال ﷺ: "وأكثر ذكر الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم، فان ذلك يزهدك في الدنيا ويصغرها عندك".[5]

وقال ﷺ: "طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب".[6]

نفسك بيد غيـرك

لقد جعل الله النوم واليقظة آيتين على الموت والبعث، يعايشهما الإنسان كل يوم لعله يتذكر القيامة، ويعرف أن نفسه بيد غيره، فيكيف حياته وفق هذه الحقيقة الكبرى. قال

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٧، ص٣٧-٣٨

٢- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٥٧.

٣- غرر الحكم، عبد الواحد الآمدي، ص٢٨٨.

٤- المصدر، ابن شعبة الحراني، ص٥٠٤.

٥- المصدر، ابن شعبة الحراني، ص٥٧.

٦- نهج البلاغة، الشريف الرضي، حكمة رقم ٤٤.

الإمام محمد الباقر صلوات الله عليه: "كان فيما وعظ به لقمان عليه السلام إبنه، أن قال: يا بني إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك، وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك. فإنك إذا فكرت في هذا، علمت أن نفسك بيد غيرك، وإنما النوم بمنزلة الموت، وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت".[1]

من كان همه الآخرة

ولأن الدنيا مزرعة الآخرة، وتكتسب قيمتها من حجم العمل الذي يقدمه الإنسان لعالم الخلود، فإن عليه أن يجعل الآخرة فوق كل همومه في الحياة حتى لا ينسى دوره الحقيقي هنا. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه، جعل الله الغنى في قلبه، وجمع له أمره، ولم يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه. ومن أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه، جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره، ولم ينل من الدنيا إلاّ ما قسم له".[2]

وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "أفضل المسلمين إسلاماً من كان همه لأُخراه، واعتدل خوفه ورجاه".[3]

من آثر الدنيا على الآخرة

ويحذّرنا الإمام علي بن الحسين عليه السلام من الغفلة عن الآخرة، إذ الغفلة عنها تستعقب الندم والحسرة يوم لا ينفعان الانسان شيئاً. يقول الإمام عليه السلام: "فالحذر الحذر من قبل الندامة والحسرة، والقدوم على الله، والوقوف بين يديه. وتالله ما صدر قوم قط عن

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٧، ص٤٢.
٢- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٤٠.
٣- غرر الحكم، عبد الواحد الآمدي، ص٢٠٤.

معصية الله إلاّ الى عذابه، وما آثر قوم قط الدنيا على الآخرة إلاّ ساء منقلبهم وساء مصيرهم".[1]

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "من آثر الدنيا على الآخرة حشره الله يوم القيامة أعمى".[2]

وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "حصلوا الآخرة بترك الدنيا".[3]

إذا كان يوم القيامة

وفي القيامة يُسأل العبد عن كل صغيرة وكبيرة بدرت منه في الحياة الدنيا، إلاّ أن هناك خطوطاً رئيسية حددتها الروايات يتم التركيز عليها أكثر من غيرها، لأنها تشكل المفاتيح الرئيسية لحياة الإنسان. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة لم تزل قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن حبنا أهل البيت".[4]

اقرأ كتابك

عن خالد بن نجيح، عن أبي عبد الله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: "إذا كان يوم القيامة رفع الإنسان كتابه، ثم قيل له: اقرءه. قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: إنه يذكره؛ فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم إلاّ ذكر كأنه فعله تلك الساعة، فلذلك ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[5] (الكهف، ٤٩).

١- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص١٨٣.
٢- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٧، ص٢١٨.
٣- غرر الحكم، عبدالواحد الآمدي، ص٣٨٣.
٤- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٤٥.
٥- تفسير نور الثقلين، العروسي الحويزي، ج٣، ص٢٦٧.

قيامة المتقين

وتختلف انعكاسات يوم القيامة على الأشخاص حسب اختلاف أعمالهم ومواقفهم في الدنيا، فهي للمتقين تختلف عنها للمنافقين. وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "القيامة عرس المتقين".[١]

بالدنيا تحرز الآخرة

والذين يمقتون الدنيا يخطأون في موقفهم هذا، إذ ان الدنيا هي في الحقيقة وسيلة الحصول على الفلاح في الآخرة. يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "بالموت تختم الدنيا، وبالدنيا تحرز الآخرة، وبالقيامة تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين".[٢]

الآخرة أمامك

وعلى المؤمن أن يستعد للقاء ربه، والاستعداد يعني العمل الايجابي والاجتهاد الحثيث للحصول على الدرجات الرفيعة هناك. يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "استعدوا ليوم تشخص فيه الأبصار، وتزل لهوله العقول، وتتبلد البصائر".[٣]

وقال عليه السلام: "اعملوا ليوم تدخر له الذخائر، وتبلى فيه السرائر".[٤]

وقال عليه السلام: "إحذروا يوماً تفحص فيه الأعمال، وتكثر فيه الزلزال، وتشيب فيه الأطفال".[٥]

١- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٧، ص١٧٦.
٢- المصدر، ص٤٧.
٣- غرر الحكم، عبدالواحد الأمدي، ص١٤٠.
٤- المصدر، ص١٤٠.
٥- المصدر، ص١٤٦.

لا أنساب بينهم

في كتاب المناقب لابن شهر آشوب في مناقب زين العابدين عليه السلام، قال طاووس الفقيه: رأيته يطوف من العشاء الى السحر ويتعبد. فلما لم ير أحداً رمق الى السماء بطرفه وقال: "إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد صلى الله عليه وآله في عرصات القيامة".

ثم بكى وقال: "وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به عليٍّ، فأنا الآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا، وللمثقلين حطوا. أمَعَ المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحي من ربي".

ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأيـــن رجائـــي ثم أين محبتي
أتيـــت بأعمال قباح ردية وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكى وقال: سبحانك تعصى كأنك لا ترى، وتحلم كأنك لم تعص، تتودد الى خلقك بحسن الصنيع كأن لك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم".

ثم خرّ الى الأرض ساجداً قال: فدنوت منه وشلت رأسه فوضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال: "من الذي أشغلني عن ذكر ربي؟"

فقلت له: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جافون؟ أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله!

قال: فالتفت إليَّ وقال: "هيهات هيهات يا طاووس، دع عنّي حديث أبي وأمّي وجدّي، خلق الله الجنة لمن أطاع وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً. أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾. والله لا ينفعك غداً إلاّ تقدمة تقدمها من عمل صالح.[1]

١- تفسير نور الثقلين، العروسي الحويزي، ج٣، ص٥٦٣- ٥٦٤.

الفصل الثاني

أحاديث في العقيدة

العقائد بين العقل والعاطفة

قد يستمد الإنسان عقائده وأفكاره من عواطفه و أحاسيسه ، ومن الناس من يجعل عقله قاعدة ومنطلقاً لمعتقداته.

فالنموذج الأول تعجبه المظاهر ويتأثر بها ويسير خلفها : بمعنى أنه يكون تابعاً لهواه ، فهو يضع اللون والشكل والجمال أمام عينيه اللتين تسيراه غالباً .

والنموذج الثاني يجعل العواطف والتأثر بالمظاهر تابعاً للعقل والحكمة ، فإذا أراد شراء بيت مثلاً ، فكرّ في موقع البيت ، واختار نوعية الجار، وتأكد من متانة ورسوخ قواعد البناء ، ثم اختار البيت ، وذلك كله وفق قواعد العقل والحكمة ، لا الإعجاب والافتتان بمظهر وجمال البيت . وهكذا هو شأن سيرة النموذج الثاني في كافة مناحي الحياة .

والآن إذا سألت زيداً من الناس عن سبب اعتناقه لهذا الدين دون سواه من بقية الأديان .فإنه ـ وهذا هو حكم الأغلبية ـ لا يسعه من الإجابة إلا بنسبة اعتناقه إلى أبيه وأمه وقومه ، في وقت تأكد لنا بأن محيط الوالدين والعائلة والمجتمع لا يصنع الحق ولا يصنع الواقع . بينما نرى الحكماء من الناس يجيبون عن هذا السؤال المهم بأنهم قد فكروا وبحثوا وتوصلوا إلى الحقيقة فاقتنعوا بها . الفرق كبير بين هذين النموذجين.

فمن يعتقد ويعتنق هذا الدين ضمن العواطف والأحاسيس من شأنه أن يتبدل اعتقاده بتبدل العواطف والأحاسيس ؛ فهو مؤمن بالله مادام الآخرون الذين تأثر بهم مؤمنين ، أما إذا تغيرت عوامل تأثره بفعل تغير محيطه مثلاً تراه يبحث عن لون جديد وثوب جديد ليتقمصه.

والقضية الثانية هي أن من يعتقد بدين أو معتقد من خلال العواطف والبيئة الاجتماعية أو السياسية أو التاريخية وما أشبه ، لا يمكنه استخدام عقله لدى تطبيقه لتفاصيل دينه . فمن يعبد البقرة تراه يعجز عن الاستماع الى صوت العقل القائل بقبح التبرك بفضلات البقرة ، وهذا هو واقع الديانة الهندوسية التي تتجاهل بوعي أو دون وعي حتى البحث عن سبب اكتساب البقرة هذه القدسية المفروضة لها .

وهذا دليل واضح على أن من كانت بداية اعتقاده بداية خاطئة غير قائمة على أساس التفكير والبحث السليم ، كان استرساله في ذلك الاعتقاد استرسالاً خاطئاً في كافة مناحي حياته ، حيث يضطر الى الاعتقاد بضرورة دفن الزوجة أو حرقها إذا مات زوجها ، وإلى إطلاق العنان للبقر في أن تقطع حركة السيارات في الشوارع متى ما حلا لها ذلك ، وهكذا الأمر والحكم بالنسبة لكافة المعتقدات القائمة على أسس العواطف والأحاسيس.

ومن هنا ؛ فإني أوصي نفسي و إخواني بضرورة أن تكون معتقداتنا قائمة على أسس متينة من العقل والحكمة والتفكير الصحيح ، لكي تكون مسيرتنا في الحياة مسيرة سليمة ، ولنصل فيما بعد الى نهاية محمودة لا نندم لها أبداً .

والقرآن الكريم يضرب لنا مثلاً رائعاً في قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام ، إذ كان يعلم علم اليقين بالله سبحانه وتعالى وبقدرته المطلقة ، ولكنه أراد ترجمة هذا اليقين الى حالة يلمسها هو لتكون للآخرين خير تجربة تغنيهم عن عناء كبير وخسائر فادحة ، فبدأ رحلة الشك الى اليقين. يقول الله تعالى بهذا الصدد :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ❁ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ❁ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام، ٧٥- ٧٩).

فالنبي إبراهيم ﷺ أراد للمسلمين اعتقاداً دينياً قائماً على أساس التسلسل المنطقي السليم ، المنطق الذي يدرك ويعي صفات الرب المعبود تمام الإدراك والوعي .

ثم في قصة قرآنية أخرى يتكرر هذا المشهد لمزيد من الوعي واليقين القائم على أساس البحث الدقيق والفكر السليم ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى بهذا الصدد :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة، ٢٦٠).

فإبراهيم ﷺ ، هذا النبي العظيم كان يبحث لنفسه وللمسلمين عن الطمأنينة ، ويسأل الله تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى كي يطمئن قلبه ولا يصاب بما يصاب به المنافقون من الشك والهلع إزاء كل واقعة ؛ حيث يعيشون في الشك ويموتون معه ، حيث غفلوا عن أن الحياة الحقة مع اليقين والاطمئنان ، وعن أن القناعة بالدين يجب أن تكون قناعة أصيلة .

أساس العقيدة

وحينما نأتي الى معرفة الانبياء والرسل ، نجد ثمّ فرق كبير بين أن نعرف النبي محمد ﷺ كأول شخصية عالمية ناجحة ، وحد العرب وقاد الأمة وبنى حضارة .. وبين أن نعرفه رسولاً من عند الله تعالى .

فحينما نقول : محمد رسول الله ؛ يعني أننا نؤمن بأن عيسى بن مريم رسول الله، وأن موسى بن عمران رسول من عند الله ؛ وأن إبراهيم رسول من عند الله ، لا نفرق بين أحد من رسله.

وهكذا الأمر بالنسبة الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ. فبعض الناس يتحدث عنه ؛ ذلك البطل العظيم الذي طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله ﷺ حتى نادى جبرئيل ﷺ بين السماء والأرض : « **لا فتى إلاّ علي، لا سيف إلا ذوالفقار**» كان يحصد رقاب الكفار بسيفه حصداً ؛ وخلال إحدى المعارك طلب أحدهم منه سيفه ، فلم يمتنع عن إعطائه إياه، فقيل له : يا أبا الحسن كيف تعطيه سيفك ؟ فقال ﷺ : « **إني لأستحي من الرجل يطلب مني شيئاً ثم أرده**». فبطولته بطولة ، وكرمه كرم ، وإحساسه إحساس .

فمرة نعتقد به ، ذلك البطل الرمز ، والقدرة الحسنة في الإباء والشهامة والعطاء .. وهذا كله صحيح ، ولكنه انعكاس مباشر لما أثارته البطولة والرمزية من أحاسيس وعواطف.

ومرة نعتقد به ، ذلك الزاهد العابد الذي كان يصلي في كل ليلة ألف ركعة ، وهو الذي كان يناجي ربه في حديقة بني النجار ثم يقع مغشياً عليه من شدة العبادة وخشية ربه ..

ومرة نعتقد به ، ذلك الكافل للأيتام والحاني عليهم ، الذي إذا رأى يتيماً انهالت دموعه.

وهذا الاعتقاد بجملته اعتقاداً صحيحاً ، ولكنه نابع من الاحساس والعاطفة .

والاعتقاد الصحيح بعلي بن أبي طالب ﷺ هو معرفته كامتداد مباشر لرسول الله ﷺ ، حيث عرفنا رسول الله ، رسولاً من عند الله سبحانه وتعالى .

فالفرق يبدو كبيراً للغاية بين أن نعرف علياً مؤطراً بإطاره الخاص وبسيرته الخاصة فقط ، وبين أن نعرفه ممثلاً شرعياً لرسالة نبينا الأكرم محمد ﷺ.

فالقناعة بالمعتقد ينبغي ألاّ تكون قناعة مشتتة ومبعضة ، بل يجب أن تكون قناعة واحدة ، قناعة مستمدة من أصل وقيمة وشرف في كون جميع الأنبياء والرسل والأئمة الهداة عباد الله جل اسمه .

فلو سأل سائل رسول الله محمد ﷺ عن أحب واكرم صفة يفضل إطلاقها عليه لقال : إني عبدالله .

ومن طبيعة العقيدة الدينية أنه كلما ازداد إيمان الانسان بالله تعالى ، كلما ازداد إيمانه بالرسول ؛ وكلما ازداد إيماناً بالرسول كلما تضاعف إيمانه بأهل بيته ، وكلما آمن باهل البيت عليهم السلام ازداد عملاً بما أمروا به ، واجتنب ما نهوا عنه .

إذاً ؛ فالقاعدة الأساسية في المعتقد الديني هي الإيمان بالله القائم على أصل العقل والحكمة . وعليه فان الذي نحبه من الإمام علي عليه السلام أنه امتداد لرسول الله ﷺ ، والذي نحبه ونحترمه من رسول الله ﷺ أنه عبد الله و رسوله . وبالتالي فان أصل الحب هو لله تبارك وتعالى ، وهذه هي النقطة الهامة جداً في صرح الإيمان ، ولا يمكن في حال من الأحوال فصل حب الله عن حب رسوله و أوليائه .

حقيقة الأزمة البشرية

فلو ادعى شخص من الأشخاص أنه يحب الله تعالى ويقدسه ، ولكنه في الوقت ذاته ينكر ضرورة إتباع الرسول ، فان مثل هذا الاعتقاد مرفوض رفضاً قاطعاً ، ذلك لأن الله سبحانه لم يرد لنا مثل هذا الحب ، حيث قال سبحانه وتعالى على لسان

أنبيائـه لأقـوامهم : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران ، ٣١).

فحب الله يكمن في اتباع الرسول ، وهذا الاتباع لا يمكن تصوره دون اعتقاد وحب ، وقد قال الله تعالى في آية قرآنية كريمة أخرى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء ، ٦٤)

فالله عزّ وجلّ أشار الى الباب الذي ينبغي أن ندخل عليه منه ، إذ الأنبياء هم وسائل الله .

ولعل ثمرة هذا الاعتقاد تكمن في أن يمتنع الإنسان المؤمن عن التهرب من مسؤولياته التي ألقاها الله على عاتقه ، ذلك التهرب الذي يعتبر الأزمة التاريخية للبشرية ، وهو الانعكاس المباشر لحالة الفوضى التي عصفت وتعصفت بالبشرية منذ البداية ، حيث يريد كل منهم أن يختط منهجاً لنفسه ليرقى - زعماً من عند نفسه - القمة .

فالتمرد على الأنبياء عليهم السلام يمثل بحق أزمة البشرية الحقيقية منذ القدم ، إذ كان الناس يرفعون يافطات التبرير لرفضهم الأنبياء ، فمرة كانوا يأخذون على الأنبياء كونهم يمشون في الأسواق ويعملون لمعيشتهم ، ومرة يأخذون عليهم كونهم ليسوا ملائكة ، ومرة لا يؤمنون بهم كونهم غير أقوياء من حيث الإمكانات المادية ، ومرة يأخذون عليهم أنهم قد جمعوا حولهم الضعفاء والفقراء ..

وبنو البشر بين هذا وذاك يقيدون أنفسهم بأغلال التهرب من حكومة الله إلى أوهام التكبر والتمرد على إرادة الله سبحانه وتعالى وطاعة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام .

ولقد كان الله قادراً تمام القدرة على أن يدحض جميع المعاذير التي يرفعها الكفار بوجه الأنبياء منذ البداية ، ولكن الحكمة الربانية شاءت أن ترسل الأنبياء بشراً تحكمهم السنن الكونية كما تحكم غيرهم . فكانوا بشراً يمشون في الأسواق لا يعلمون الغيب إلا بما شاء الله ، ولا يملكون من المواهب إلا كما يملكها غيرهم ويزيدهم الله من فضله بما شاء ، وذلك لأسباب عديدة ، منها أن يكون هؤلاء الأنبياء حجة على الناس من حيث الإيمان بالله تعالى .

إن الله سبحانه وتعالى أراد للشخصية الإنسانية أن تتبلور عبر هذا الامتحان الدقيق الذي يتجسد بطاعة الانبياء في ظروف العسر والشدة ، فتستحق هذه الشخصية الثواب الإلهي الموعود.

والله تبارك اسمه الذي أنزل الوحي على قلوب الأنبياء كان عارفاً بأن قلوب الناس عاجزة عن استيعاب هذا الوحي ، لأن داء التكبر حال بين الناس وبين معرفة هذه الحقيقة الناصعة. ولا يغيب عنا ان استقبال واستيعاب الوحي وتلقي الملائكة أمور بحاجة ماسة إلى تهيئة الأرضية اللازمة ، كالتربية الصحيحة والإيمان المطلق والاصطفاء من قبل الله ، وهم قد فقدوا كل ذلك .

وكما كان التهرب من طاعة الأنبياء والاعتراف بهم أزمة بشرية كبرى ، كذلك كان داء التكبر على الله أزمة كبرى حاقت بالمسيرة البشرية أيضاً ، وهي ستكلفها الكثير في يوم القيامة ، حيث سيحول الله تبارك وتعالى ما عمل الكافرون وما بذلوا من جهود إلى هباء منثور ، لأنها قائمة على الأنانية والتمرد .

أما التواضع لله فيأخذ صورة متناقضة لذلك ، حيث يقوم صرح هذه الخصلة الأخلاقية الفاضلة على أساس الإيمان بالله ، القائم بدوره على قاعدة العقل والحكمة .

أقول : إن العقل حينما ينظر الى الحكمة الموجودة في هذا الكون من منظار الآيات القرآنية الكريمة ، سيصل قلبه إلى معرفة الرب جلّ جلاله ، ومن هذه المعرفة سيتعرف إلى رسول الله ﷺ ، ومن رسول الله سيتعرف إلى أولياء الله . فعندما يرى العقل في أمير المؤمنين عليه السلام صورة أخرى لنفس صفات الرسول الأكرم من العلم والشجاعة والعدالة والعبادة .. سيمتد منه إلى الإمام علي عليه السلام ومن ثم الى أبنائه الأئمة الهداة المرضيين عليهم السلام .

فإذا اتبع المؤمنون علياً فإنما يتبعونه لكونه يأمرنا باتباع النبي ، وإذا امتثلنا أمر النبي فإنما لأنه أمر الله سبحانه وتعالى .

والمهم في الأمر برمته أن العواطف ينبغي أن تقف خلف التعقل والحكمة والمنطق ، لتكون هذه العواطف جنوداً لصاحبها لا أعداء له .

معرفة الله حكمة الحياة

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (البقرة . ٢٥٥)

في كتاب الله المجيد هناك آيات كريمة تعتبر من الغرر التي تتجلى وكأنها الشمس في رابعة النهار . ومنها هذه الآية التي سميت بـ " آية الكرسي " التي وردت روايات عديدة في فضائلها وكراماتها . ولعل السبب في ذلك أنها تحوي أكبر عدد من أسماء الله الحسنى ، حتى أنه روي أن من قرأها مرة وكل الله به ملائكة يحفظونه ، وكلما تضاعف عدد القراءة كلما تضاعف عدد الملائكة الموكلين ، ولكن المرء إذا قرأها خمس مرات أمر الله هؤلاء الملائكة بالتنحي لأنه سيحفظه مباشرة .

ويبدو أن السبب الأكثر أهمية في ذلك كله أن هذه الآية المباركة مختصة بالحديث عن الرب العلي العظيم . كما يبدو الفارق بينهما وبين كثير من الآيات التي تحدثنا عن سنن الله في الطبيعة ، أو التي تتناول الشمس والقمر والنجوم وطبيعة تحرك كل واحد منها . أو أن بعض الآيات تذكرنا بسنن الله في التاريخ وطبيعة الحركة الاجتماعية الحاكمة أو المحكومة في السيرة البشرية عموماً . والقارئ لمثل هذه الآيات من كتاب الله يجد نفسه أمام تفاصيل علم عظيم . وأمام بحر لا يتناهى من المعارف والحقائق ، رغم وجود القدرة لديه على استيعاب بعض هذه المعارف .

ولكن حينما يذكرنا ربنا سبحانه وتعالى بنفسه، فإننا نلمس أن الأمر قد اختلف كلياً، وأننا أمام ذكرى جديدة و علم متفاوت ، وأمام معرفة من نوع آخر .. يهتز له الوجدان والعقل ، ذلك لأن عقول الناس قد يستحيل عليها الرقي الى مستوى معرفة الرب عزّ وجلّ ، في قبالة تمكنها من استيعاب حقائق ما يحتاجه الإنسان من المخلوقات والموجودات الأخرى .

وفي عالم معرفة الرب يجد الإنسان نفسه بحاجة الى قفزات واسعة من التطور، وإلى ارتفاع هائل ليصل إلى مستوى رفيع جداً حتى يستوعب حقائق أسماء الله الحسنى ومعرفة الرب عن طريقها.

إن من طبيعة فكر الإنسان أنه محاط كله بعالم المخلوقات ، وإذا أراد الارتفاع إلى مستوى معرفة الخالق كان بحاجة الى نقلة نوعية ، وإلى نمط جديد من التفكير. ولقد كانت مشكلة الناس جميعاً أنهم حينما أرادوا معرفة الله سبحانه وتعالى قاسوا معرفة الله بمعرفة مخلوقاته ، وظن الواحد منهم أنه كما يستطيع حل مسألة رياضية أو فيزيائية أو يتعرف على منطقة جغرافية أو جسم محدود أو يطلع على علم تاريخي معلوم ، كذلك سيستطيع ـ بوسائله البدائية ـ أن يصل إلى معرفة الله عزّ وجلّ .

كلا : "من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس"[١] كما قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، وإن ربنا سبحانه لا يقاس بشيء من الأشياء . فلا يقاس الخالق بمخلوق ؛ فالخالق صمد ، والمخلوق حادث ، والخالق حي لا يزال ، بينما المخلوق ميت بذاته.

وعليه فإن الدرس الأول الذي يجب أن نتعلمه ونتقنه في حياتنا وهو الأعظم والأهم من بين جميع الدروس ، هو معرفة الله سبحانه وتعالى ، لأن مقدار المعرفة

١- قرب الاسناد، عبدالله بن جعفر الحميري، ص ١١.

يحدد مستوى المنزلة في الجنة .وقد قال رسول الله ﷺ : " **إنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم** "[1] .

وإنه لمن الطبيعي بمكان أن يختلف ثواب من يصلي ركعتين ولا يدري لمن يخاطب في صلاته ، عمن يؤدي الركعتين نفسها وهو يقول : « **لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً** »[2] وهو أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه الصلاة والسلام .

لقد تعرّف ربنا تبارك وتعالى في كل شيء حتى لا نجهله ، ولذلك كانت الدنيا المدرسة لمعرفة الله ، نظراً الى أن الدنيا هي فرصتنا الوحيدة الحرية باستغلالها قبل الممات ، حيث تقطع الآمال وتبدأ مرحلة الحساب والثواب أو العقاب .. ولذلك تجد أن أكثر كلمات القرآن تكراراً هي كلمة اسم الجلالة أو الكلمات التي تدل على أسماء الله الحسنى.

فانظر أيها الانسان إلى نفسك وماذا ستصنع في إطار معرفة الله ، حيث لا يشغلك مخلوق عن معرفة الخالق ،ولا يشغلك هوى النفس و وسوسة الشيطان ،حتى تصل الى حيث تكون عند الرب العلي القدير ، وهذا هو الهدف الأول والأخير من وجود الإنسان في الحياة .

لقد خلق الله العقل و وضعه في الانسان ليدله عليه جلّ وعلا. ولكن معرفة الله بوسيلة العقل لها أساسها ومنهجها ، حتى يصل الإنسان الى باب الرحمة الإلهية ، فينتهي إذ ذاك دور العقل ، ليحل دور تجلي نور الله على القلب فيزداد صفاء وضياء ، وينطلق به الى مزيد من المعرفة واليقين.

فمن الخطل أن يأخذ المرء مصباحاً ليرى به ضوء الشمس أو قرصها ، كذلك الله سبحانه وتعالى الذي هو أكبر وأعظم دلالة وأكثر هيمنة من الشمس ونورها ، فالله

---

١ - تحف العقول ، ابن شعبة الحراني ، ص ٥٤.

٢ - الصراط المستقيم ، علي بن يونس العاملي ، ج١ ، ص ٢٣٠.

هو نور السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن وهو رب العرش العظيم . وإذا كان مقدراً للشمس أن ينطفئ نورها ، فإن الله هو النور وهو الخالق الرزاق المصور المقدر المهيمن ، ولولاه لساخ الوجود بمن فيه .

إن بيننا وبين الله سبحانه حجب الظلمات ، كالجهل والغفلة والشهوة والذنب والعصبية والحمية والغرور وما أشبه ..

وبيننا وبين الله تعالى حجب النور ، كالعلم والعقل ..ومثل هذه الحجب لابد من اكتسابها حتى يخرق البصر أشكالها وأنواعها فيصل الى معدن العظمة .

ولذلك : فأنت تقرأ قوله تبارك اسمه في آية الكرسي الشريفة : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾. فأول ما تفضل علينا ربنا أنه علمنا نفي الشريك عنه ، وهذا الشريك لا ينفى من الله إلا إذا أخرجناه عن حد التشبيه والتعطيل ، لأن كل تشبيه يجعل الله قرين خلقه ، وهو خلوٌ عن خلقه وخلقه خلوٌ عنه ، وهو المنزّه عن كل حد أو عجز.

أما القلب المتعلق بشهوات الدنيا ويخاف الطغاة ، فهو لا يصلح لأن يكون وعاء لمعرفة الله سبحانه وتعالى .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فهو الحي ، في حين أن كل شيء ميت ، قد سبقه الموت وسيلحقه في نهاية المطاف .

إن الله هو الحي القيوم القائم بذاته ، وغير قائم به.

وهو الذي ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ لأنه هو خالق السنة والنوم وجعلهما جزءا من وجود مخلوقاته. ولما كان الله حيّاً قيوماً ، كان له ما في السماوات والأرض . فهما مملوكتان له دائماً وأبداً ، ولا يمكنهما الخروج عن حاكميته المطلقة .

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ فحتى الشفاعة لا تكون لأحد حتى يأذن الله سبحانه وتعالى له .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ومن روائع ما يروى أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أن يأذن له بمعصية الله ، فأذن له الرسول الأكرم بذلك بشرط أن يبحث له عن مكان أو زمان لايراه الله فيهما وهو يعصيه ، فتراجع الرجل تائباً عما فكر به وأراد الإقدام عليه ..

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ فهو يعلمهم وهم لا يعلمونه بذاته .

﴿ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ أي على قدر ما أراد الله أن يعلمهم بأسمائه ومشيئته وقوانينه.

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ فالكرسي رمز السلطة والقدرة والإرادة ، وقد وسعت هذه جميع السماوات والأرض باعتباره الخالق لهما والمهيمن دائماً وأبداً عليهما ، إذ أن قدرة الله تكمن وتظهر في كل ذرة من ذرات الوجود.

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ ولأن السماوات والأرض كانتا قائمتين بقدرة الله . لا بذاتهما ، فهما لا تتعبانه أو ترهقانه في أمر حفظهما.

﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فهو العلي المسيطر والعظيم بجبروته ، علواً أبدياً وعظمة دائمة لا تقهر ولا تزال.

إن معرفة الله لاينبغي أن نتصورها على أنها أمر مستحيل ، بل هي ممكنة وسهلة في حال أسقطنا الحجب ، لأن الله تعالى قريب يستجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وليس بينه وبين العباد سوى فريضة الانصياع لأوامره و الإيمان اللازم به . وقد يتمثل هذا القرب الإلهي ويتأكد عبر وجود إرادة الله الدائمة في ذرة ذرة من الوجود . بدءاً باستمرار الحياة في خلايا الجسم الإنساني بإذن الله . وانتهاءً باستمرار وجود المخلوقات الأخرى . ولعل الانسان يزداد علماً بالله كلما تعرف الى حقيقة مخلوقاته والقوانين الإلهية المتحكمة والفاعلة فيها.

معرفة الله سبيل كل خير

معرفة الله تباركت أسماءه تتجلى في حياة الانسان في جميع الأبعاد والحقول ، وعلى هذا الأساس كان الإيمان بالله سبحانه رأس كل خير. كما كان الشرك به جذر كل خطيئة . فكلما تركزت واستقرت معرفة الله في قلب الإنسان؛ كلما تنامى في معالي الخير ودرجات الهدى . ذلك أن هذا المخلوق إذا عرف الله عرف نفسه ، ومن دون معرفة الله يستحيل على الانسان إدراك حقيقة نفسه.

بوابة معرفة النفس

النفس تنقسم -بشكل عام- الى قسمين رئيسيين ؛ قسم رحماني ؛ وقسم شيطاني . وقد ذكر إن لكل قلب أذنين ؛ أُذن يلقي فيها الملائكة المثل العليا ، وأُذن يوسوس فيها شيطان. ولولا أن الإنسان يعرف ربه لما تمكن أن يميز الخير عن الشر ، والصلاح عن الفساد ، ومفاهيم العلم عن مفاهيم الجهل ؛ لاختلطت كل هذه مع بعضها . ولذلك كان من يعرف ربه يعرف نفسه ، والعكس بالعكس. ومن ينسى الله عزّ وجلّ ينسيه الله نفسه فلا يذكرها ، فتراه يلهو فتغيب عن ذهنه حقيقة نفسه . في حين تجد أن معرفة الله ، هي البوابة لمعرفة النفس والحياة ؛ لأن هذه الحياة عبارة عن حصيلة سنن الله في خلقه ، ومن لا يعرف الله لا يمكنه معرفة سننه ، وبالتالي فهو لن يعرف الدنيا والآخرة .

إن المؤمن حين يعرف ربه سيعي حقيقة الحياة غير الثابتة وتحولاتها ، وأن الله هو الحق المبين الملك القهار القيوم الذي لا ولن يتغير أو يتبدل . أما الإنسان وباقي المخلوقات فهم زائلون ، وكلّ الى الله راجعون . وهذه الحقيقة لا يعيها ولا يفهمها أو

يتعمق في تفاصيلها إلاّ من عرف ربه ، أما جاهلو هذه الحقيقة فتراهم يزعمون بأن بضعة الدراهم أو الدنانير أو المناصب التي حصلوا عليها من هنا وهناك ستبقى لهم أو سيبقون لها ، ويغفلون عن أن المكاسب إما أن تذهب منهم أو هم يذهبون عنها ، وأنها ستبقى في الخزائن أو يتقاسموها الورثة .

سبيل معرفة الأخلاق

ومعرفة الله سبحانه وتعالى تعتبر السبيل الأمثل في إطار معرفة الأخلاق والآداب ، إذ أن عناوين كل المثل العليا والأخلاق الفاضلة إنما هي أسماء الله سبحانه ، وها هو دعاء الجوشن الكبير الذي يحتوي ألف اسم من أسماء الله يجسد اليافطة العظمى للصفات الأخلاقية والآداب العالية التي تختزلها تلكم الأسماء ؛ الدعاء الذي يوجه قارئه ـ بمختلف الأساليب ـ الى الالتزام بالأدب الرفيع ، لذلك جاء في الحديث الشريف : " **تخلقوا بأخلاق الله** "[1] .

فالإنسان ـ على سبيل المثال ـ إذا عرف أن ربه قوي وعزيز وكريم ، فمعرفته هذه ستدفعه بشكل من الأشكال الى تنمية إرادته وعزيمته ، فيفيض من هذه الإرادة والعزيمة على بني جنسه . في حين أن من يجهل هذه الحقيقة سينتهي به المطاف لئن يكون ريشة تتقاذفها الرياح العاتية ، أو سيصبح كمن يلقى من شاهق فتخطفه الطير ، أو تلقي به الريح في واد سحيق .

والتاريخ البشري بشكل عام ، والإسلامي منه خاصة خير ما يمكن أن نتخذه دليلاً مبيناً على ما نذهب إليه.

---

١ - بحار الانوار ، محمد باقر المجلسي، ج ٥٨ ، ص ١٢٩ .

فمن التاريخ القديم نأخذ (عيّنة) زوجة فرعون ، آسيا ، التي كانت تكفر بألوهية فرعون رغم طرق التعذيب الرهيبة التي مارسها زوجها ضدها ؛ بل إن الأمر كان يسير على العكس مما يبتغيه فرعون ، فكلما كان يضاعف لها العذاب كلما ازدادت معرفة بالله سبحانه وتعالى وإيماناً به . إنها في الحقيقة لم تكن ترى فرعون ولا ترى عذابه ، بل كانت ترى عظمة ربها . فهي لم تكن تعرف إلا الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن ترى إلا موضعها في الجنة .

ومن التاريخ الإسلامي نأخذ (عينة) حجر بن عدي رضوان الله عليه ؛ أحد أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، حيث ألقي القبض عليه وعلى ابنه بتهمة موالاة الإمام علي ﷺ والتأليب على معاوية بن أبي سفيان ، فعرضت عليه النجاة في مقابل البراءة من إمامه ؛ ولكنه رفض رفضاً باتاً ، ولما قدّم الى الجلاد ليحتز رأسه الشريف تلقى الأمر برحابة صدر على أساس استشهاده تحت مظلة ولاية الإمام علي بن أبي طالب ﷺ ؛ ولكنه طلب الى جلاديه ـ إن عزموا على قتله ـ أن يقتلوا ابنه قبله . ففعلوا ذلك ، ولكنهم سألوه بغرابة عن السبب لذلك . فقال : إنني أخاف على ابني التنازل أو التراجع عن مبدئه إذا ما رآني أتشحط بدمي قبله . ثم إنه طلب إليهم مرة أخرى أن يصلي ركعتين ، فأجيب الى ذلك ، ولما أتمهما اعتقد الجلادون بأنه تعمد الإطالة ، فسألوه عن ذلك ، فقال : إنني لم أصل أخف وأسرع من هاتين الركعتين ، لئلا تظنوا بي الخوف من الموت . ثم قتلوه صابرا محتسباً بعد أن أعطاهم و أعطانا الدرس العظيم في كيفية تفعيل الإرادة و الاستقلال الذاتي عن ماديات الحياة ، وتنامي القوة الروحية والعزة الإيمانية .

وهذه كلها دروس مستلهمة من معرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة أسمائه المقدسة التي من الطبيعي أن تعكس مصداقيتها وبركتها على الإنسان المؤمن الراغب بالانعتاق من ظلمات الدنيا والتوجه نحو الواحد الأحد .

أما الجاهل بربه فلن يكون إلا كذلك الأحمق ـ حميد بن قحطبة ـ والي هارون العباسي في خراسان ، حيث رآه أحدهم مفطراً في شهر رمضان دون سبب من سفر أو مرض أو عذر شرعي آخر ، فسأله عن العلة في ذلك ، فأجابه فوراً بأنه يعرف أن مكانه في النار وأن مصيره الى غضب الخالق الجبار ، ثم روى قصته على السائل المأخوذ ذعراً وعجباً ، وكيف أنه قتل العشرات من العلويين ـ من أبناء علي وفاطمة ـ في ليلة واحدة بعد أن استدعاه هارون العباسي لكي يثبت له بأنه يفديه بماله وأولاده ونفسه ودينه .

فمن يفتقر الى معرفة الله ، وبالتالي يفتقر الى معرفة نفسه وفقده للارادة والعزيمة ، فهو لا يصبح عبداً ذليلاً فحسب ، بل سيتحول الى ما يشبه الخاتم ذي المردود الشيطاني في اصبع الجبابرة والطغاة . وهذا في الواقع سبب مأساة الامة الاسلامية ؛ قديماً وحديثاً ، ولا يمكن النجاة من هذا الواقع المزري حتى تصلح الأمة شأنها من خلال تربية أجيالها على تكريس إرادة الإيمان والاستقلال والحصانة دون اللهاث وراء الماديات من مال وجاه أو الصراع المقيت على المصالح غير الشرعية .

أسماء الله سبيل معرفته

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (سورة الملك ، ١ - ٢)

معرفة أسماء الله الحسنى تفتح أبواب لا تحصى على العلم باتجاه اليقين ، ومن عرف الله بأسمائه الحسنى فقد عرف سنن الله في الكون والخليقة على حد سواء ، ومن اطلع على السنن فقد أحاط بما يدور من حوله .. عرف كيف نجا من نجا ؛ ولم هلك من هلك .

وما نريد تسليط الضوء عليه في هذا المقام هو كلمة " تبارك " التي تمثل إسماً عظيماً من أسماء الله .

فحينما يسمي الانسان ربه ، فأفضل صيغة تتبادر الى ذهنه هي صيغة « الله تبارك وتعالى » . فكلمة "الله" تدل على صفات الله ، بالذات الصفات التي تنتهي الى الصفات الثبوتية أو الاثباتية . أما كلمة "تعالى" فهي تدل صفات الجلال عند الله ، وهي تعني تنزيه الرب عن الصفات غير اللائقة به باعتباره العلة في الوجود .وأما كلمة " تبارك" فهي تدل على صفات الفعل والمشيئة الإلهية .

فالانسان وحسب مستوى إدراكه وإطاره العلمي والعقلي يصف خالقه بصفات ثبوتية كصفة العدل والعلم والجبروت وغيرها مما تتأطر في هذا الاطار من الصفات . ثم تراه يصف بارئه بصفات أخرى من شأنها أن تنفي عنه الضعف والعجز والرداءة ، فهو " تعالى " علواً كبيراً عما لا يناسبه ، وهو المطلق . إنه أجل وأعظم من أن يكون على شيء ، وفي شيء ، وفوق شيء سبحانه ، وهو أسمى من أن يكون مولوداً أو والداً ، أو يكون مثيلاً ، أو يكون مجزئاً ، أو يكون متناهٍ.

أما إذا اراد الانسان تصديق ما نسب الله الى نفسه من صفات فعل ، فهو يقول الرزاق والوهاب والفعال لما يريد ، خالق كل شيء ، وغيرها من صفات الفعل التي تجتمع وتتجسد في كلمة « تبارك » بمعنى أنه رب البركة والرحمة والعطاء والمنّ والكرم.

وبمزيد من الأسف أقول : إننا لم نول هذه الصفات الاهتمام المفترض والكافي ، ولم نسلط الأضواء على شرح وتفصيل هذه الأسماء والصفات ، علماً إن هذه الأسماء ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسلوك الانسان اليومي .

ولمزيد من التوضيح أقول : إن بعض الصفات الإلهية من قبيل صفات أو أسماء الثبوت تتصل بعقيدة الانسان ونظرته المثالية الى الله سبحانه وتعالى كخالق أزلي ، فيما هناك صفات إلهية أخرى من المفترض أن يتمحور حولها سلوك الانسان .

وفي هذا الاطار جاءنا عن المعصوم الحديث القائل بأن : « **تخلقوا بأخلاق الله**»[1] .

و لاريب إن المقصود الأول من هذا الحديث هو السعي والبحث عما يناسب ما يفترض أن يكون عليه سلوكنا .

إن من المستحيل أن ننازع الله سبحانه في ردائه وهو الكبرياء ، ولكننا نستطيع أن نجسد الكرم والرأفة والرحمة في سلوكياتنا تجاه اخواننا من بني البشر حسب قابلياتنا وامكاناتنا التي هي أيضاً من كرم الله علينا ولطفه بنا.

ورغم أن القرآن والأدعية المتواترة على لسان النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام ، لا سيما دعاء الجوشن الكبير قد كثر فيهما ذكر صفات الفعل الإلهية ، إلا أن علم الكلام والفلسفة قد تناسها ، الأمر الذي يثير أكثر من تساؤل وإثارة . ولعل الجواب عن ذلك يكمن في أن الفلسفة المتداولة تعتمد اعتماداً يكاد كلياً على الفلسفة اليونانية التي هي الأخرى تأثرت الى أبعد الحدود بالعقائد اليهودية القائلة بأن الله سبحانه قد خلق الخلق وتركه لشأنه ، حتى وصل بهم الأمر الى القول : بأن يد الله مغلولة .

والقرآن الكريم أجاب عن ذلك بالقول : أن ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.

وعوداً على بدء أقول : إن كلمة " تبارك " تجمع في طياتها الرحمة الإلهية والحب الكبير الذي كتبه الله سبحانه على نفسه تجاه البشر ، فإذا كان بنو آدم ومنذ خلقتهم الأولى يعملون لكي يشبعوا بطونهم أو يحصلوا على مأوى أو ليضمنوا مستقبلهم ويحققوا أمنهم وراحتهم .. إذا كانوا كذلك فهم يؤكدون بطبيعة الحال نقصهم

---

١ - بحار الانوار ، محمد باقر المجلسي ، ج ٥٨ ، ص ١٢٩ .

واحتياجهم وعجزهم تجاه كل ما هو طارئ في الحياة الدنيا ، بل إن المؤمنين منهم لا يطيعون ربهم إلا بداعي الخوف من النار والرغبة في الجنة . لكن الله رب العالمين خلق الخلق لأنه أرحم الراحمين، ولأنه تبارك وتعالى عن العجز والحاجة ، بل يداه مبسوطتان ، ورحمته المطلقة فاضت على عباده وجميع مخلوقاته .

وقد جاء في الحديث عن أميرالمؤمنين ﷺ، أنه قال : « **يقول الله تعالى: يا بن آدم، لم أخلقك لأربح عليك، وإنما خلقتك لتربح علي**»[1] . بمعنى إن الله خلق المخلوق ليعطيه ويباركه ويكرمه . فالمعني بالدرجة الأولى بالواجبات الشرعية ومختلف الأحكام الأخرى إنما هو الإنسان ليتمكن من خلالها من الصعود نحو النور والخلد في جنان النعيم التي أعدها الله له.

فالقيام والقعود والركوع والسجود لا يكسب الله منها مكسباً ، بل العكس هو الصحيح دوماً وأبداً . فالذي خلق هذا الكون العظيم وما يحويه من مليارات المجرات التي تضم كل واحدة منها الشموس في غنى مطلق عن أن يحتاج الى عبادة مخلوق لا يمثل وجوده بالنسبة الى وجود الكون الآخذ بالاتساع إلا كما تمثل الذرة الحقيرة بالنسبة الى محيطات الماء مجتمعة .

إن من قدرة الله ورحمته وبركته على الخلق أن رهن في كثير من الأحيان ومعظمها إرادته المقدسة بأعمال الخلق أنفسهم . فالله عز وجل أخبر الناس بأن أعمالهم هي التي تحدد مصيرهم ، فقال سبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر ، ٣٨) فهو يأمر الإنسان بالصلاة لكي يبني له قصراً في الجنة ، ويأمره بالصوم لينقذه من الجزع الأكبر ويرويه من ماء سلسبيل ، ويأمره بالحج لكي يكون الانسان على معرفة مسبقة بأحوال ساحة يوم الحساب ...وهذه العبادات وفي مقدمتها الصلاة لابد وأن يؤديها

١- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، ج٢٠ ، ص ٣١٩.

المرء وهو مقبل عليها إقبال المحب على حبيبه ،تماماً كما كان الرسول الأعظم ﷺ يؤديها قربة الى ربه الخالق ، حيث يقول ﷺ: **«وقرة عيني الصلاة»**[1]

فهو لم يكن يؤديها عن تثاقل أو كسل ، بل كان وقت صلاته أعزّ الأوقات لديه وألذها وأسعدها. وبطبيعة الحال فان النبي ﷺ لم يكن ليفرط في معطيات صلاته من صلابة في مواقفه وسلوكياته وبصيرته قطعاً.

وعلى الصفة الأخرى ، فان مصير الإنسان مقرون أيضاً بما يرتكبه من ذنوب و معاص . فالذنوب تجلب النحس والبلاء ، وإذا ما فتحت أمام ناظري المرء العاصي الحجب ونظر الى ملكوت السماوات ، فانه لن يرى إلا ذنوبه على هيئة النتن والألم الذي ينتظره ما لم تتداركه رحمة من ربه وغفران .

وازاء ذلك لابد من الاشارة الى أن من نعم الله على الإنسان أن زوده بأقوى سلاح وأشرف وسيلة وهي العقل ، العقل الذي يستطيع أن يميز بين الخير والشر.. بين الحق والباطل ، يستطيع من خلاله أن يزاول أعمال الخير وأن يترك ويهجر أعمال الشر ، كما إن بأمكانه بواسطة قدرته الذهنية أن يدرك بأن الدنيا لا تعدو كونها ساحة ابتلاء وموقع امتحان أعدّه الله سبحانه لعباده ليكشف الصابر من غيره ..

وبواسطة هذا العقل وما يتفتق عنه من أفكار ورؤى يستطيع الإنسان أن يجتهد في عملية الكدح الخَيِّرة الى ربه المحيط بكل شيء علماً ، الذي يثيب على النيات قبل أن يثيب على الأعمال . ولعل من أول ما يفترض بالعقل أن يحدد من أعمال بعد الاقرار بوحدانية الله ورسالاته ، هي بذل الشكرلله تعالى على ما أنعم به على المخلوق ، من قبيل نعمة السلامة والصحة والنشاط والقدرة والحياة .

---

١ - الخصال ، الشيخ الصدوق ، ص ١٦٥.

وبالشكر يستطيع الانسان أن يحدد موقفه من الله تعالى ، وأن يحدد موقعه من الدنيا .وبكلمة أخرى أقول : إن الشكر يدفع بالمرء نحو مزاولة المزيد من أعمال الخير، وبالشكر يستنزل الرزق وتستنزل الرحمة والغفران ..فإذا بالانسان يعود نزيهاً طاهراً كما ولدته أمه . والله تبارك وتعالى خلق الجنة وأعدها للطاهرين من عباده، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يدخلها وقد علقت فيه ذرّة من الذنوب والعيوب. وإذا ما اغتسل المؤمنون بنور الإيمان وعطروا ابدانهم بفيض القرآن ، فان الخطاب الملائكي سيأتيهم بأن : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾(الزمر، ٧٣).

فالذنوب تفصل بين الانسان وبين الجنة ، فليحاول التخلص منها.

إذن ، فكلمة " تبارك " تعني العطاء والإنفاق والموهبة والرحمة ، وتعني أن الله سبحانه يدعو الانسان الى أن يتمنى عليه ليعطيه ، فهو الذي بيده الملك وزمام الأمور، وهو الفعال لما يريد، وهو الرزاق الذي يطعم ويعطي بلا حدود ، وهو الملك القادر القدير الذي خلق الموت والحياة ؛ أي إن الله كما خلق الحياة وجعلها وجوداً محسوساً ، فانه قد خلق الموت وجعله شيئاً ملموساً ، بالضد مما يتوهم للوهلة الاولى بأن الموت أمر عدمي ، بل هو مخلوق يقوم بدور معين في هذه الحياة يرتبط ارتباطاً مباشراً بالانسان وباقي المخلوقات الحية.

وعلى هذا فقد روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، قال : **إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة ،وأهل النار النار ، جيئ بالموت في صورة كبش حتى يوقف بين الجنة والنار.**

قال : ثم ينادي مناد يسمع أهل الدارين جميعاً : يا أهل الجنة ، يا أهل النار . فإذا سمعوا الصوت أقبلوا .

قال : فيقال لهم : أتدرون ما هذا ؟ هذا هو الموت الذي كنتم تخافون منه في الدنيا .

قال : فيقول أهل الجنة : اللهم لا تدخل الموت علينا .

قال: ويقول أهل النار: اللهم أدخل الموت علينا.

قال: ثم يذبح كما تذبح الشاة.

قال: ثم ينادي مناد: لا موت أبداً، أيقنوا بالخلود.[1]

وتبعاً لهذا، لابد أن نعرف إن الله سبحانه لم يخلق الموت والحياة عبثاً، وإنما خلقهما ليمتحن الناس، أيهم أحسن عملاً.

وهذه هي النقطة الحساسة والأساسية في سر وجود الخليقة؛ بمعنى إن البارئ عزّ وجلّ قد وفر العوامل لصياغة الإنسان وتحضيره على الصورة التي يختارها الانسان ذاته، وقضية الإمتحان التاريخي وشهوده على الانسان قضية تختلف اختلافاً كلياً عن بقية القضايا التي تحيط به منذ خلقته وحتى اصدار الحكم النهائي عليه يوم القيامة. فاذا كانت الشمس - مثلاً - أمر وجودي نهاراً للانسان وعدمي بالنسبة إليه ليلاً، وإذا كان القمر بدراً في منتصف برجه وعرجوناً قديماً في محاقه، وإذا كانت بعض الصور موجودة والأخرى مفقودة، وفي بعض الأحيان تقبل وفي أخرى تدبر، إلاّ أن هناك شيئاً ثابتاً لا يفارقنا أبداً، وهو معنا أينما نولي وجوهنا، إنه الإمتحان الإلهي الذي يتوجب علينا تجاوزه بنجاح؛ فهو إمتحان في العقيدة بالله تعالى، وهو إمتحان في التعامل مع النفس ذاتها، وهو إمتحان في العلاقة مع الناس. فالانسان لا يخرج - مادام مستمراً في هذه الحياة - عن إطار الامتحان، سواء أغمض عينيه أو فتحهما.

فكما أن هناك الملائكة و العوامل الأخرى الموكلة بحفظ الإنسان دون الوقوع في مطبات ومهاوي المعصية والذنوب، فان هناك الشيطان و وساوسه وبقية العوامل الموجودة في الحياة التي تدفع بالمرء نحو السقوط وتحثه على ترك الفضيلة و التثاقل عنها الى الأرض. فاذا دعا العقل ودعت الملائكة الانسان الى أداء واجباته الشرعية

---

١ - كتاب الزهد، الحسين بن سعيد الكوفي. ص ١٠٠ . ١٠١.

على أحسن صورة ممكنة، فان الشيطان يزين له ارتكاب المآثم بترك الواجبات، هذه فضلاً عن غيرها من المستحبات والفضائل التي من المفترض بالانسان المؤمن أن يحصن أداء واجباته بها.

وحيال هذا الصراع العنيف يقف الانسان مختاراً تمام الاختيار. وهذا من بركات الله عليه أن وفّر له فرصة الاختيار بين الشكر والكفر - بين أن يولي وجهته نحو الخير أو نحو الشر. إلا أن المشكلة الرئيسية ليست في وجود شيطان وسواسه بقدر ما هي غفلة الانسان عن كونه موجوداً مختاراً من جهة، وغفلته عن اعتباره كائناً معرضاً للإمتحان الدائم من جهة أخرى. ألا ترى أن الشيطان لا يدع ابن آدم حتى وهو يقرأ القرآن أو يجاهد في سبيل الله أو يحسن للفقراء أو يدافع عن المستضعفين.. فاذا كان الحال على ما هو عليه وقد اعتورته الغفلة واحاطت به، فان في ذلك الطامة الكبرى والداهية العظمى التي من المؤكد أن يسقط فيها الانسان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۞ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۞ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾. (الحشر، ١٨ - ٢٤)

لو أنّ هذه الآيات الكريمة نزلت على الجبال ، لتدكدكت وانهارت .ولو أنّ قلب الإنسان تمكن من استيعاب هذه الاسماء الحسنى التي حوتها الآيات المباركة لرب العزة ، لكان قادرا على أن يسيّر الجبال وأن يركب أمواج البحار ، وأن يمتطي متن الفضاء و تناول النجوم .. والعلّة في كل ذلك هي أنّ القدرة الحقيقية والمطلقة في هذا العالم الواسع ليست إلاّ قدرة الله سبحانه ، وأنّ أسماءه الحسنى هي المحركة لهذا الكون الرحب بما فيه من مجّرات ضخمة وآفاق لا يمكن حتى لخيال العلم التوصل الى مداها.

ولولا أنّ الله تعالى هو الذي ذكّرنا بنفسه ، وهو الذي هدانا إليه ، لما كان بمقدور أحد التعرف الى ربّه ، ولكان العمى والجهل مطبقين على الجميع ، بما للكلمة من معنى .

ومن هنا ؛ كانت الآيات القرآنية وأحاديث النبي وأهل بيته عليه وعليهم السلام المباركة وأدعيتهم المأثورة كلها تنطق نطقاً نورانياً للتدليل على هذا المعنى الجليل ؛ ومن جملة ذلك ما جاء في مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من ولده عليهم السلام في شهر شعبان ، حيث نقرأ فيها هذه الفقرة المباركة : « **إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك ، و أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك ، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك ...**»[1]

فالقلوب مظلمة بطبيعتها ، ولن تشرق أو تهتدي الى شيء من الأشياء ما لم يشرق عليها نور الله وهدايته ورحمته .

ولعل مشكلة الإنسان الكبرى هي أنّه يتصور لخالقه شكلاً وصورة وقدرة تتوافق وما يمليه عليه خياله القاصر. في حين أننا إذا تيقّنا من عجز وسائل العلم ـ مهما تطورت ـ عن إدراك ماهيّة الخالق ، فإن من الأولى بنا التسليم بعجز الوهم والخيال عن تصوّر حقيقة الخالق ، وذلك لأن للإنسان حدود لا يمكنه خرقها ، ولأنّ ثمّة فاصلة منطقية تفصل بين المخلوق وخالقه ؛ الفاصلة التي وضعها الله في طبيعة تكوين الإنسان ، ولولا هذه الفاصلة لكان الوجود عبثاً .

وعلى هذا الأساس ؛ كان أعظم الأذكار ومحورها التسبيح ، لأنّ التسبيح تنزيه وتقديس لله عن أن يكون له شبيه أو ندّ أو نظير . فالخالق الشبيه بالمخلوق نحن في غنى عنه ؛ ولأنّ المخلوق كائن ضعيف ، فهو بحاجة الى خالق قوي ؛ ولأن المخلوق

١- إقبال الأعمال ، السيد ابن طاووس ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

كائن محدود ، كان من الطبيعي والمنطقي له أن يتصور ـ حقاً ـ بأنّ خالقه موجود مطلق ؛ ولأنّ المخلوق كائن عاجز ، فهو بحاجة الى خالق مقتدر ؛ ولأنّ المخلوق كائن جاهل بطبعه ، فهوبحاجة الى خالق عالم مدّبر ودليل الى كل شيء وحكيم وعظيم ..

وبهذا الصدد روي أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام احتج على ابن أبي العوجاء ـ وهو أحد الزنادقة الملحدين المشهورين ـ في موضوع التوحيد ، سائلاً إياه : **أمصنوع أنت أو غير مصنوع ؟**

فقال عبد الكريم بن أبي العوجاء : بل أنا غير مصنوع .

فقال له العالم (الإمام جعفر الصادق عليه السلام) : **فصف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون ؟**

فبقي عبد الكريم ملياً لا يحير جواباً ، وولع بخشبة كانت بين يديه ، وهو يقول : طويل عريض ، عميق قصير ، متحرك ساكن ، كل ذلك صفة خلقه .

فقال له العالم (الإمام جعفر الصادق عليه السلام) : **فان كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها فاجعل نفسك مصنوعاً لما تجد في نفسك مما يحدث من هذه الأمور .**[1]

فانظر أيها الإنسان ؛ هل أنت الذي خلقت نفسك ؟ كلاّ ؛ فلو كنت خالقها لخلقتها أكبر وأعظم مما هي عليه ، ولمنعت عنها الموت والنوم والعجز عن الكثير مّما تعجز عن تنفيذه .وعلى هذا فأنت لست الخالق ، ولابدّ من أنّ يكون لك خالق ، ومن خلال ضعفك وعجزك ومحدوديتك كان من الطبيعي أن تهتدي الى خالقك وربّك ربّ العزّة . ولذلك كانت الفاصلة بينك وبين ربّك ، وهذه الفاصلة كانت وستبقى موجودة الى الأزل . فكان لابد أن تقول : سبحان الله . وتعتقد بأنّ خالقك

---

١ - الكافي ، الشيخ الكليني ، ج ١ ، ص ٧٦ .

ليس مثلك ، بل هو قدوس سبوح ...فلا يمكن لعقل المخلوق أن يحيط بخالقه ، ولا يمكن لخياله الوصول إليه . وقد جاء في دعاء الصباح للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « **يا من دلّ على ذاته بذاته وتنزه عن مجانسة مخلوقاته** »[1] .

وقد ورد في الحديث عن الإمام محمد الباقر عليه السلام ، أنه قال : « **إن الله خلوٌ من خلقه، وخلقه خلوٌ منه** »[2]

أي لا ينبغي بشكل من الأشكال أنَ الله سبحانه وتعالى يشبه المخلوق ، ولو كان شبهه لصار هو الآخر مخلوقاً ، ولكان من الضروري البحث عن خالق آخر .

إذن : فالله الخالق لا يشبه خلقه ، وهو ليس كمثله شيء ، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ؛ العالم بما في النفوس ، ولا تعرف النفوس كنهه .. سبحان الله عمّا يصفون .

وهكذا تدلنا آيات النور المباركة في أواخر سورة الحشر الكريمة على الله جل جلاله .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ الضمير يرجع الى ذلك الربّ الذي عرّفنا نفسه ، لكن أن نخرجه عن حدّي التعطيل والتشبيه .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الحشر-٢٢) . ثم تكرر الآيات القول مرة بعد مرة : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فليست الشمس ولا الكواكب ولا الجبال ولا البحار آلهة من دون الله الملك القدوس . فالله هو القادر ، ولكنّ قدرته تختلف عن قدرة الآخرين تماما .

---

١ - مفاتيح الجنان . دعاء الصباح .

٢ - الكافي ، الشيخ الكليني ، ج١ ، ص ٨٢ .

إن قدرة الإنسان تمتزج وتتحقق بالوسائل والإمكانات والظروف . فالملك ـ مثلا ـ قادر بجنوده ، والتاجر قادر بأمواله ، وغير ذلك ، ولكن الملك إن تجرّد عنه جنوده ، والتاجر إن أصيب بنكسة مالية ، سيكونان غير ما كانا عليه ، وستكون قدرتهما أضعف بكثير مما كانا عليه . ولكنّ الأمر يختلف بالنسبة لقدرة الله عزّ وجل ، فهو عزيز بذاته ، وجليل بجبروته ، وملكه لم يكن ملكاً طارئاً أبداً .

ثم إن الخالق ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ﴾ أي لا ينبغي للمخلوق أن يرهب الله الى حد الإفراط ، فهو يحب مخلوقاته ولا يصدر منه سوى الخير والرحمة . وهو رحمان بالمؤمن به ، والله هو الذي يمنح الأمن لعباده . ومن يخاف من المهالك والمصائب والأمراض والانتكاسات ، فما عليه إلا الالتجاء لخالقه السلام .

وقد جاء في المأثور من الدعاء عن الإمام محمد الباقر عليه السلام والإمام جعفر الصادق عليه السلام : « **أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برحمتك من عذابك، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك جل ثناؤك** »[1] .

فعندما نستعيذ من عقاب الله لابد أن نفر الى عفوه ، وهكذا ...

إنه ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الحشر، ٢٣) . ولا يكون في يوم من الأيام يصيبك العمى فتخلط وتقول : الله وفلان شيء . كلا ؛ بل الله وحده كما ورد في الآية المباركة : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الانعام، ٩١)

إن من المنطقي القول بأن المرء بحاجة الى الوعي والتعمق في العلم حتى يصل الى كنه هذه البصيرة الربانية . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا

١- مصباح المتهجد ، الشيخ الطوسي ، ص ٨٣٠ ، أعمال ليلة النصف من شعبان.

يُشْرِكُونَ ﴾ حلاً للازمة البشرية التأريخية ، وهي الشرك بالله . فترى الانسان يعتقد بأنّ الحجر ربّه ثم يتحول بين فترة وأخرى الى عبادة أشياء متفاوتة ، وسبب ذلك جهله أو تجاهله لطبيعة صفات الربّ الخالق .

وأزمة الشرك هذه من شأنها أن تتطور فتأخذ أبعاداً وأساليب ، ومن تطوراتها عبر التأريخ أن عمد عدد من الفلاسفة الفيثاغوريين في اليونان الى القول بأن الله قد خلق الخلق ، ولكنهم لم يعرفوا كيف تمت عملية الخلق . وبدلاً عن إعلان عجزهم عن المعرفة ، اخذوا يقولون كلمات سخيفة فيما يرتبط بخلق الله ؛ من قبيل تشبيههم الله بالبحر ، حيث يتفرع الى أنهار ، وأن الانسان عبارة عن نهر تفرع من ذلك البحر ، أو كالشمس التي تصدر عنها الاشعة ، وما موقع المخلوق من خالقه إلا كموقع النهر من البحر أو الأشعة من الشمس .

وهذه النظرية أطلق عليها اسم نظرية الفيض ، وهي محور فساد معظم العقائد ، لأنها تقول بأن الله خلق المخلوقات بتموجّه ، وعلى هذا الأساس تكون المخلوقات آلهة بدورها ، ولكنها لا تعرف ذلك .

ومن هذا المنطلق أخطأ ابن عربي في (الفصوص) حين ذكر : إن سبب تنازع موسى بن عمران مع قومه يوم عبدوا العجل ، إنما لانهم عبدوه بمفرده ، بينما لو عبدوه مع باقي الحيوانات لما اعترض عليهم النبي موسى ﷺ !!

ومن جملة شطحاته الأخرى قوله بأنّ اعتراض النبي موسى بن عمران على فرعون ، لأنّه ادعى مقام الربوبية العظمى لنفسه دون أن يشرك غيره معه !

وهكذا الواقع بالنسبة الى قضية الشرك المتنوع في الهند ـ مثلاً ـ حيث تشاهد أنواع الديانات وأشكالها ، حتى أنّ منها ما لا يقتصر على عبادة شيء واحد ، وإنما هو الاعتقاد بربوبية كل شيء تقع عليه عينا الانسان ؛ فتجد هناك من يعبد البقر ، وآخر

يعبد الحجر ، وثالث يعبد النهر ..نظراً الى الاعتقاد السائد بأن الله يتجلى في مخلوقاته ، فيفيض عليها من ربوبية شيئاً فتصبح آلهة بدورها .

ونظرية الفيض تتجلى اليوم لدينا بصورة أو أخرى ، فصاحب هذه النظرية كان محطّ تكفير من قبل علمائنا ومراجعنا ، مؤكدين أنّ هذا الشخص لا تربطه رابطة بالدين والعقيدة الاسلامية ، وكانوا يحرمون دراسة كتابه في الحوزات العلمية ، ولكننا نرى اليوم –وللأسف- أنّ اسمه يطرح كرمز للفكر الاسلامي ، فياترى من اين جاءته هذه الرمزية ؟!

ولا أدري بحال كيف يتسنى للمدافعين عن صاحب هذه النظرية أن يتهموا العلماء بعدم فهم النظرية أو فهم الدين عموماً . فهل من المعقول أن يكون من قرأ كلمات افلاطون وسقراط وارسطو وفيثاغور أقرب الى الدين الاسلامي ممن قرأ و تنّور بكلمات القرآن وكلمات النبي وأهل بيته عليه وعليهم ؟! أليس هذا انحرافاً ؟

إنّ القرآن الكريم يقول بصراحة : ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، و يقول أيضاً : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾.

وهؤلاء يؤكدون إنّ الذي يقرأ القرآن لا يفهمه ، وادعاؤهم هذا لا يخرج عن احتمالين اثنين : فإما كونهم يتهمون الناس بالغباء وعدم إدراك معاني القرآن رغم استعانتهم بتفسير النبي و أهل بيته والعلماء ، وإمّا كونهم يتهمون القرآن الكريم بالكذب على الناس حيث يقول : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف،٢) ويقول أيضاً : ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء، ١٩٣- ١٩٥) .

ثم إنهم يؤكدون بأن لا أحد بمقدوره استيعاب كلمات القرآن وكلمات النبي و أهل بيته إلا بعد اطلاعه على النظريات الفلسفية بخصوص هذا الموضوع أو ذاك .

وهذا لا يعني سوى الاعتقاد بعجز الله عن التوضيح والتبيين ، وكذلك الرسول وأهل بيته عليه وعليهم السلام .وهنا تكمن الطامة الكبرى .

والخلص القول : إن الهدف الأسمى لرسالات السماء جميعاً هي توحيد الله ، وإزاحة أوجه الشبه المصطنعة بين الخالق والمخلوقات ،إذ لا الخالق يصبح في يوم من الأيام مخلوقاً ، ولا العكس من ذلك له أن يحدث أبداً.

وثمة قصة تدور حول محور حديثنا وهي خير دليل على ما نذهب إليه ، وهي أنّ الإمام الرضا عليه السلام كان حاضراً في مجلس المأمون العباسي الذي كان يعجّ بكبار الفلاسفة والشخصيات العلمية ، ومنهم كان أحد كبار رجال النصرانية ؛ حيث خاطبه الإمام الرضا عليه السلام قائلاً : **يا نصراني ، والله إنا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد صلى الله عليه وآله، وما ننقم على عيسى كم شيئاً إلا ضعفه وقلة صيامه وصلاته .**

قال الجاثليق : أفسدت والله علمك ، وضعفت أمرك ، وما كنت ظننت إلا أنك أعلم أهل الإسلام.

قال الرضا عليه السلام : **كيف ذلك ؟**

قال الجاثليق : من قولك إن عيسى كان ضعيفاً قليل الصيام ، قليل الصلاة . وما أفطر عيسى يوماً قط ، ولا نام بليل قط ، وما زال صائم الدهر قائم الليل .

قال الرضا عليه السلام : **فلمن كان يصوم ويصلي ؟**

فخرس الجاثليق وانقطع .[1]

---

١ - التوحيد ، الشيخ الصدوق ؛ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

بهذا أظهر الإمام الرضا ﷺ حقيقة التوحيد التي كان عليها النبي عيسى ﷺ ، لا كما يتصورها من يدعي أن النبي عيسى هو جزء لا يتجزأ من الربوبية.

وفي نفس الوقت إنما هو تحذير لنا من هذا النمط من التفكير الذي يوقع صاحبه في فخ الشرك .

فلنوحد الله تعالى كما علمنا أنبياء الله ورسله ، وكما بلغتنا كتب الله ورسالاته.

الإخلاص أساس التوحيد

قبل أن يدخل الانسان في معترك الحياة بصورته الحقيقية ترتسم أمامه أسئلة كبيرة تتعلق بمصيره وعاقبته التي تقف في نهاية مطافه . ومن أهم هذه الأسئلة هي : لمن يعمل ؟ ومع من يعمل ؟

و نتيجة لنقاط الضعف التي يحملها الناس ـ كطبيعة متأصلة فيهم وفق الحكمة الإلهية ـ نجد أغلبهم يحاولون التهّرب من الاجابة عن مثل هذه الأسئلة ، فهم لا يجدون حرجاً من أن يقولوا بأنهم يعملون لله وللناس و للشركاء و للاسرة وللوطن وللقومية .. إنّهم يرسمون لله ـ الخالق المطلق ـ شراكة مرفوضة وازدواجية خادعة تسبب لهم المشاكل والمتاعب ،ليست على صعيد الحياة الدنيا فحسب ، وإنما تستمر معهم الى الحياة الأخروية .

ليس بإمكان أحد فوق البسيطة إذا ما سئل عن مصدر الوجود أن ينكره أو يدحض وجوده . ولا ريب أن الكفار والمشركين وعبدة الأوثان إن سألتهم من خلق السماوات والارض ومن بيده الملك ومن إليه المصير سيقولون الله . ولكن الطامّة الكبرى والداء المميت أنهم قالوا بآلهة أخرى غير رب العزة ، حتى أنهم كانوا ولا يزالون يزعمون بأن هذا الإله أو ذاك يقربهم من الله زلفى ؛ أي انهم يمنحون أنفسهم صلاحية وحق تحديد مهام آلهتهم .. وهذا شيء عجاب!

البعض يعبد الأوثان ، ومنهم من يعبد الشمس ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد المال عبادة تسري في دمه وخفايا ذاته ، وآخرون يعبدون رئيس القبيلة ...وفي الهند ـ مثلاً ـ ثمّ أناس يعبدون إلهاً يدعى « شيفا» واذا سئلوا عن ذلك ،

يقولون بتأكيد مزيّف . إن رب العالمين أكبر و أعظم و أعز من أن نخاطبه مباشرة ، ولكننا نلتمس عند الإله ـ شيقا ـ أن يخاطب لنا الرب !

ويستدلون على وجود مثل هذه الفاصلة بين الله سبحانه وتعالى وبين الناس بصورة عامة بما هو موجود من علاقة بين الناس ورئيس البلد ، حيث لا يتمكنون من مخاطبة الرئيس بصورة مباشرة دون قنوات أو وسائط .

إنهم بتصورهم الساذج هذا قد ابتعدوا عن الله سبحانه وتعالى وهم لا يشعرون ، فضلاً عن وضعهم لهذه القناة أو تلك فانهم نسبوا لرب العزة نسبة لا تليق به مطلقاً. إنهم يجهلون جهلاً مركباً بأن الله سبحانه لا تحدّه الحدود ، وأنه فوق الزمان وفوق المكان ، وأنه المهيمن المسيطر ، ولا تخطّئه الأصوات ، ولا يحجبه سؤال عن سؤال ، ولا يحتجب عن عباده بنور أو ظلمة ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ؛ يحيط بكل شيء ، سريع الحساب ، بصير بالعباد .

وفي هذا السياق يشير القرآن المجيد الى حقيقة أن المشركين ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الانعام، ٩١).وقد نسوا أو تناسوا أن رئيس البلد ـ مثلاً ـ بشر له امكانات محدودة ومشاغل تعيقه كلياً عن مطالعة الأمور دفعة واحدة .

إن هذه الغلطة غلطة كبرى ، ألقاها الشيطان في روعهم ، ومن ثم ضرب الجهل والغرور ضربته القاصمة ليبتعدوا عن عبادة رب العالمين حق عبادته ، فبدؤوا يسجدون للشمس وللقمر وللحجر .

أزمة الشرك

إن أزمة الشرك لا تقتصر على المشركين ـ المصرحين بشركهم ـ فحسب ، بل تتعدى الى قلوب الذين يدعون الإيمان . فهذا الكافر يعبد إلهاً ملموساً ومادياً ، أمّا غيره ممن يعتبر نفسه في ضفة الإيمان فهو قد صنع إلهاً في داخل ذاته ، تبعاً لاحتياجاته

وتقلبات ظروفه أو مستوى عقليته وتربيته ...فترى الواحد منّا قد يعبد الرياء وقد يحترم الغني لغناء والسلطان لسلطانه.. إنه شرك يخفى على ذوي العقول الضعيفة والأنفس الدنيئة، والله سبحانه وتعالى أدان اليهود والنصارى في قرآنه الكريم لشركهم هذا قائلاً : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة، ٣١). والإمام الصادق ﷺ يقول في تفسير هذه الآية المباركة : « **أما والله ما دعوهم الى عبادة أنفسهم ، ولو دعوهم ما أجابوهم ، ولكن آحلوا لهم حراماً، وحرموا عليهم حلالاً ، فعبدوهم من حيث لا يشعرون**»[١] .

وهذا يدعى بـ « شرك الطاعة وليس شرك العبادة » ؛ أي تعبد إلهاً وتطيع إلهاً . ولعمري إن هذه الازدواجية وهذا الضياع ما بعده ازدواجية وما بعده ضياع .

ولنا أن نتساءل : ما هو الاخلاص ؟ وكيف نتعلمه ؟

الأنا شرك خفي

ثمة قصة ترويها لنا كتب التاريخ ، إذ كان البهلول وهو رجل الحكمة المتظاهر بالجنون يمشي في أحد الشوارع وعليه ثياب رثّة و إذا به يرى مسجداً يعاد بناؤه وما بقي على إتمامه إلا أن يضعوا على بابه كتيبة كان مكتوب فوقها ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (التوبة، ١٨). وقد كتب مع هذه الآية إن فلاناً هو الذي أعاد البناء، وكان واقفاً عند المسجد ، فخاطبه البهلول قائلاً : يا فلان لي إليك حاجة .

فقال معيد البناء : وما هي ؟

---

١ - الكافي ، الشيخ الكليني ، ج ١ ، ص ٥٣.

فقال : حاجتي أن تكتب اسمي بدل اسمك فوق بوابة المسجد .

فغضب الرجل غضباً شديداً وقال : ألا تستحي يا بهلول ؟ إني إن وضعت اسمك فهو الكذب بعينه ، بالاضافة الى أنني قد صرفت المال الكثير وبذلت الجهد الجهيد حتى وصلت الى ما وصلت إليه .

وإذ سمع البهلول جواب الرجل ومنظر الغضب الذي استولى عليه ، تركه بهدوء لم يعهد في ظاهره ، ولكن الرجل الذي كان يعرف في بهلول الحكمة تبعه متسائلاً عن مغزى حاجته ؟

وبعد تمنّع قال البهلول : أردت أن أفهمك إن عملك هذا لم يكن لوجه الله سبحانه وتعالى خالصاً ، بل كان لهذه الكلمات المسطرة فوق البوابة .

فقال الرجل : بلى والله ؛ ذاك صحيح.

وإذا ما نظرنا الى واقعنا نجد الكثير منا يعمل العمل زاعماً أنه لله عزّ وجلّ ، ولكن ما أن يتعرض للامتحان حتى يظهر النقيض لذلك وأنه لم يكن خالصاً . وأضرب لكم مثلاً نعايشه يومياً وبشكل عام ؛ لو قام أحد المسلمين ببناء مسجد أو حسينية أو ألف كتاباً أو ذهب ليبلغ الدين ، وصادف أن جاء أحد من اخوانه لينافسه في تلكم المشاريع منافسة حرّة شريفة مقترحاً عليه إتمام ما لم يتم ، كأن قال له : أنت ألفت الجزء الأول من هذا الكتاب فدعني أؤلف الجزء الثاني منه ، أو قال له : دعني أتمم ما تبقى من أيام التبليغ ...إنك ترى والحال هذه صراعاً نفسياً يبدأه أحد الطرفين يتحول الى توجيه التهم وتشويه السمعة و ...و ...وهو إذ يتصارع مع نظيره لا يهدف سوى إثبات أفضليته للناس .

إن محاولات اثبات الـ « أنا » ليست إلا ترجمة لما هو مضمر في العقل الباطن في رياء وشرك خفي . وبينما يبني أحدهم مسجداً إذا به يسمع ببناء شخص آخر مسجداً آخراً في المنطقة ذاتها ، فتأكل نار الحسد لبّه حتى يصل به الأمر الى أن يتمنى انهدام

مسجد صاحبه ليبقى مسجده عامراً بالمصلين الذين يقرؤون اسمه كلما دخلوا أو خرجوا ، بل إن أحدهم لا يكتف بالتمني فحسب ، بل تراه يوقع بين نظيره والجهات المسؤولة مدعياً أن نظيره قد بنى المسجد دون موافقة قانونية مسبقة ، وبهذا يكون ألدّ خصام الدين ، صاداً عن سبيل الله ؛ وهذا هو الكفر بعينه .

إن الشيطان الرجيم يسعى الى مخادعة الناس بألف طريق وطريق ، فهو كما يوسوس لأحدهم ويزين له شرب الخمر فانه يسعى الى تركيع الآخر إزاء المال والسلطة والشهوة ، بل يصل به الأمر الى الدخول في عبادة الانسان المؤمن ليفسدها عليه ، والعبادة لا تقتصر على الصيام والصلاة ، بل تتوسع لتشمل أمور الجهاد وطلب العلم وتربية الذات تربية صالحة.

لقد حسد قابيل أخاه هابيل على مستوى العبادة بالذات . فالمسألة لم تكن غير أنهما قرّبا قرباناً فتقبل الله قربان أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فقال لأقتلنّك . فهو لم يقل لأضربنك أو لأصادرنّ أموالك ، بل هدده بالقتل والالغاء . وهذه هي طريقتنا نحن في هذا الزمن أيضاً ، نلغي بعضنا بعضاً ، والالغاء يعني أن لا يكون لهذا الشخص وجود ولكنني غير متمكن من قتله ، فقد أخاف أن أقتل جسده ، ولكن نفسي و وسائلي قادرة على قتل شخصيته وكرامته بين الناس .

إن هابيل لم يكن ذا تقصير في القضية ، بل انه كان يمارس تقواه بمفرده عارضاً على أخيه أن ينهض بمستوى مخافته من الله عزّ وجلّ ، ولكن الحسد والغرور والجهل أبى على قابيل إلا الانتقام من العدو الوهمي.

مراقبة الذات ومحاسبتها

كما اخترع علماء الطب وسائل لمراقبة البدن وما يتعرض له من طوارئ ، فان ذواتنا بحاجة أكبر الى مراقبتها . ولعل الطريقة المثلى لذلك هو أن نعرض أنفسنا على

القوانين الإلهية لنعرف مدى التطابق والتوافق بينهما . فالقرآن الكريم وضح لنا معنى الحسد والرياء والغرور والتكبر، ووضح لنا بكل بيان العقاب الذي ينتظره الحسود والمرائي والمغتر والمتكبر . وبهذه المراقبة وبهذه المعرفة نستطيع أن نتوقى الكثير من الأمراض الروحية ، وأن نعيش بكل سلام ضمن تطور إيماني متصاعد . فعلى م نتشاجر ونتصارع ، لو أن كل واحد من المؤمنين يقرر في ذاته أن يكون عمله لله وحده؟

إننا بدراستنا وتدبرنا الآيات القرآنية الكريمة نكون على بينة من أمرنا دون أدنى شك . فالذكر الحكيم يؤكد : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان، ٢٠) فإن أتخذ أحد الناس صديقاً أو عدواً أو زميلاً أو تلميذاً أو استاذاً ... كل ذلك يسير ضمن سياق حكيم ،رسمه الله لتكون له الحجة الخالصة على الخلق .

وعلى هذا الأساس ، فان الخطوة الأولى في هذا الميدان تبدأ من معرفة الانسان لنفسه : أبعاده وإمكانياته ؛ نقاط ضعفه ونقاط قوته .

وهذه النفس لا يمكن التعرف عليها إلا عند الاحتكاك بالفتن والابتلاءات المتعاقبة ليتبين مدى الاخلاص ومدى الادعاء الذي ينادي به الانسان ككائن أفضل . فهو بإمكانه النهوض فوق الملائكة ، وبإمكانه الهبوط أدنى من الأنعام .

الإخلاص مرقاة الكمال البشري

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ❖ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ❖ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ❖ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ❖ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ❖ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ❖ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الزمر، ٩- ١٥).

في خضم الصراع التاريخي بين الخير والشر، يكابد الشيطان الذي هو العدو اللدود والخصم العنيد للإنسان من أجل إبعاد بني آدم عن الدين وتوريطهم في المتاهات المعقدة البعيدة، فإذا فشل في مساعيه الشريرة عمد الى محاولة أخرى، جادة وأكيدة تصب في تفريغ الدين من محتواه وإغفال الانسان عن حقيقة الدين. فالشيطان الرجيم قطع على نفسه الاستمرار في الغي والإغواء، وهو إذا لم ينجح في أن يضل الناس عن الصراط المستقيم فإنه يسعى الى أن يكتفوا بقشور الإيمان؛ تراه لا يقترح عليهم أو يمنعهم عن الصلاة، لكنه إذا ما لمس مقاومة فسيوسوس لهم في صلاتهم حتى يحول بينهم وبين أن تكون صلاتهم ذات تأثير ايجابي على معتقداتهم وسلوكياتهم اليومية.

وعلى الضفة الأخرى ؛ تبقى الفريضة الأولى والأساسية على الانسان المؤمن أن يثبت ويؤكد مدى قدرته على محاربة الشيطان وتوطيد دعائم ومصاديق انسانيته المكرمة أساساً من قبل الله جل جلاله. وقد حثنا القرآن الكريم وذكرنا في أكثر من موقع وبالذات في سورة «الزمر» المباركة على أن يبحث الانسان المؤمن عن الدين الخالص ، فالدين عند الله الاسلام ؛ الاسلام الذي لا تشوبه شائبة.

وقد حذرنا النبي الاكرم ﷺ ، من يوم يأتي ويصبح الدين عبارة عن مجموعة من القشور ، فلا يبقى من الإسلام إلاّ اسمه ، ومن القرآن إلاّ رسمه ، ومن المساجد إلاّ زخارفها ، حيث قال ﷺ : « **سيأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه ، ومن الإسلام إلا إسمه ، يسمعون به وهم أبعد الناس منه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى ، فقهاء ذلك الزمان شر فقهاء تحت ظل السماء، منهم خرجت الفتنة وإليهم تعود** »[1] .

وهذه حقيقة وجدناها ليس الآن فقط ، وإنما تتبعناها عبر القرون المتمادية ، حيث وجدنا الكثير من المسلمين قد فصلوا الدين عن محتواه ، حتى أصبح الدين موجوداً في الظاهر فقط ، لتمرر به وعبره الألاعيب الشيطانية والمؤامرات الدنيئة ؛ فالحج يتحول في كثير من الأحيان الى تجارة ورياء ، والعطاء والصدقات تحولت الى منّ وأذى ، والمساجد انقلبت الى قباب ومنائر ، أما العبادات فقد أخذت النصيب الأوفى من التحريف والتغيير حتى أصبحت الصلاة لا تنهى عن منكر ولا تأمر بمعروف . وهكذا الجهاد حيث حولته أيدي الشيطان الى إطار بلا محتوى ، فاصبح جهاداً في سبيل الطاغوت و الشيطان والنفس الامارة بالسوء ؛ لا ضدهم.

وهذا يعني ـ أول ما يعني ـ رسوخ واستفحال مرض الازدواجية والنفاق في جسد الأمة المسلمة و روحها .

---

١ - الكافي ، الشيخ الكليني ، ج ٨ ، ص ٣٠٨.

فيا ترى كيف نستطيع أن نجعل ظاهر الدين ظاهراً صحيحاً وباطنه صحيحاً ؟ بمعنى أنّ المعركة ليست في الإتيان بعدد معين من الركعات اليومية أو الطواف حول البيت أو مجرد تقديم كمية من المال الى الفقراء أو غير ذلك من الناحية الكمية ، بل المعركة الحقيقية في فهم واستيعاب ولمس الفائدة العملية من معاني الصلاة والطواف ومعرفة موضع الانفاق وماذا ستبني تلكم الاموال المنفقة .

فالهدف الأول من الصلاة هو التقرب الى الباري تبارك وتعالى زلفى ، وهذا لا يتم أبداً ما لم يفهم المصلي كل كلمة وكل حركة وكل سكنة من الصلاة ، ثم يتأكد من تطبيق هذا الفهم على حياته اليومية وما يرتبط بها من ماض وحاضر ومستقبل .

أمّا أن تكون الصلاة عبارة عن مكاء وتصدية - كما يقول القرآن المجيد لدى وصفه صلاة الكفار في الجاهلية الأولى - فذلك ليس إلاّ تفريغ متعمد لمحتوى الصلاة ، واستهزاء مطلق بمقام الربوبية الأقدس من كل شيء ، فضلاً عن كونه تضييعاً للجهود . فالكفار كانوا ينطقون بكلمة « الله » ولكنهم كانوا يجهلون أو يتجاهلون أو لا يكلفون أنفسهم عناء الفهم والاستيعاب. فالمكاء هو الصفير ؛ أي ملاعبة الهواء ، والتصدية هي الصدود عن الله رغم أنهم يتفوهون باسمه الجليل .

من هنا كان من الضروري أن نوفر في أنفسنا حالة الاخلاص لله تعالى في نوايانا وأعمالنا .. خصوصاً إذا ما عرفنا بأن الاخلاص هو طريقنا الى رضوان الله تبارك وتعالى والى جنانه الواسعة .

وقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « الاخلاص ثمرة اليقين »[1] .

١- عيون الحكم والمواعظ ، علي بن محمد الليثي الواسطي ، ص ٢٣.

بمعنى أن الاخلاص بذرة كما أن الشرك بذرة في قلب الانسان ، فإذا سقيت هذه البذرة تتحول الى شيء عظيم ، فبذرة الاخلاص تكون دوحة وارفة تظلل جميع الأعمال ، وبذرة الشرك ستكون مزرعة أشواك تؤثر بالسلب على مسيرة صاحبها.

إن كل قلب ينطوي على شيء من الاخلاص بنسب متفاوتة ، ويمكن تنميته بطرق شتى ، ومنها :

أولاً : اليقين ، حيث يتم الحصول عليه بالتقوى والجهاد في سبيل الله والصبر ومجموعة أخرى من التعاليم الإلهية .

وعندما نهّم بتأدية عمل من الأعمال ، لابد أن نؤديه وفق ما أراد الله سبحانه وتعالى ، وذلك عبر التفقه في الدين ، أصوله وفروعه. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام : **«ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام»**[1] . فهذه الساعات الطويلة التي يقضيها الناس وبالأخص الشباب منهم في اللعب واللهو وتوافه الحديث ، لابد أن تتحول الى ساعات مفيدة لشؤون الدنيا والآخرة ، والتعرف على مسائل الحلال والحرام والمستحبات والمكروهات ، وبمعرفة الآداب والسنن ..

والأمر الثاني : في إطار تنمية الإخلاص هو : تطهير النفس من الجواذب المادية . فالنفس البشرية عبارة عن وعاء تتصارع فيه قوى الهوى وقوى العقل ، وكلما قويت واحدة ضعفت في مقابلها الأخرى .

ومن أبرز الجواذب المادية عوامل الضغط الاجتماعي السلبية على عقيدة وسلوك الانسان ، باعتبار أن هذه العوامل تشكل حوافز أو كوابح في الوقت ذاته على الحركة الفردية .

---

١ - المحاسن ، الشيخ البرقي ، ج ١ ، ص ٢٢٩.

والمفترض في الانسان المؤمن أن يعبد ربّه مؤكداً نيته بالتوجه الخالص الى الله سبحانه وتعالى، بعيداً كل البعد عن عوامل الضغط الاجتماعي والرغبة في الرياء وتحقيق المصالح الحياتية.

ومن عوامل الجذب المادي إحساس الانسان في داخله بالضعف ونزعة الخضوع للطاغوت والقوة الغاشمة : إن هذه النزعة في مقابل القدرة الجبارة لرب العالمين تكون شركاً به وكفراً . فالمصلي حينما يصلي يبتدأ بعبارة « الله أكبر» لتتكرس في عقله مصاديق العلو والقدرة الالهية التي هي فوق جميع المخلوقات مهما تعالت . وهذا كله يعني أن المصلي إذا أراد التوجه الى الله جل جلاله، عليه أن يتخلص قلباً وقالباً من جاذبية الطاغوت والقوى المادية الضاغطة الأخرى ، ولذلك فإن ربنا يقول في سورة الزمر الحرية بالتدبر العميق: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ❁ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر. ١٧ ـ ١٨).

فلا يمكن للمرء في حال من الأحوال أن يرتبط بالله مع بقاء علاقته بالطاغوت والصولجان والقوى المادية الشريرة ، ولا يمكنه الإنابة الى الله تعالى مع إنابته للطاغوت ، بل لابد من تعميق الهوة بين الإيمانين والتوجه الكلي الى الله سبحانه .

ومن عوامل الجذب المادية عامل التأثر بالحميات الجاهلية والعصبيات الباطلة ، وافتخار الانسان بإسلامه .. وإيمانه خير له من الافتخار الباطل بقوميته مثلاً ؛ وعلى افتراض القومية الفلانية تفوق القومية الأخرى ـ جدلاً ـ فما هو دور الانسان فيها وفي تفوقها ؟

فالمرء أصبح عراقياً لأن أبويه عراقيان ، وأصبح أوروبياً لأنه ولد في أوروبا ، وهذه أمور خارجة عن إرادة المرء ؛ بل هي نوع من القضاء والقدر الإلهيين .

والحديث الشريف المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يؤكد : « **من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه** »[1] .

والتمسك بالحميات والجاهليات تدفعنا الى الابتعاد عن الاخلاص لله تعالى : فشخصية الانسان إنما تصاغ بقربه وتقربه الى الله دون تعصبه لقوميته أو عشيرته . إذ الحميات أمور فانية ، بينما الباقي هو وجه الرب ذي الجلال و الاكرام.

وعباد الله القانتون العاملون، كما وصفتهم سورة الزمر ، بوسعهم ممارسة عبادتهم واخلاصهم في أكثر من موقع من الأرض : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر، ١٠- ١١).

فإذا تضاعفت عوامل الضغط المادية على الانسان المؤمن يكون واجب الهجرة ؛ هجرة الفساد والأرض الظالم أهلها واجباً ملحّاً ؛ إذ الغرض والهدف من استمرار الإنسان في هذه الحياة هو الاخلاص أو السعي نحو الاخلاص الى الله تبارك وتعالى ، لا الخضوع والخنوع والقول بضغوط المادة والطاغوت والحميات الجاهلية إزاء الأهل والعشيرة والوطن المزيف . فالمداهنة في دين الله أمر مرفوض ومحرم شرعاً .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد يخاف من معصية الرب ومن عذاب اليوم العظيم ؛ وهو الرسول الأقرب الى الله سبحانه ، حيث ذكرت سورة الزمر قوله صلى الله عليه وآله :

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الزمر، ١٣). فالجدير بالمؤمنين الذين هم أدنى درجات من بينهم أن يخافوا ويترقبوا ، وهم أولى منه بالهجرة في سبيل تنمية الاخلاص والمحافظة على دينهم ، لا العكس كما هو حاصل وشائع بين المسلمين في العصر الراهن ، حيث ما أن تحل بأحدهم مصيبة أو صعوبة تراه يكفر بعقيدته الصحيحة ويتقمص لباس الكفر والنفاق والازدواجية في الشخصية .

١- الكافي ، الشيخ الكليني : ج٢ ، ص ٣٠٧.

السبيل الى نور اليقين

الجميع يحب أن يعيش في النور ، ولا يوجد إنسان يرغب في أن يعيش ويموت ويحشر يوم القيامة أعمى . فالبشرية كلّها تحب أن تعيش مع الحقائق وأن لا تكون جاهلة ومحجوبة عن معرفة الله تعالى ، وخلقه ، وسننه ؛ بالتالي اكتشاف طريق السعادة والخلاص في الدنيا ، والفوز والفلاح في الآخرة .

إنّ هذا الطريق لا شك موجود في آيات القرآن الكريم ؛ وخصوصاً تلك الآيات الشريفة من سورة الأنعام التي يبين الله عزّ وجل لنا فيها الطريق الذي سلكه النبي ابراهيم عليه السلام للوصول الى النور ، وملكوت السماوات والأرض والحقائق الكونية ، حيث قال ربنا سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ❖ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ❖ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ❖ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ❖ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ❖ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام، ٧٤- ٧٩) .

ما هي المعرفة ؟

والمقصود بالمعرفة هنا ليس أن ننطق بشهادة التوحيد ، أو أن نصلي ونصوم ، بل إنّ المعرفة تمثل قضيّة أخرى تتجسّد في أن نذكر الله تعالى في كلّ لحظة ، وأن تعيش قلوبنا نوره ، وهذه المعرفة هي التي كان يبحث عنها الأنبياء والأولياء والحكماء والصالحون من عباد الله . فقد كانوا يدركون أنّ هذه الدنيا ليست سوى زينة وتفاخر ، كما يشير الى ذلك ربنا سبحانه في قوله : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ (الحديد ، ٢٠) .

فهذه هي الحياة الدنيا وبالتالي فانّها ليست هي الغاية التي نبحث عنها ، ثم إنّ هذه الحياة لن تتكرر للانسان ، فهي تمثل الفرصة النهائية والأبدية ، فليس من المؤسف حقاً أن يعيش الإنسان هذه الفرصة ثمّ يخرج صفراليدين منها ؟

معرفة الحقائق

وقد كان النبي ابراهيم عليه السلام يستهدف الوصول الى الحقيقة ، فكان طموحه كبيراً . صحيح إنّه كان مؤمناً ولكنّه كان يريد أن يزداد إيماناً ، ولذلك خاطب ربّه عزّوجل ، قائلاً : ﴿ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (البقرة ، ٢٦٠).

وهكذا بدأ ابراهيم الخليل عليه السلام رحلته الإيمانية هذه من خلال تكسير الأصنام في نفسه أولاً ، فكفر بها ؛ وتحداها أمام الملأ من قومه ، رغم إنّه عليه السلام كان يتيماً ، وأنّ (آزر) كان هو الذي يتولى رعايته وحمايته وهو الوزير عند نمرود طاغية ذلك العصر ، ثمّ إنّ الأصنام كانت تمثل أقدس المقدّسات عند (آزر) لأنّه كان يعبدها أولاً ، ويشغل

منصب رعاية بيت الأصنام ثانياً ، ولأنّه كان يصنع هذه الأصنام بيده ثالثاً ، فكان مركزه مرتبطاً بهذه الأصنام .

وقد كان النبي ابراهيم عليه السلام يعيش في بيت هذا الرجل ، ومع ذلك فقد خاطبه في شيء من التهكم قائلاً : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ (الانعام ، ٧٤) ثمّ قال له بعد ذلك : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ . وبكلامه هذا حطّم الأصنام الداخلية في نفسه ؛ هذه الحجب التي كانت تفصل بينه وبين معرفة الحقائق.

وبذلك وفقه الله تعالى لرؤية ملكوت السماوات والأرض ، كما قال ربنا عزّ وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : أي بهذا الأسلوب استطاع النبي ابراهيم عليه السلام أن يحصل على فرصة رؤية ملكوت السماوات والأرض .

حجب اليقين

ويبيّن الله تعالى الهدف من هذه الرؤية قائلاً : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ : أي إنّه أصبح من الموقنين عندما رأى ملكوت السماوات والأرض . ونحن نستنتج من هذه الآية : إنَ الإنسان يمتلك في الأصل قلباً نقياً ، وعيناً بصيرة ، وعقلاً متوقداً ، ولكنّه محجوب عن معرفة الحقائق بالشرك ، ومداهنة الآخرين على حساب مبادئه خشية تضرّر مصالحه .

وفي الحقيقة فانّ هذه الخشية والمخاوف هي أدوات الشرك ، والحجب التي لا تدع الإنسان يرى الحقائق . فالله عزّ وجل أعطى للانسان العين ، وجعل فيها النور ليرى الحقائق ، ولكنّ هذا الإنسان أقام أمام عينيه حجب الشرك ، فانحجب عن الحقائق .

كلّ ما تقدّسه إله

ومن الطريف أنّ الله تعالى استعمل في الآية السابقة كلمة (آلهة) ولم يقل: (إله واحد)، إشارة الى أنّ الآلهة التي يعبدها الإنسان من دونه ـ تعالى ـ مختلفة ومتعددة؛ فالثروة، والسلطة، والجاه، وكلّ الاعتبارات الدنيوية الأخرى من الممكن أن تتحوّل عند البعض الى آلهة مزيفة تعبد من دون الله سبحانه. وعلى سبيل المثال؛ فانّ البعض من الناس يتخذ من السلطة إلهاً يتعبد في محرابها، فهم غير مستعدين لأن يتنازلوا عنها بأي شكل من الأشكال.

الشرك هو الحجاب الأكبر

إنّ هذه الحالة هي حجاب يمنع صاحبه من رؤية الحقائق، بل إنّه يعمد الى تحوير هذه الحقائق، بل إنّ البعض من الناس يفعل ذلك لمجرّد تمنيه للكرسي والمنصب. فهناك من المعارضين السياسيين من يفكر أنّه في يوم من الأيام سيحصل على المنصب، فاذا به يرتبّ و يصوغ كلّ القيم والمبادئ والأفكار على أساس هذا المنصب الموهوم. وبالطبع فانّ مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يصل الى الحقائق، بل يجب عليه قبل كلّ شيء أن يسقط هذه الحجب عن بصيرته.

وقد تجاوز النبيّ ابراهيم عليه السلام هذه القضية الأساسية، فرفض تلك الحُجب، وأعلن أنّه يريد الوصول الى النور، والحقيقة، ومعرفة ملكوت السماوات والأرض، وبذلك تحدّى تلك الحجب وأعلن لآزر وقومه قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. فوفقه الله جلّ وعلا الى أن يرى الملكوت، وبذلك فقد وصل ـ في الحقيقة ـ الى درجة اليقين التي هي أعظم درجة تدفع الانسان الى أن لا يتراجع عن مبادئه مهما كلّفه الأمر.

طريق اليقين

وقد فصّل لنا القرآن الكريم ذلك عندما يذكر لنا أن النبي ابراهيم عليه السلام رأى أثناء رحلته الإيمانية كوكباً فقال: هذا ربي، ثمّ سأل ابراهيم عليه السلام نفسه قائلاً: إذا كان هذا

هو الإله الحقيقي فلماذا أفل ؟ وهكذا الحال بالنسبة الى الشمس والقمر وسائر كواكب المنظومة الشمسية فقد صغرت كلها في عين النبي ابراهيم ﷺ ، فلم يؤمن بأي منها ، فكيف يؤمن بالأموال والزخارف الدنيوية ؟!

وبعد مئات السنين صدر نفس هذا الموقف من سيدنا ونبينا محمد ﷺ عندما جاءه أبوطالب حاميه و وليّه ونقل له اقتراح كفّار قريش بأن يترك الرسالة مقابل الاعتبارات الدنيوية ، فقال ﷺ: **« والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »**[1] .

فما قيمة الملك ، وما قيمة الأموال ؟ إنّ هذه الأمور كلّها تسقط من أعين هؤلاء المؤمنين الذين وصلوا الى درجة اليقين .

فالأنبياء ﷺ كانوا ينظرون الى هذه الدنيا نظرتهم الى الشيء التافه ، فهل من المعقول أن يتركوا دينهم ، وإيمانهم ، ورسالتهم من أجل هذه التفاهة ؟!

وهكذا ، فاذا أراد الانسان المسلم أن يعيش في بحبوحة النور الإلهي ، ويرى الحقائق ، ويكون مؤمناً حقيقياً ، فالطريق الى ذلك واضح ؛ وهو أن يزيل الحجب كلّها ، فلا يقدسّ شيئاً غير الله تعالى ، وغير ما أمر به .

فالإنسان المؤمن يحترم المال لأنه يعينه على دينه ومن خلاله يقضي حوائج المؤمنين ، ومتطلبات الرسالة ، فهو يريده من أجل الدين ، ومن أجل احتساب الثواب والأجر ، لا من أجل نفسه ، ومن أجل التمتع بالملاذ الدنيوية .

وهكذا الحال بالنسبة الى الاعتبارات الدنيوية الأخرى كالجاه ، والقوة ، والسلطة.. فانّها كلّها تمثل بالنسبة الى الإنسان المؤمن جسراً يعبر من خلاله الى مرضاة الله جلّ شأنه ، والفوز بنعيمه الأبديّ ، والحصول على نور اليقين .

---

١ - الغدير للعلامة الأميني ، ج٧ ، ص ٣٥٩.

كيف نواجه حجب الشرك ؟

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ❁ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ❁ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ❁ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الانعام، ١٠٠ - ١٠٣)

من الطبيعي جداً أن تكون الحكمة الإلهية المتعالية قد وضعت للحركة البشرية الدؤوبة والوجود البشري على البسيطة مجموعة من المعادلات التي من شأنها أن ترسم الغايات التي خلق من أجلها البشر ، ولعل الآيات القرآنية الكريمة وما جاء على لسان النبي الأكرم محمد ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام قد وضّح بما فيه مزيد من الكفاية ملامح وأمارات هذه المعادلات التي ما أن يتمكن الانسان من الوصول الى نتائجها الرائعة حتى يجد نفسه قد ارتقى سلّم المجد واصبحت ذاته أعلى بما لا يحصى من ذوات الملائكة الكرام المجبولة على العصمة والطهارة والنزاهة أبداً.

إن من أهم المعادلات التي تحدد الانطلاقة والمسيرة والغاية لمجمل الحركة البشرية تتمثل في معرفة الله جل وعلا ، والايقان بالحقائق الغيبية . وأن المرء في هذه الدنيا ، لم يستثمر ساعات عمره المحدودة في تعميق هذه المعرفة وتكريس هذا الإيقان ، فهو في حالة تراجع مستمر وخسران دائم حتى ينقضي أجله المحتوم .

وعلى ذلك فان حركة الانسان خلال وجوده الدنيوي الراهن تعد في واقع الحال حركة عكسية نحو الخلف وبالضد لما يتصور من قطعه مراحل زمنية تمثل في نهاية المطاف ما يدعى بالعمر أو الأجل ،إذا ما أصر على السير في طريق الجهل أو تجاهل الحقائق الناصعة. هذا التجاهل الذي لا يغير من الثوابت شيئاً بقدر ما يضفي على الانسان الذي حتّم على ذاته السقوط في مهاوي الغي والخسران المبين ، مزيداً من التراجع أو ليجده قد بدأ من النقطة التي انطلق منها على أحسن الأحوال .

فإذا مرت علينا ساعة في دار الدنيا أو فاتت على عمرنا فرصة من فرص الخير ثم لم نزدد معرفة بخالقنا ، فان هذه الساعة وهذه الفرصة ستكون وبالاً حتمياً علينا . وهذا ليس بالشأن الغريب أبداً ، إذ إن أساس وجود وبقاء الانسان والمجتمع في الدنيا هو الإيمان والذكرى وتعميق هذا الايمان بالخالق الحكيم واستمرار حالة التذكر للحقائق الإلهية. وحسب الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فان العقل البشري المجرد عن مزالق الشيطان والهوى ليس بمقدوره أن يتصور هدفاً أسمى من هذا الهدف ، وغاية أشرف من هذه الغاية .

تطهير القلوب

واذا كانت مضاعفة المعرفة بالله تعالى هي الدواء الناجع لخلاص الانسان من خطر الخسران ، فإنّ لسائل أن يسأل عن الطريقة الأمثل والأقرب في هذا المجال ؟ فأقول: إن الجواب يكمن في أن أعظم وسيلة لايجاد هذه المعرفة وتعميقها هي تطهير القلب من الشرك ، لأنه يحجب الانسان عن ربّه وخالقه ، ويحول دون رؤية الحقائق .

إن هذا الخالق الذي لا تنفذ كلماته ولا تنتهي مدياته قد مهّد للناس وسائل معرفته، للتدليل لهم على مدى رحمته بهم وعطفه عليهم ، غير أنهم هم الذين يحرمون أنفسهم من هذه النعمة الربانية . إن نور الله العظيم أبهى سناءً من نور

الشمس ، ولكنّ من وضع نفسه في قبو محكم الاغلاق لن ينفذ إليه ضياء الشمس ، ليس لعجز في انتشار هذا الضياء ، ولكن لرغبة شيطانية غبية معادية لهذه الحقيقة الكونية التي هي الشمس وضيائها .إنّ حجب الشرك تماماً كما هي جدران القبو وسقفه ، وكلّما استطاع الانسان أن يحذف جانباً من هذا الحجاب كلّما استضاء واقتبس من نور الله سبحانه قبساً.

الشرك : صور متعددة

إن الشرك بالله سبحانه وتعالى غالباً ما يتخذ صوراً وأشكالاً عديدة ومتنوعة . فغير الشرك الذي يعتري الجانب العقيدي والنظري للتفكير الانساني ، فإن ثمّ شرك سلوكي وعاطفي يستحوذ على سلوكيات المرء وحركاته .إذ أن مصاعب الحياة ومشاكلها تترآى للانسان كالنهاية التي تختتم حياته وتمثل نهاية المطاف في حركته في حال عدم حلها ـ مثلاً ـ وقد غاب عن وعيه أنه ما خلق إلا مصارعة هذه المشاكل ومعاركتها لكي يثبت مصداقية وجوده في جوهر الحركة الاجتماعية والطبيعة المحيطة به . وإذا ما كان هذا الانسان فقيراً من وجهة النظر العقائدية التي تزوده برؤية ثاقبة للحوادث والطوارق ، فانه سيتحول الى كائن مهزوم تجاهها ؛ وبالتالي فهي تستحوذ عليه كل الاستحواذ ؛ وتتحول بتكتلها وتجمعها على قلبه الى حجاب سميك يحول بينه وبين الحركة الإيجابية التي من المفترض به يخطو خطواتها . فهو مؤمن بوجود الله إيماناً أولياً ، وما أن تطرقه بعض المشاكل في مسيرته حتى تراه ينظر الى هذه المشاكل على أنها قدرات جبارة لا يمكن الانتصار عليها ، بل وينبغي الخضوع والانصياع لها . وقد تجد أحدهم يجهد نفسه بالعبادة كالصلاة والصيام لسنين مديدة ، إلا أن تعرضه لبعض المشاكل ولو لليسير منها يحول حركته الى الضد من أهداف صلاته وصيامه وعبادته برمتها . وهذا الحال من شأنه أن يسقط جميع الاعتبارات التي كان

يتمتع بها كونه عابداً ، وهذا ما يدعى من وجهة النظر القرآنية بـ «الحبوط» الذي قالت عنه الآية الكريمة : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر،٦٥). وهذه الحالة الانهزامية التي تعتور حركة الإنسان، هي في حقيقة الأمر محور للمفاسد وأمّها.

كيف نتخلص من الشرك ؟

ولكن كيف نطهّر قلوبنا من هذه الآفة ؟

قبل أن أجيب عن هذا السؤال، لابد من القول - وبكل صراحة - بأن عملية التطهير المطلوبة عملية صعبة ، والدليل على ذلك أن القرآن الكريم أشار في مواضع عديدة بأنّ أكثر الناس مشركون ، وقال كذلك : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يوسف ،١٠٣) ؛ فمنهم من يعبد الطاغوت ، ومنهم من يعبد المال أو القوة.. وعبادة الطاغوت قد تكون خوفاً وقد تكون طمعاً، وعبادة المال قد تكون من غنى وقد تكون من فقر، وعبادة القوة قد تكون من غرور وقد تكون هزيمة . وهكذا هم بنو البشر ، رغم أن العقل والفطرة والأنبياء ﷺ يؤكدون لهم بأن لا ينبغي أن يكون لهم مطمع في هذه الأمور من دون الله سبحانه وتعالى ، وأن هذه العوامل لابد وأن يتم التعامل معها تعاملاً واعياً نابعاً من بصيرة نافذة . غير أن الواقع يشير الى العكس من ذلك ، فترى ما السبب وراء ذلك ؟ إن عملية إجتناب الشرك عملية صعبة جداً ، ولأنها كذلك فإن طيّ مراحلها بحاجة الى جهد بالغ تبذله وإرادة فولاذية وعزيمة راسخة .

ولكي تتوضح فكرة خطورة الشرك على حركة ومصير الانسان، لابد من الاستعانة بعالم المادة الذي هو أقرب الى فهم وإدراك بني البشر ، إذ أن القرآن الكريم هو الذي اعتمد هذا الاسلوب في تقريب المفاهيم الدينية الى إدراك مخاطبيه وحيث

يقول : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ (النور، ٣٥). ثم يأتي على ذكر المصباح والزيت والشجرة التي هي لا شرقية ولا غربية ؛ إنه يضرب لنا الأمثلة الواقعية الملموسة لكي يدلنا على الحقائق غير الملموسة .

أقول : إن ثمّ قانوناً كونياً يتحكم في حركة الأفلاك كلها ، يدعى بـ « قانون الجاذبية » اكتشف في القرون الأخيرة على يد العالم (اسحاق نيوتن) ، وعبر قوة الجاذبية أخذت المجرات والمجموعات الشمسية والأرض والقمر صورتها المتماسكة المتوازنة التي هي عليها منذ خلقها وحتى الآن والى يوم القيامة ، ولكل من الأجرام الكونية مستوى معيناً من الجاذبية يتناسب وحجمها وموقعها ، وهذا التناسب يخلق لها موقعاً خاصاً بها . ولهذا نرى أن الشريعة الإسلامية تحدد العديد من الواجبات وفق حركة القمر لما له من تأثير مباشر على سلوك وحركة الانسان. ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة، ١٨٩). فللقمر دور بالغ على الحركة البحرية - المد والجزر - وعلى تحديد واجب الصوم ، بل وقد كرّهت الشريعة المباشرة الجنسية في ليالي المحاق لما للقمر من التأثير على حركة جسم الانسان الذي يحوي ستين بالمائة من الماء .. والجاذبية تعني فيما تعني رسوخ الجبال على الأرض ، وما أن تنتفي الجاذبية حتى تكون الجبال كثيباً مهيلاً . وكما أن المادة لها جاذبية مادية ، فان لها جاذبية معنوية في الوقت ذاته . لذلك فقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « يا صفراء يا بيضاء غري غيري »[١] .

وسأله - أي سأل أمير المؤمنين عليه السلام - اعرابي شيئاً ، فأمر له بألف .

فقال الوكيل : من ذهب أو فضة ؟

---

١ - الأمالي ، الشيخ الصدوق ، ص ٣٥٧.

فقال : كلاهما عندي حجران ، فاعط الاعرابي أنفعهما له .[1]

إن للقوى المادية بشكل عام جاذبيات متنوعة الأشكال تختلف مستوياتها باختلاف واقعها من الأشخاص. فهناك من تجذبه قوة الرئاسة الى الحضيض وهو في سبيلها يبطش بأقرب الناس إليه ، أو يدوس على جميع الأعراف والتقاليد ، رغم أن القرآن الكريم يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص ،٨٣).

جاذبية الجنس لها أيضاً من الأضرار على الذات البشرية ما لا يحصى ، ولقد سقط أناس في الدواهي الكبرى من وراء فتاة عشقها ، وهل تعلم أن عبد الرحمن بن ملجم قام بجريمة اغتيال الإمام علي عليه السلام وأصبح أشقى الآخرين لأنه هام بفتاة اسمها قطام ؟ إن مثل حب الرئاسة وحب المال وحب الشهرة .. تخلق في الانسان قاعدة الهزائم المتلاحقة أمام أدنى إمتحان.

وثمّ نوع آخر من الشرك ، يتمثل في مقولة الانسان بأنه يحب الله ويحب الدينار في الوقت ذاته. إن أغلب الناس يريدون الله ، ولكنهم يريدون معه شيئاً آخر : فأحدهم يريد مع الله سبحانه سلطة ، وآخر يريد مالاً ، وآخر يريد فتاة ، وآخر يريد جاهاً .. إلاّ أن الله عزّ وجلّ يقول إن من يريدني وحدي اريده ، ومن يطلبني مع غيري فلا أطلبه ، أنا نعم الشريك ، من عمل لي ولغيري جعلت عمله لغيري ، خذ جزاءك من غيري .

إن فلسفة الشرك تعني الخضوع لجاذبية الأشياء دون جاذبية القيم السماوية ، وهذا يمثل تحدياً مباشراً للارادة الإلهية ، ويتمثل في نهاية المطاف بأن يقف الانسان في أبشع مواقف الظلم : الظلم لنفسه ، والظلم لغيره.. وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ

---

١ - مستدرك الوسائل ، الميرزا النوري ، ج٧ ،ص٢٦٨.

ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان ،١٣). فكما أن الظلم يجرّ الى العودة نحو قانون الغابة ، فان الشرك يساويه تمام المساواة في النتائج والسقطات.

إننا مأمورون أمراً قطعياً لا لبس فيه بأن ننظر الى الأشياء على اختلاف أنماطها نظرة مجردة عن الطمع والخضوع والتأثر بها ؛ نظرة نستطيع عبرها فهم فلسفة الحياة و وجودنا فيها وأننا لم نخلق لها .وإذا آمنّا إيماناً عميقاً ، مجرداً وراسخاً بأن الحياة لابد لها من نهاية ، فانه من المحتوم أننا سنتمتع بما كان يتمتع به أميرالمؤمنين علي ﷺ من نظرة للسلطة والمال والشهرة ، حتى روي أنه دخل ابن عباس على أمير المؤمنين ﷺ وقال : إن الحاج قد اجتمعوا ليسمعوا منك ، وهو يخصف نعلاً.

قال ﷺ : **أما والله إنها لأحب إليّ من إمرتكم هذه ،إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً** .[1]

ولقد اقتضت المشيئة الإلهية أن تكون الموجودات المحيطة بالانسان ، بل ومزايا الانسان ذاته الكامنة فيه بمثابة سلاح ذي حدين ؛ حد يقوده نحو القمم ، وآخر يسوقه نحو المهاوي ، ويبقى الحكم والفيصل هو الانسان نفسه على نفسه وفق الفطرة والتعاليم السماوية.

إن للرئاسة والإمرة قيمة معنوية فذة إذا ما نظر إليها الحاكم نظرة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ ، وللثروة قيمة كبرى إذا ما نظرنا إليها نظرة النبي سليمان ﷺ الذي كان يزداد عطفاً وارتباطاً بالفقراء كلما أزاده الله منها ، وللعلم شأن لا يقاس اذا ما قرن بنظرة نبي الإسلام محمد ﷺ الذي كان يلهج بقول : ﴿ رَّبِّ زِدْنِي

---

١ - مناقب آل أبي طالب ، ابن شهر آشوب ، ج١ ، ص ٣٧٠.

عِلْمًا ﴾(طه، ١١٤)؛ أي اجعلني وعاءً صالحاً للعلم ، ولم يكن ليقول ربي زد علمي . فليس الفضل أن يكون العلم كثيراً دون أن يكون من يحويه كبيراً .

إنه من الحري بنا ونحن الذين قال عنّا رب العزة في قرآنه المجيد : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ (الانشقاق، ٦)، أن نضع نصب أعيننا مقاييس ثابتة ومعايير لا حول عنها ونكوص للتعامل مع ما يحيط بنا من أشياء وما تعترضنا من مصاعب ومشاكل ؛ وأول هذه المقاييس هو التوحيد ودحض كافة نماذج الشرك ، الأمر الذي يدعونا بادئ بدء أن نعرف من هو الله سبحانه وما هي قدرته .. ولنا في الحياة و الآيات الربانية خير العبر والدروس .

يقول ربنا سبحانه وتعالى في الآية : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الانعام، ١٠٠) . بهذا المستوى كانت معرفتهم ضحلة . ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة، ١١٧) . خلقها من دون مثال احتذاه من قبل . ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ (الانعام، ١٠١ - ١٠٢) فكيف يكون له من بديل ؟

وختاماً أقول : إننا نخسر أعماراً إذا ازددنا أياماً ولم تتعمق معرفتنا بالله تعالى ، ومن أجل معرفته سبحانه وتعالى يجب أن نفتق الحجب ونزيح الستائر والغشاوة ، وذلك لأن أصل الحجب وأم المفاسد الشرك بالله تعالى . ومن أجل أن نبتعد عن الشرك يجب أن نواجه كل الجاذبيات التي تجذبنا نحو الدنيا ونجعل جاذبية واحدة تجذبنا وهي رضوان الله ، ونقيس الأشياء بهذه الجاذبية .

قصة الانتصار على الشرك

الشرك أظلم الظلم وأكبر الخطايا، وأن الله يغفر كل خطيئة سواها ، فترى القرآن الكريم يتحدث عن الشرك أكثر مما يتحدث عن أية قضية أخرى ، ليعرف الناس بأن المعركة الكبرى والنزال الأشرس بين الإلهين وبين سائر الأقوام قائم على أساس التوحيد والشرك ، أو لا بد له أن يقوم على هذا الأساس . ويضرب الله للناس الأمثال تلو الأمثال على ذلك ، نظراً لأن التأريخ الإنساني وحدة لا تتجزأ ، وأن قصص القرآن لا يقتصر مفهومها على أبطالها فقط ، وأن الإنسان المؤمن لا يمكنه أن يستنكر على نمرود و فرعون ويزيد وعمر بن سعد ..أعمالهم ثم يختار الصمت تجاه ما يرتكبه الظالمون من ظلم في زمانه هو .

الشرك الخفي مشكلة العصر

باعتقادي أن مشكلة العصر الراهن ليست في الشرك الظاهر بقدر ما تكمن في الشرك الخفي بألوانه وأبعاده .

ومن مصاديق الشرك الخفي الرياء والخوف من غير الله والاعتقاد بأن الرزق والصحة وغير ذلك من النعم تعود الى غير الله سبحانه وتعالى .

فمن يرائي الناس بأعماله إنما يثبت عدم الإخلاص لله تبارك وتعالى ، أو كونه يتوقع الثواب من غير خالقه ، أو أنه يريد تمرير مصالحه الدنيوية عبر ما يؤدي من عبادة ظاهرية ..وهذه النماذج وأشباهها لا تلتقي مع حقيقة العبادة القائمة على أساس توحيد الله ، بل هي تنسجم انسجاماً كلياً وطبيعياً مع الكفر واختيار غير الله ربّاً .

أما إذا اعتقد شخص ما بأن فلاناً من الناس هو الذي يطعمه أو يرزقه أو يشفيه ولم يذكر الله سبحانه وتعالى ، فهو بذلك يمارس لوناً من ألوان الشرك الخفي .

وهنا لابد من القول : إن هناك ألواناً من الشرك الخفي ينبغي أن نقف عندها طويلاً ، لأن لها تأثيراً بالغاً في اعتقاد وحياة الإنسان عموماً .

ومن أول وأدق ملامح هذا التأثير أن المرء يكون مسلوب الإرادة ، ضعيف المقاومة ، جامد الفكر والتفكر إزاء ما يخضع له ، ويعبد من دون الله تبارك وتعالى .

فثمَ سنة سماوية تقول : إن من خضع لغير الله وكله الله إليه .

فالإنسان غير المهتدي بنور الإسلام : يخاف من كل ما حوله ، لأنه لا معين له ولا سند له بعد الله عزّ وجلّ .

إن من يخف من الطبيعة كالرياح والزلازل والسيول والمطر والبرق والرعد والحيوان والجراثيم والمرض ..يكون إنساناً مكبلاً بما للكلمة من معنى .

فقديماً كان المصريون يخافون من نهر النيل الى حد العبادة ؛ حتى وصل بهم الأمر أن يرموا بأجمل فتياتهم إليه لتحاشي غضبه ، وكانوا يعبدون الشمس أيضاً لأنها تبزغ على مزارعهم ، وكان بعض الناس يعبدون القمر لما له من تأثير على حركة المد والجزر البحريين ؛ وكان البعض الآخر يعبد النجوم للسبب ذاته ، أو لاعتقاده المزيف بأن للنجوم علاقة وثيقة ومؤثرة في حظ الإنسان وطالعه ، فكان خوفهم من غضب النجوم عليهم يؤدي بهم الى الخضوع والاستسلام لها وعبادتها . وهم بذلك يسلبون أنفسهم الإرادة والمقاومة والطموح والتقدم .

أما الإسلام ؛ فقد جاء ليحذف هذا النهج ؛ وهذا المعتقد من فكر الإنسان ؛ بمعنى أنه يؤكد عليه ألا يخاف الشمس ، بل يخاف رب الشمس ، لأن الشمس أو غيرها من نماذج الطبيعة مجرد مخلوقات لله تعالى ، وبالتالي فهي محكومة منذ إيجادها

وحتى إفنائها بقانون أو قوانين وصفها الله لها وحكمها به ، فهي لا تخرج عن إرادة ربها ولا تتزحزح مقدار ذرة .

الإسلام جاء ليحث الناس على إخضاع الطبيعة بدلاً من الخضوع لها . والله أراد للإنسان أن يكون قويا مقتدراً ، فلا يخاف الريح فيعبدها ؛ بل يصنع طائرة ويسخر الريح ؛ ولا يخاف النار وطاقتها ، بل ليستفيد من هذه الطاقة فيبتكر الصناعات لتتطور حياته وتزداد تألقاً و تقترب من الكمال .

نموذج مقاومة الشرك

فماذا يا ترى صنع الإسلام حتى يتحرر الإنسان - هذا المخلوق المكرم - في الدنيا والمسؤول في الآخرة ؟

لقد قدم له نموذجاً حياً سمّاه إبراهيم الخليل الذي تحدى مجتمعه ، بما فيه عمه الذي كان ينزله منزلة الأبوة لشدة علاقته العاطفية به ، وبهذا التحدي بدأت رحلة إبراهيم الإيمانية : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الأنعام، ٧٤).

فهو حينما تحرر من قيود الطبيعة التي يكرسها الخوف منها ، تحداهم مرة واحدة ، لأن عمه ومن على شاكلته كانوا كلهم في ضلال وانحراف وقيود . لقد تحرر من تأريخ الشرك وبعده الزمني المليء بالأساطير والخرافات والجهل المتراكم ، وتحرر أيضاً من ثقل المصالح التي كان عمه يهدده بحرمانه منها ..

وفي مقابل هذا التحدي جزاه الله الجزاء الأوفى ؛ حيث يشير سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام، ٧٥).

أي ليكون من الوجهة العملية من عداد الموقنين ؛ واليقين هو أعلى درجات العلم .

وهنا لابد من الإشارة الى الخطأ الذي وقع فيه أكثر المفسرين ، حيث يقولون بأن كلمة (وكذلك) إشارة الى ما بعد هذه الآية ، في حين أن الصحيح هو ما ذهبنا إليه من إثابة الله لإبراهيم بعد تحديه لقومه وانفتاح بصيرته ، فكان أهلاً لأن يعطيه الله من نوره ما يكون به موقناً بالملكوت الأعلى .

ثم أن النبي ابراهيم ﷺ حينما أصبح موقناً بملكوت السماوات والأرض ، عارفاً بحقيقة النواميس التي تحكم المخلوقات ، انتقل بتحديه لمجتمعه المشرك الى مرحلة أدق وأطول ، وهي مرحلة الحوار المنطقي القائم على أساس بيان وتبيين حقيقة وصفات الأشياء المعبودة من دون الله عزّ وجلّ . فتراه ﷺ كان يختار الوقت الأنسب لإلقاء الحجة على الكافرين من قومه . ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ (الأنعام، ٧٦) .

لقد قيّم النبي ابراهيم ﷺ الكواكب تقييماً علمياً برؤيته ، وماشى الكافرين في اعتقادهم الباطل ؛ ليقنعهم في نهاية المطاف بأن الكواكب ليست إلّا مخلوقاً محكوماً بحركة زمانية ومكانية تنقله بين الظهور والأفول ، وما كانت هذه طبيعته غير جدير بأن يحب حبّ العبادة من دون الله سبحانه .

ولعلّه بعد فترة لم يحددها النص القرآني - ليتيح للقارئ فرصة السير مع النبي إبراهيم ﷺ في رحلته الإيمانية ، وحواره العتيد مع الكافرين - ألقى بالحجة نفسها بعد أن تمكن من غلبة معانديه في الخطوة الأولى ، حيث وضّح لهم بأن الشمس وهي الإله المزعوم مخلوق آخر من مخلوقات الله تعالى ، وأنها محكومة بقانون البزوغ والأفول ، وأن من يعبدها من دون الله حري بالتبرؤ منه وما يعبد .

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام، ٧٨).

وكان بين هذا وذاك قد وضح لهم الخطل في عبادة القمر وفق الأسلوب المبتني أساساً على الهداية الإلهية القائلة بضرورة أن يكون العابد مطمئناً لمصداقية وأهلية من يعبد، دون إلقاء النفس على كل باهر وتحويله الى معبود.

لقد وضّح النبي إبراهيم ﷺ في نهاية الأمر أن الرب الأول والآخر هو وحده الذي يهدي الإنسان الى نفسه، على العكس من سائر المعبودات المختلفة التي هي بحاجة لمن يكشف عنها، فقال النبي إبراهيم بصدد ذلك: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الانعام، ٧٧). أي أنه لا فصل ولا فاصلة بين الشرك بألوانه، بل هي تنتهي بمجموعها الى الضلال والانحراف البعيد عن الهداية والإيمان.

لقد كان النبي إبراهيم ﷺ على بينة من أمره ورسوخ إيمانه منذ البداية، وقد زادته رؤية ومعرفة ملكوت السماوات والأرض بينةً أخرى على إيمانه فأصبح موقناً، فقال لقومه: ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام، ٧٨). وليؤكد لهم أنهم هم المشركون دونه، ولذلك قال كلمته الأخيرة بصراحة بالغة بليغة: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام، ٧٩).

إذن؛ فالخوف من غير الله يعد شركاً مباشراً بالله عزّ وجلّ، وهذا النوع من الشرك قد يزاوله المسلمون دونما شعور منهم، وذلك بداعي الجهل أو الرغبة الجامحة، أو عدم إيلاء التوحيد الأهمية اللازمة.

فمن يخف من الناس في العلن ويحسب لهم حسابهم، ولا يخاف الله سبحانه فيحلل لنفسه من المحرمات ما يشاء في الخفاء، يعد مشركاً بالله؛ وهو الرب الذي أحق بالخشية، لأنه هو الرازق الواهب المدبر، وهو المحاسب في الآخرة دون سواه.

ومن يرج غير الله تعالى، فكأنما يرمي بنفسه في أشراك الطبيعة لتأخذه كل مأخذ.

الشرك مصدر التخلف

وقد تسألني عن السرّ وراء تخلف البشرية خلال آلاف السنين التي مضت ، ولكنها بعد ظهور الإسلام وبعثة النبي ﷺ تمكنت من صنع حضارة لا زالت البشرية تعيش على سفرتها ؟

وأجيب موافقاً بأن الإسلام حرر الإنسان تحريراً كاملاً من خوف الطبيعة وبينَ له حقيقة الشرك ودفع به نحو التعلق بمصدر القوة وهو الله تبارك وتعالى . فبدأت الحقائق تتجلى أمام الإنسان بأبهى صورها ، وانتشر العلم ، وحكم المسلمون العالم بإيمانهم قبل سيفهم، رغم ظلم الظالمين و تحريف المفسرين ، وهما السلاحان اللذان أعاقا التطور. فترى المسلمين اليوم - وللأسف الشديد - يتمسكون ويتقيدون بقيود ما أنزل الله بها من سلطان ، وإلاّ فما معنى أن يكبل الإنسان الذي يدعي الإيمان بالله وهو الخالق و الأقوى والأول والآخر أن يتقبل من الظالمين ظلمهم وبرحابة صدر؟! وما معنى أن - على أقل التقادير وأبسط الأمثال - يؤمن بالتشاؤم والتطيّر أو يكبّل إرادته و يحجم عمّا أراد تنفيذه بعطسة عاطس أو رؤية غراب ، ناسياً أو متناسياً حقيقة التوكل على الله الذي هو عمود الإيمان ؟!

من هنا يجدر بنا أن نثق بربنا ونطمئن إليه ونعتمد ونتوكل عليه ، لأنه هو الله الرحمن الرحيم الحنان المنان الرؤوف ، ولأنه من المستحيل أن يترك عبده ما لم يتركه . وليكن شعارنا الأول والأخير ما واجه به النبي إبراهيم ﷺ قومه ، حيث قال لهم : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

(الانعام، ١٨١ - ١٨٢)

التسليم لله أساس الشريعة

هل أنزل الله سبحانه وتعالى أكثر من دينٍ من السماء، فكان للعرب دينهم وللفرس دينهم وللترك دينهم، أو كانت للرجال رسالة سماوية تختلف رسالة النساء، أو كان للأغنياء دين وللفقراء دين. أو كان للحكام دين وللمحكومين دين؟ أم أن دين الله تبارك وتعالى كان ديناً واحداً وعلى الجميع الالتزام به وتحويله إلى مقياس لأقوالهم وأفعالهم؟

إن الذي نجده في حياة البشر عبر التاريخ إصرار كل إنسان على الدعوة إلى دين معين، زاعماً أن الله هو الذي أمره باعتناقه، فتراه يعبد - من خلال هذا الدين المزعوم - ما يشاء..

فالفقير دينه المطالبة بحقوقه والبحث عن العدالة، أما الغني فدينه المطالبة بالسكوت، والمظلوم دينه البحث عن النصر، بينما الحاكم يتدين بضرورة استتباب الأمن لأجهزته وأعوانه؛ بما في ذلك خضوع الناس له.. أما العرب فيدعون إلى دينهم، وباسم هذا الدين يحكمون الآخرين تحت مظلة العصبية، فيما ترى الأمم الأخرى تقول شيئاً آخر...

ولنعد إلى سؤالنا الأول فنصوغه صياغة أخرى، فنقول: هل أن الله سبحانه وتعالى حينما أرسل الرسل والأنبياء عليهم السلام، أرسلهم بشرائع متفاوتة؟ بمعنى هل أن ما قاله النبي عيسى عليه السلام يختلف عما قاله النبي موسى عليه السلام، وهل أن ما قاله نبينا محمد صلى الله عليه وآله يتناقض وما قاله الأنبياء من قبله؟!

إن المعروف والمؤكد الذي نؤمن به هو وحدة رسالة السماء، وأن جميع رسل الله قد دعوا الناس إلى إله واحد لا شريك له، وأن من يؤمن بغير ذلك، أو يمارس عملاً يناقض هذه العقيدة سوف يكون له موقف عسير في يوم القيامة..

فالبحث عن العدالة واجب الجميع، وليس الفقراء فحسب.

وتحقيق الانتصار واجب الجميع، وليس المظلومين فحسب.

أما أن يعمل الأغنياء على التهرّب من الجهاد أو الاكتفاء ببذل المال فقط، فتلك رغبة يمليها الشيطان على قلوبهم دون أدنى شك. فالجنة لا تشترى بالمال، وإنما يرزقها الله ويكتبها لمن آمن إيماناً صادقاً نابعاً من قلبٍ سليم، لا يبخل بالتضحية بالنفس والعمر والطاقة، بما في ذلك المال..

ولكن ما هو مشاهد أن الغني يتهرب من آيات وتعاليم التضحية والجهاد الواردة في كتاب الله العزيز الحميد، كما يتهرب الفقير من آيات وتعاليم الصبر والقناعة والبحث عن لقمة الحلال، وكأنهما بتهربهما هذا يريدان سنّ سنةٍ جديدةٍ واختلاق دينٍ غير الذي أمر به إله الأرض والسماء..

كما نشاهد أيضاً السيرة نفسها في المحكوم الذي يعرض بجانبه عن تعاليم القرآن القائلة بضرورة التعاون على البر والتقوى، والتخطيط لإقامة حكم الله في الأرض.. فهو لا يأخذ بنظر الاعتبار أهمية الاستعداد الحكيم والتضامن النزيه مع إخوانه وأبناء دينه لتحقيق هذا الهدف المقدس، فكان همه الشاغل هو الوصول إلى ما يريد مهما كلف الأمر، ومهما تشوّه الدين.

أما الحاكم الظالم فهو الآخر لا يبحث إلاّ عن آيات الصلح والسلام ليبرر عبر ما يوحي ظاهرها بالأمن والاستقرار، ليمرّر ما يهدف من المصالح والاستمرار في السلطة، وتراه في الوقت ذاته تأخذه العزة بالإثم إذا ما ذكّر بآيات الله القائلة بضرورة العدل في الرعية وأن تكون القوانين السماوية هي الحاكمة..

أقول: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أنزل ديناً واحداً، وبعث أنبياءً ورسلاً أولي هدف واحد، فلماذا هذا التفاوت والاختلاف والتناقض في السيرة البشرية؟!

ولابد لي من الإشارة الى أن الإجابة على السؤال أعلاه تمسّك - أيها الإنسان - كما تمسني، ولا يتصورن أحد منا أنه خارج دائرة هذا السؤال وجوابه، ذلك لأن الأزمة الحاصلة جراءه هي أزمة بشرية عبر التأريخ، وأن الجميع مدعوون إلى البحث عن الحل الأنسب لها لئلا يقعوا في شراك مخادعة النفس، أو نسبة ما ليس لله إليه..

الصراع الأبدي

إن في وجدان كل إنسان قوتين: قوة العقل وقوة الجهل، قوة الحق وقوة الباطل، قوة الملائكة وقوة إبليس.. وإن من الصعب على الإنسان التمييز بين هاتين القوتين، فلا يخلط بينهما. أما الشيطان فهو يضع السمّ في العسل فيلبس الباطل لباس الحقّ، فيخدع الإنسان ثم يسخره لخدمته ويجنده في جيشه. ومن هنا: كان لزاماً علينا أن نستعيذ بالله وقوته وعزته ورحمته ومجده من مكر الشيطان الرجيم الذي يسعى لاغوائنا عن الصراط المستقيم، وإبعادنا عن طريق الهدى.. وفي غير هذا الحال يقعد ابن آدم إذ ذاك ملوماً مدحوراً.

لقد نقل التأريخ لنا قصة ذلك الرجل الذي استنصره الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى كربلاء، فعرض عليه الرجل أن ينصره ببعض ماله وفرسه (وهو إذ ذاك متأكد من وجوب نصرة سيد الشهداء) إلا أن إبليس ونفسه الأمارة صوّرا له قضية النصرة ببعض المال والفرس. بيد أن الإمام الحسين عليه السلام رفض هذا العرض البخيل مشيراً إليه بأن الدين ونصرته بحاجة ماسّة إلى الإنسان والإيمان غير المشوب بالبخل والمراوغة..

إن من فداحة الخطب أن يبحث الغني عن عالم لا يأمره بالجهاد، ليضحي بنفسه، أو يبحث عن خطيب لا يحمله المسؤولية المناسبة له، ويقول له بأنه من أهل الجنة لأنه ساهم في بناء المسجد الفلاني، أو شارك في عمل الخير في مكان ما.. ولكنه إذا ما واجهه شخص ما بقول الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التوبة، ١٩).أعرض ونآى بجانبه، طالباً عدم الاستمرار في قراءة هذه الآية ومثيلاتها. أو كان شأنه شأن معاوية بن أبي سفيان الذي كان ذات يوم يشرف من قصره على الجادة والمارة، فرآه الصحابي الجليل أبوذر الغفاري رحمة الله عليه، فتلا عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة، ٣٤- ٣٥). فقال له معاوية معترضاً: يا أباذر؛ ألم تجد في القرآن آية أخرى تتلوها علينا؟!

فأجابه أبوذر: إنما يجب أن تقرأ هذه الآية لك، لأنك كنزت أموال المسلمين وبنيت بها هذه القصور.. فما كان من معاوية إلاّ أن أرسل إلى الخليفة الثالث يحذره من مغبة ضياع الشام إن بقي أبوذر فيها، فكان أن نفي هذا الصحابي الجليل إلى الربذة التي استشهد فيها غريباً.

وهذا وغيره؛ يعني أن مخادعة النفس تجر إلى السيئة تلو السيئة، حتى تحمل المتشبث بها إلى أن يكون شيطاناً، فيرتكب من الموبقات ما شاء له أن يرتكب.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الحاكم - في إطار البحث عن السلطة والقوة - تراه لا يبحث عن الآيات الخاصة بإقامة العدل والإحسان وإفشاء الرحمة بين الرعية، فهو لا يتدين بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران، ١٥٩). أو قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران، ١٥٩) بل تراه يتدين بالآية القائلة: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش، ٤). مثلاً...

وقد يضخم الإنسان في أحايين كثيرة كلمة في رواية، سواء كانت تلك الرواية موجودة أم غير موجودة، وسواء كانت صحيحة السند أو غير صحيحة، وسواء كانت تعني ما يريد تمريره أم لا... فيجعل منها لافتة عريضة في مخه وتفكره ومواقفه، ويضع القرآن كله جانباً... وذلك لأنه لا يحب المسؤولية.. ولكنه يجهل أو يتجاهل أنه مسؤول على أية حال، وقد قال عزمن قائل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات، ٢٤). وقال أيضاً: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ❖ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء، ١٣ - ١٤)

أو قوله سبحانه: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ❖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ (القيامة، ١٤ - ١٥).

إن العقل السليم لا يقبل مقولة التهرب من المرض. فالمرض موجود أولاً وآخراً، ولا ينفع للتخلص منه سوى تناول الدواء بعد التوكل على الله سبحانه..

كذلك هي المسؤولية، تبقى ملقاة على عاتق ابن آدم حتى يؤديها، ولا يمكن أبداً تصور إنسان غير مسؤول إلاّ من رفع الله عنه الحرج.

الدين وحدة متكاملة

فأن أهرب من خطيب يحملني المسؤولية، أو أغلق كتاباً فيه حديث عن الجهاد والتضحية والعطاء والتطور.. إن ذلك لن يغيّر من الواقع شيئاً، بل الواقع سوف يتردى، ثم ينحدر إلى الأسفل فالأسفل...

إن دين الله يجب أن يلقى القبول والتسليم من لدن الإنسان، ودين الله ليس سوى عدم تقسيمه وتجزئته وقبوله كله كوحدة متكاملة قولاً وفعلاً وموقفاً واعتقاداً.. ثم السعي ما أمكن إلى طرد الهوى ووساوس الشيطان والضغوط الجانبية عن هذا القبول والتسليم..

فالله الذي هو منزل الدين يرفض رفضاً باتاً أن يكفر المرء ببعضه ويؤمن ببعضه الآخر. فهل هناك صلاة دون سجود؟ أو صوم مع أكل شيء من الطعام؟ أو صدقة مع منّ وأذى؟ أو تعاونٍ مع خيانة؟ أو حكم مع ظلم وجورٍ؟ أو إيمانٍ مع عنصرية وعصبية؟

كلاً؛ فالدين هو الدين، ليس فيه قبول لبعض ورفض لبعض... وليس ثمة دين خاص بالفقراء دون الأغنياء، أو المظلومين دون الظالمين، أو الجهال دون العلماء.. بل هو دين واحد، يفهم منه الجميع، وينبغي أن يعمل به الجميع.

لقد آخذ الله الذين أنزلت عليهم الكتب السماوية على جريمة الكفر بآياته أو تحريفها رغم شهادتهم على صحة ماجاء بها.

كما آخذهم أيضاً على جريمة تظاهرهم بالإيمان بآياته وإخفائهم لنواياهم الحقيقية القائلة بالتعامل المصلحي معها، الأمر الذي ينتهي إلى تشجيع الآخرين على التملص من تعاليم الوحي.

كما أنه قد وجه إرشاداته الكافية واللازمة إلى المؤمنين الذين هم على تماسٍ بعلماء السوء من أهل الكتاب لئلا يستجيبوا لهم، وذلك بداعي أن علماء السوء بدورهم لهم نحلهم وفرقهم وأحزابهم، وإن اتباع هذه الفرقة أو تلك ليس فيه غير الضياع والتيه والخسارة المؤكّدة.

فلمّا كانت أهواء الكافرين ممن حمّل كتب السماء متفاوته ومصالحهم متباينة، فإن من المتوقع بمكان انعكاس هذه الحالة المزرية على من يتبعهم من المؤمنين - والعياذ بالله -

فترى البعض منهم - حينما يستجيبون لهذا الفريق أو ذاك من علماء السوء - يجعل الدين كتوب يطوّله اليوم، ثم يقصره غداً، ثم يرميه جانباً بعد غد، ثم يعود إليه بعد تمزقه من شدة التلاعب به، فلا يبقى إذ ذاك دين يشار إليه أو تعاليم يمكن أن يلتزم بها...

وعن هذا حذرنا ربنا عزّوجلّ في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(آل عمران، ١٠٠- ١٠١).

سبيل الاعتصام بحبل الله

الطريق الى الله تبارك وتعالى طريق سالك ومعبد، والقرآن يطلق على هذا الطريق اسم المنهاج أو الشريعة، وهما يعنيان الطريق الواضح والمعبد، لا الطريق الذي تكتنفه الالتواءات والانحرافات.

والطريق الى الله سبحانه يتمثل في اتباع الأئمة عليهم السلام شئنا أم أبينا، ولو أن جميع أفراد البشرية لم يرضوا بذلك لضلّوا الطريق كلّهم، كما أن هذا الطريق يتمثل في الأنبياء عليهم السلام أيضاً ولو أن شخصاً قال: أنا أريد الله ولكني لا أريد رسوله. لقال الله له: إنّك لا تريدني. والدليل على ذلك إنّ ابليس طلب من الله عز وجل أن يعفيه من السجود لآدم مقابل أن يسجد له أربعة آلاف سنةٍ ولكن الله أخبره بأنه لا يحتاج الى عبادته، بل يريد الطاعة منه.

وبناء على ذلك فانّ الذي يريد أن يصل الى الخالق فانّ عليه أن يسلك الطريق الصحيح، والذي يرفض سلوك هذا الطريق فأنه سيسقط في الهاوية، ولذلك أمرنا الله تعالى أن نقول يومياً: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾(الفاتحة،٦). فالصراط المستقيم هذا له دلالة وشهود يشيرون لنا إليه، وهو الذي يقول عنه سبحانه: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾(الفاتحة،٧). أي إن الانسان الذي لا يسلك طريق الذين أنعم الله عليهم، فانّه إما أن يكون من المغضوب عليهم أو الضالّين، ومن المستحيل أن يصل الى هدفه.

وإذا ما أردنا أن نصل الى الله تعالى ورضوانه فلابد من أن نقتل أنفسنا الأمارة بالسوء، وكبرها الداخلي الذي لا يدعنا نخضع لله ونسلّم لأوامره.

ولقد اختار الله تعالى من الناس الأنبياء أولي العزم، ومن أولي العزم نبينا الأعظم ﷺ، ولكنه ـ سبحانه ـ قال في قضية الولاية:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة ٦٧).

فليس هناك تردد في هذه القضية ولابد من السماع والاستماع، وعلينا أن نكون في هذا الخط، وأن نسلّم تسليماً مطلقاً. فالذي يسلّم للانبياء عليهم السلام فانّما يسلم لله سبحانه وتعالى، والذي يبايع النبي فانما يبايع الله، والذي يخضع للأئمة عليهم السلام فهو يخضع للخالق، فهم السبيل الأقوم، ولذلك يقول الله سبحانه:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران ١٠١).

أي إن الانسان يجب أن يذعن لشيئين: آيات الله (القرآن)، ورسوله. فان قال شخص: حسبنا كتاب الله، فانّ كلامه مردود. فكتاب الله مع نبي الله، ومن دونه لا يمكن أن يقبل.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. أي إنّ الذي يريد صراط الله فلابد أن يعترف بالقرآن وبالنبي ﷺ في نفس الوقت، ويذعن للامام عليه السلام، وللفقيه المجتهد الذي هو طريق للإمام.

وقد يقول شخص: نحن نذعن للدين ولكن بدون مراجع وعلماء وفقهاء. ونحن نقول له: إنّ الدين يرفض ذلك، فلا يجوز للانسان المسلم ـ مثلاً ـ أن يكبر تكبيرة الإحرام ويؤدّي صلاة الصبح دون تقليد، فان حدثت له فيها اشكالات فالى من يرجع وعلى أيّ أساس يصحّح اشكالاته، فهل يستطيع الانسان أن يذهب الى

الصيدلية ويطلب أدوية من دون وصفة يعطيها إليه الطبيب؟ والفقهاء أطباء النفس والروح، وعلينا أن نرجع إليهم. وهذا هو الطريق السليم.

كيف يسرق الشيطان ولاءنا؟

والاعتصام بالله تعالى يعني أن نتّبع أوامر الله سبحانه، ونطيع رسوله. وأنا أريد من القارئ الكريم أن يلاحظ نقطة مهمّة في الآية التي تبتدئ بقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾. فالذي لا يقبل كتاب الله فهو كافر، وكذلك الذي لا يذعن لرسول الله ﷺ فهو الآخر كافر؛ وكذلك الحال بالنسبة الى من ينكر الأئمة ﷺ.

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٢). أي إنّك إذا قبلت بكتاب الله عزوجل، فكن على حذر من أن يسرق منك الشيطان هذه الولاية؛ فمن جملة أعمال الشيطان أنّه يسرق دين الانسان. فنحن نقرأ في الدعاء: «**اللهم إني أعوذ بك من العديلة عند الموت**»[١]. أي إن الانسان قد يكفر في لحظة الموت، فهناك بعض الناس يكفرون قبل موتهم بلحظات، لأن الانسان المحتضر يصاب بعطش شديد، ولذلك فانّ من المستحب أن يقطّر في فمه الماء، وحينئذ يتراءى له الشيطان وهو يحمل كأساً من الماء فيقول له: إذا كنت تريد الماء فاكفر لكي اعطيك اياه. وبالطبع فانّ الانسان إذا كفر فانّ الشيطان سوف لا يعطيه الماء؛ ولذلك فاننا نسأل الله سبحانه أن يحفظ ديننا الى آخر لحظة، لأن العديلة عند الموت أمر صعب، فقد يمضي الانسان سبعين سنة في الصلاة والصيام والعبادات.. وإذا به في آخر لحظة يخسر كل ذلك بسبب الاستسلام للوساوس الشيطانية.

١- تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج٢، ص٨٨.

وبالطبع فلا بأس أن تكون لدينا الأموال والأولاد وما الى ذلك، ولكن حبنا لله تبارك وتعالى يجب أن يكون أكثر من حبنا لأي شيء آخر. فاذا طغى حبُّ الدنيا على أنفسنا فمن الممكن أن نبتلي بالعديلة عند الموت، وبالتالي بسوء العاقبة.

الجَدية في طلب الجنّة

ثم يقول ربنا عزّوجلّ في سياق سورة آل عمران: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؛ أي إنّ علينا أن نكون جدّيين في طلب القيم المعنوية، وقد جاء في الدعاء: «**وأسألك الجنة برحمتك واستعيذ بك من النار**»[1]. أي إني أريد منك ياربّ الجنّة بصدق، وأنا حاضر لأن اقدّم في سبيلها أيّ ثمن كان.

وقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**ولو أن أشد الناس عيشاً في الدنيا وأعظمهم بلاء من موافقينا وشيعتنا غمس يوم القيامة في الجنة غمسة ثم سئل هل لقيت بؤساً قط لقال لا**»[2].

ولذلك فانّ الإمام علي عليه السلام يقول: « **ما شرٌّ بشرٍ بعده الجنة** »[3]. أي إنّ أية صعوبة تأتي من ورائها الجنّة ليست بصعوبة، ولذلك يجب أن يكون الانسان جدّياً في طلب الجنّة.

ثم يأمرنا الله تعالى بالتمسّك بحبله قائلاً: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (البقرة، ١٠٣).

وحبل الله هو كتابه، ورسوله، والأئمّة المعصومون، فلنتمسك به بقوة، فهو ملاذنا وعصمتنا من الانحراف، وضمان سعادتنا في الدنيا والآخرة.

١- بحارالأنوار، ج٨٤، ص٩٢.

٢- تفسير الإمام العسكري، ص٥٧٧.

٣- الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٢٢.

التسبيح دليل العرفان

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۞ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (التغابن ١- ٤).

غالباً ما تكون الفرائض المكتوبة على الانسان محددة وذات ميقات معلوم : فالصلاة فرض إلهي نزل على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، والصوم أيضاً كتب علينا كما كتب على الذين من قبلنا أياماً معدودات ، والحج ينبغي ممارسته في أشهر معلومات ، فلا يمكن للناس أن يحجوا في أشهر غير أشهره ، ولا لهم أن يبتدعوا أعمالاً مغايرة لما رسمه الله سبحانه و تعالى ..وقس على ذلك بقية الفرائض والواجبات التي جاءت بها الشريعة الإسلامية السمحاء .

ولكن هناك فرض إلهي واحد يختلف عن كل الفرائض في كونه غير محدد بزمن أو مشروط بفعل أو حدوث أمر ، وهو : ذكر الله تعالى ، الفرض الذي يجب أن لا يفارق الانسان مهما كانت حالته ووضعيته وظروفه .

إن الله تبارك وتعالى قال عن الصلاة : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء ١٠٣).

وقال الله تعالى عن صوم شهر رمضان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ (البقرة. ١٨٣- ١٨٤).

وأشار الله سبحانه الى شعيرة الحج بأنها: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة. ١٩٧)

وبين كل فريضة من فرائضه المقدسة مشيراً الى ظروفها أو شروطها، بينما عن ما يخص الذكر والتسبيح قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الاحزاب. ٤١، ٤٢). إذ لا يمكن في أي حال من الأحوال تصور استغناء الانسان الفقير عن ربه الغني الكريم، إذ الفقر والحاجة في المخلوق أمر ذاتي وحقيقي و طبيعي ومنطقي، على العكس منه في الذات الالهية الخالقة والخلاقة.

التسبيح محور الذكر

يعلم المسلمون جميعاً بأن خلاصة ذكر الله تكمن في أربع عبارات مقدسة، وهي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر. إذاً فهي التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

ولنا أن نتساءل عن العبارة الأعظم من بين هذه العبارات؟

ومن خلال إضاءات العقيدة الاسلامية والاشارات القرآنية العديدة، ومن خلال ما بينته روايات النبي و أهل بيته عليه وعليهم السلام، يتجلّى أن عبارة «سبحان الله» هي الأعظم وهي التي تنطوي تحتها العبارات الأخرى، وهي التي تختصر كل ألوان الذكر. ولعل السبب في كل ذلك يعود الى ما تحويه هذه العبارة من قدسية لا تضاهيها قدسية أخرى.

إن التسبيح يعني في طليعة الأمر التقديس ، والحمد لا يتوجّه إلاّ الى الربّ القدوس والمقدس ، و وصف الله بأنه لا شريك له عن طريق مقولة « لا إله إلا الله » لا تأخذ مصداقيتها ما لم يكن هذا الرب منزهاً عن كل أنواع النقص ، وما لم يكن متصفاً بكل صفات الكمال والقدرة . فسبحان الله حيث لا حدّ يحده ، ولا نقص يحيطه ، ولا له أول ولا له آخر ، ولا له ضعف .

وعبارة « الله أكبر» لا تعني بأنه أكبر من كل شيء ، إذ ليس في وسع المخلوق الجاهل والفقير مقارنة ربّه العالم والغني بالمخلوقات ، ولو كان كذلك لكان هذا الرب محدوداً بحدود تتناسب وعقل المخلوق ؛ إذ العقل المجبول على تصوّر المحدودات فقط .

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في بيان معنى عبارة « الله أكبر» : **« فيه نفي كيفيته كأنه يقول: الله أجل من أن يدرك الواصفون قدر صفته التي هو موصوف بها، وإنما يصفه الواصفون على قدرهم لا على قدر عظمته وجلاله. تعالى الله عن أن يدرك الواصفون صفته علواً كبيراً »**[1].

وقد جاء في الدعاء : **« ومذاهب العقول قد سمت إلا إليك»**[2]

فالعقل يفتق كل شيء ، والعقل ينفذ في كل شيء ، إلّا أنه عاجز مطلق العجز عن الوصول الى مقام الربوبية ؛ لأنه مخلوق ، و كيف يصل المخلوق الى مقام الربوبية ؟ !

إن الحقيقة الثابتة تشير الى أن كل شكل من الأشكال قد يتصوره العقل الانساني لله سبحانه وتعالى يعود إليه ذاته دون ذات الرب المقدس .

١- التوحيد ، الشيخ الصدوق ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

٢ - مصباح المتهجد ، الشيخ الطوسي ، ص ٢٧٩.

ولكن بعض الناس يتساءل بسذاجة : كيف لنا أن نعبد رباً لا نتصوره ؟ والجواب المنطقي لهذا التساؤل يكمن في أن العقل يؤمن بوجود كثير من الأشياء المخلوقة وهو عاجز عن تصورّها ، فحتى اللحظة هناك ملايين من المخلوقات لم يصل العقل البشري الى حقيقتها . فمثلاً ؛ الى الآن لم يستطع علماء الفيزياء معرفة حقيقة الجاذبية وشكلها ـ على اعتبار مقولة أن لكل موجود شكل ـ فهم قد اكتشفوا فعل الجاذبية وقانونها ، ولكنهم لم يعرفوا بعد ماهية الجاذبية رغم المحاولات العلمية الواسعة في هذا المجال.

إذاً ؛ فهناك بعدان رئيسيان للحقيقة التي نريد توضيحها :

البعد الأول : هو أن العقل البشري لم يهتد ـ رغم الارتباط والتأثير الكبير والمتبادل ـ الى ماهية كثير من الموجودات ، وهوقد يكون بحاجة الى مدة لا تقل عن ملايين السنين من السعي والمثابرة والجهود لتوسيع دائرة هذا العقل ثم الى كشف وإحصاء الموجودات ؛ سواء المرئية منها وغير المرئية .

والبعد الثاني : ضرورة أن يؤمن الإنسان ويسلّم بأن ثمّ أشياء غير قابلة للتصور مطلقاً ، تبعاً لطبيعة هذه الأشياء التي في مقدمتها الماهية والذات الالهية المقدسة . فالله سبحانه وتعالى لما يمتاز من طبيعة مكنونه ، كتب ـ بأزليته وعلمه ـ على نفسه أن يكون هكذا ، وأن يخلق الأشياء والعقول هكذا .

وعوداً الى بدء أقول : إن الله جل وعلا أكبر من أن يحدّ بحد ، وهذا بالذات حقيقة التسبيح . وقول : « لا إله إلا الله » تسبيح وتنزيه له من أن يكون ذا شريك وصاحب . ولذلك فإننا نجد كل شيء في هذا الكون الرحب يسبّح لله تعالى ويعترف بحاكمية الله . فالجبال والبحار والاشجار وغير ذلك تسبّح لله تعالى ؛ وتسبيحها الاعتراف والصغر أمام عظمة الله .

التسبيح حقيقة الفطرة

إن التسبيح أمر فطري في وجود كافة المخلوقات : فالسماوات تسبح والأرض تسبح والبحار تسبح والحيوانات تسبح والمجرّات تسبح والملائكة تسبح ..

إن التسبيح لله تعالى يعني العلم بالله ، وإن الكفر واقتراف الذنوب يعني الجهل به والوقوف موقف التحدي . وهيهات أن يكون المخلوق قادراً على الوقوف بوجه خالقه. يقول الله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن ١- ٢).

نتائج التسبيح

سؤال : ما هو انعكاس وأثر التسبيح على حياة البشر؟

إن انعكاس التسبيح على الذات البشرية يتجسد بصورة مباشرة عليها ، بحيث لا يبقى للمشاكل والرذائل صفة من الصفات فيها .

ولتوضيح هذه البصيرة الالهية المتعالية أشير الى أن الإنسان ـ بفطرته ـ يعلم ويؤمن بأن هناك شيئاً مقدساً ومنزهاً ، ولكنه كثيراً ما يخطئ في تطبيق علمه وإيمانه على هذا الشيء. فيزعم أن القدوس هو ذاته البشرية وإرادته. ولذلك فإن مبدأ الأنانية في الانسان غالباً ما يكون هو صاحب القرار الأول والأخير في مسيرته ، حيث يعمل على إيجاد تصور الحسن والقبح بما يرتبط بذاته هو دون سواها : فمصلحته الشخصية مقدمة من حيث الاختيار على غيرها ،أما مصلحة الآخرين فهي أمر باطل مادامت لا تحقق لا عائداً أو ربحاً .

إن مقولة أكثر الناس تشبه الى حد بعيد مقولة الحلاّج الذي سأله الناس عن الحق وعن الله ، حيث أجاب : إنه تحت جبّتي !! في وقت يريد الله سبحانه وتعالى منّا أن

نسبحه هو ونقدسه هو وننزّه هو ؛ بالتالي يريد منّا أن نعتقد ونعترف بأنّ الإرادة إرادة الله والقرار قرار الله أولاً وأخيراً ، فالكبرياء رداء الله ومن نازعه رداءه كان خصماً لله .

على أنّ المذنب حينما يذنب إنما يسعى الى تحقيق إرادته هو ؛ بمعنى أنه يتحدى ربه في التشريع والعمل في ظل ما يبدو في الظاهر ذنباً بسيطاً أو كونه ـ اقترف الذنب ـ عملاً ترفيهيا لا حرج فيه.

أقرب المنازل الى الله تعالى

حينما يقول الساجد : « سبحان ربّي الأعلى وبحمده » يعني أنه يقر بربوبية وعظمة القدوس العلي الأعلى، وبالتالي فهو يعترف بأنه خاضع وليس مخضوعاً له ، ولهذا فالسجود يوصف بأنّه أقرب المنازل الى الله سبحانه وتعالى . ومن هنا فانّ الشيطان ذا النزعة العنصرية ينادي بالويل والثبور حينما يرى الانسان يسجد لربه . فهو ـ الشيطان ـ يعلم علم اليقين أنه صائر الى النار لا محالة ؛ فتراه يأبى على الانسان الرواح الى الجنة . فأبليس يعتقد بأنه خير من آدم ﷺ وأولاده بقوله : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الاعراف ، ١٢)، فكيف يترك الفرصة للناس لاستحقاق الجنة ورضوان الله الأكبر ؟

من هنا ؛ قد حددت الروايات بأن من علامات المؤمن إطالة السجود ، وليس نقراً كنقر الغراب .إذ ما من فعل يقوم به الانسان إلا وله دافع وسبب ، فكثرة السجود و إطالته سببه الاعتراف العميق بخضوع للرب الذي ليس كمثله شيء .أما السجود وأداء الصلاة وأعمال الخير بصورة عامة بالهيئة غير الرزينة والمتعجلة وكأنها عمل إجباري تعكس حالات اللامبالاة وعدم الاهتمام بالشعائر والطاعة ؛ بل وعدم وجود قناعة وتفكير سابقين لحركات البدن التي تأخذ طابع العبادة الظاهري .

سبوح قدوس

إنَّ الذي يعتقد بأن الله سبوح و قدوس لا ينبغي أن يعتقد بأنّ نفسه مقدسة . وقد روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ بين يديه ، فاستقبلته رعدة .

فقال النبي ﷺ: **هون عليك، فإني لست بملك ، إنما أنا بن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .**[1]

في هذه الرواية خير دليل وخير توجيه ديني لمن يجهل قيمة ذاته الحقيقية أو يبالغ ويكابر في تصورها وتصويرها .

١- المعجم الوسيط ، الطبراني ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

تجليات الرحمة في حياة الإنسان

من أعلم الناس وأسعدهم عبد أبصره الله تبارك وتعالى أسمائه الحسنى ، وأعانه على نفسه فزكاها ، فتجلت فيها تلك الأسماء المتعالية ؛ وفاضت في روحه ينابيع الحكمة ، ونبعت في فؤاده عيون المعرفة فاهتدى الى غيب الحياة. فهو نافذ البصيرة الى غايات الدنيا ، حتى عرف ممّ هو والى ومتى وفيم ، واستيقن المبدأ والمنتهى واطمأن الى الطريق الصحيح ، واهتدى الى الصراط المستقيم .

ومما غفل عنه الغافلون ، معرفة أسماء الله الحسنى ، في حين أن هذه الأسماء تتجلّى في آيات القرآن الكريم، بل ولعل الأسماء الحسنى هي حقيقة الآيات و واقعها ؛ ومن استطاع الوصول الى بعض منها فسبحها وقدسها وجلّاها ، سيبصر الحقائق الربانية و أسرار الحياة .

ولا نبالغ إن قلنا إن كثيراً من الناس في عمى وضلال ، وذلك لأن قلوبهم محاطة بأسوار الظلام والغفلة ، إلا من رحم الله وكانت لديه البصيرة . يقول الله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ (الاسراء ، ٧٢)

فإذا كانت الفرصة متاحة الاغتنام في الحياة الأولى ، فهي من المعدومات في الحياة الآخرة ، والى الأبد. ﴿ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ (الحديد ، ١٣).

وعليه ، فان الانسان مدعوّ في أيام حياته المعدودة الى الإيمان والادراك بأن من منافذ المعرفة الالهية - التي بها فقط يمكن الفوز والفلاح - معرفة أسماء الله الحسنى ،

ومن الأسماء الحسنى بين بقية الأسماء هو اسم الرحمة المبارك . وهو قد يكون . في حقيقة الأمر. مصدر كل أسماء الفعل الإلهي.

وإذا ما تجلّى اسم الرحمة في قلب الانسان المؤمن الواعي، فإن الله برحمته سيتجلى في قلبه ، وسينظر الى الدنيا بعين أخرى، وسينظرالى الراحلين عنها نظرة جديدة متفاوتة. وبعبارة أخرى؛ فإن الغشاوة التي وضعها الشيطان على عينيه ستنقشع وتتبدل الى نور رباني ينظر به الناظر فيجد نفسه متفائلاً بالوجود ، شاكراً لربه ، راضياً بقدره ، طموحاً الى رضوانه الأكبر.

تجليات الرحمة الالهية

من أين جاء الانسان ؟ وكيف ؟ ومن هو الانسان ؟

إنها أسئلة يطرحها كل واحد منا على أبيه ، وسرعان ما يجيب الأب الذي يتصور بأنه قد أقنع ابنه : بأن الانسان أصله التراب..

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الانسان من نطفة ، ومن قبل ذلك كان في عالم الذر، وقبل ذلك كان في عالم الأشباح ، وقبله كان في عالم الظلال ، وقبل ذلك كان في عالم التقدير، وقبل كل هذا وذاك كان الانسان في عالم العلم الالهي .

وإذا اكتفينا بالقول بأن الانسان كان نطفة وغضضنا النظر عن سيرة تلكم العوالم، فنسأل : ترى من أخرج هذه النطفة من صلب الأب ووضعها في رحم الأم ؟ ومن الذي صوّرها وحافظ عليها ؟

إن علم الأجنة يؤكد بالأدلة القاطعة وجود عشرات الملايين من الأنظمة والقوانين التي تحافظ على الطفل وهو جنين في بطن أمه ...فمن هو الذي رسم هذه الأنظمة وكرّس فيها الطاقة ؟!

وبعد ذلك ؛ ما هو التغيير الذي يطرأ على الأم فور انعقاد النطفة؟ إنها تتغير جسدياً ونفسياً وعقلياً، بل وكأن العالم برمته يتغيّر من حولها استعداداً لاستقبال هذا المولود الجديد بعد أن نما وترعرع في رحم الأم بانتظار لحظة الولادة.

من جعل أو قذف في قلب العائلة كل تلك اللهفة والمحبة للطفل الجديد ؟ ومن دفع بالأب الى مطاردة الزمن ومعاركة الحياة للحصول على لقمة عيش يقدمها الى وليده، وقد يبقى هو - الأب - جائعاً في بعض الأحيان ؟

فمن قذف كل هذه الرحمة في قلب الأم والأب والمحيط ؟

ويختصر الإمام زين العابدين عليه السلام الإجابة بكلمات قصار تحوي كل المعرفة والعلم بقوله في مناجاة ربه تبارك وتعالى: « **إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك**»[1].

إن الإنسان وهو جالس في بيته - مثلاً - يتمتع بعقل سليم وقلب سليم وحواس سليمة، وتعمل من حوله آلاف القوانين والنظم بكل دقة وهدوء ؛ وعادة ما يغفل الانسان عن كل ذلك ولا يتنبه إليه إلا إذا حصل خلل ما أو جرّد من نعمة معينة ، تماماً كما لا يحس المرء بالنور إلا بعد انطفائه، أو يحس بلطافة الجو بعد اختناقه هو، أو يحس بالاستقرار بعد وقوع الزلزلة ...

إن الله سبحانه وتعالى قد منح الانسان كل هذه النعم بالمجان. فهو في غنى مطلق عن مخلوقه ؛ بل وأبعد من ذلك ، حيث روي عن الإمام علي عليه السلام : « **يقول الله تعالى: يا ابن آدم لم أخلقك لأربح عليك، وإنما خلقتك لتربح عليّ** »[2].

نعم، إن الله هو الرحمن الرحيم ، وهو الذي سبقت رحمته غضبه، وهو الذي أحاطت رحمته بكل شيء، إن هذا هو رب الدنيا وهو رب الآخرة .

---

١ - الصحيفة السجادية الجامعة لأدعية الإمام علي بن الحسين عليهما السلام ، ج١ ، ص ٤٠٩ ، دعاؤه عليه السلام في مناجاة الشاكرين .

٢ - ميزان الحكمة ، محمدي الري شهري ، ج١ ، ص ٢٢٣.

من هنا أدعو الجميع الى العيش في ظل الرحمة الإلهية المطلقة ، فالله ما بعث الأنبياء والرسل وأنزل الكتب والآيات إلا من أجل إن نستوعب رحمته العظمى بعد أن نفتح لها قلوبنا لها، وذلك لأن الانسان إذا لم يؤمن بهذه الرحمة ويسير في ظلها الوارف فإنه لن يهنأ بما حوله أبداً . وقد صدق الله حيث قال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾(طه ، ١٢٤). فيكون مثله مثل من يملك مليون دينار غير أنه لا يعلم بها ، فهو فقير مادام جاهلاً بما يملك .

إن رب العباد يريد للعبد أن يعرف نعمه ، لكي يعيش في ظلها ، لذلك فان الانسان المؤمن يسأل الله العافية والشكر عليها ...بمعنى أنه يطلب الى الله تعالى أن يعرفه العافية كي يتسنى له شكره عليها. أما الإنسان الجاهل أو الجاحد يملك كل شيء ولكنه غير قانع به أو جاهل بقيمته ، ولذلك فهو يسكن في بيت كبير فيشرئب عنقه الى بيت جاره الأكبر حسداً وطمعاً ، لا رضاً بما قسم الرب أو معرفة ببقية النعم التي تحيط بنعمة المسكن والمأمن ..

يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (الفجر، ٢٧- ٢٨)؛ أي يكفيك أيتها النفس المطمئنة أنك خالصة لله مخلصة. والمؤمن إذا ما وعى نعمة الرحمة الالهية وأن له رب رحيم منان ودود عطوف يريده ويحبه فسيطمئن قلبه مكتفياً بذلك مستغنياً عن غيره .

القاهر فوق عباده

على الرغم من إن رسالة السماء تحتوي على بصائر فذة من شأنها تحرير الإنسان من الحتميات وأن تزيده نشاطاً وفعالية وأملاً ، إلّا أنّ المسلمين - في واقع الأمر - قد ابتلوا بسحابة داكنة وكثيفة من ثقافة التبرير والخمول والكسل الفاشلة سلفاً ، وإنّه بالعودة الى بصائر القرآن الكريم يستطيع المسلمون تحقيق الحياة الفاضلة في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة .

فهناك نظريات فلسفية تقول بالجبر والحتم والجمود تنتهي الى توقف المرء وتردده ، فيما نرى الإسلام - شأنه شأن سائر الأديان السماوية - جاء لينقذ الانسان من نظريات التبرير والجمود والجبرية الخانقة .

إنّ معظم النظريات الفلسفية المختصّة بهذا البحث تدّعي القول بأنّ الله عزّ وجلّ قد فرغ من الأمر ؛ بمعنى أنّه سبحانه قد خلق الخلق فقدّره وقضاه ثم تركه لشأنه وجلس ليستريح طويلاً . وها هم اليهود الذين ابتلوا بثقافة الشرك يعتقدون بأن يوم السبت هو يوم استراحة الخالق بعد أن فرغ من عملية الخلق التي دامت ستة أيام . وحسب هذه المزاعم يكون ربنّا العلي العظيم قد أصبح ممنوعاً وفق القوانين التي وضعها لنفسه وللخلق عن التدخل والارادة بشؤون الموجودات . وقالوا في نهاية المطاف : إنّ يد الله مغلولة ، فهو عاجز عن التأثير مطلقاً .

وثمّة نظرية فلسفية أخرى تدعي بأنّ علم الله محدود بالمجمل من الأمور ، وأنّه جاهل بمجريات الأمور وتفصيلاتها وتقلب الأحداث . فهو إذاً - والعياذ بالله - جاهل وعاجز .

وعلى ذلك فقد قال أحد الكتّاب الفرنسيين : إنّ الفلسفة الإغريقية قد أماتت الله ، وأنّ الفلسفة الأوروبية الحديثة قد دفنته !!

فالفلسفة الاغريقية قالت بعجز الله عن التكلم أو الفهم أو الإرادة. والغربيون المتأخّرون رأوا أن لا حاجة لهم بربّ عاجز ميّت ، فرفضوا الإيمان به فدفنوه فلسفياً وعملياً .

أمّا الدين الإسلامي الذي هو في حقيقته استمرار مباشر لما أنزل الله سبحانه وتعالى من رسالات مقدسة على الأنبياء ﷺ ، يؤكد بأنّ الخالق قادر على كل شيء وأنّه عليم بكلّ شيء ، حتى قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق ، ١٦) . أي إنّ الخالق ليس ذا علم بحقيقة الإنسان فحسب ، بل إنّه أعلم به من نفسه . فالخطرات التي تخطر ببال الانسان كلّها تخضع للمجهر الإلهي ، وأنّ يده مبسوطة ، يفعل ما يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب ..وهناك من الأمثلة على عمق الارتباط بين الخالق والمخلوقات ما لا يعدّها العادّون أو يصفها الواصفون ؛ هذا الارتباط النابع أساساً من طبيعة خلق الله للأشياء بما فيه الإنسان ، حيث خلقت ضمن طبيعة فقيرة محتاجة الى الرفد والصلة .

وهنا أودّ التذكير بقصّة النبي زكريا ﷺ التي ضربها الله لنا مثلاً في هذا الإطار ، حيث استسلم هذا النبيّ العظيم الى قدره بعدم تنعّمه بنعمة الذرية ، ولكنّه لمّا رأى ما كان ينزل على مريم عليها السلام في محرابها من رزق الله في غير موسمه أو طعام لا تتمتع به منطقة فلسطين ، هنالك تجلى الإيمان في قلب زكريا ﷺ بأنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وأن من الممكن الطلب الى الله جلّت قدرته بتغيير القدر والقضاء

بما يطلبه الانسان من الخير ، فدعا ربّه أن يهب له من لدنه ولياً يرثه ويحفظ عهد النبوة في آل يعقوب عليه السلام .

تقرأ كل ذلك في قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (آل عمران ، ٣٦- ٣٨) .

إنّ النبي زكريا عليه السلام ـ ومن خلال هذه النقلة النوعية في الايمان ـ قد اطمأنّ قلبه بأنّ الله تعالى فعّال لما يريد ، وكونه قادراً على كلّ شيء .

وهذا الإيمان يعتبر من الخصائص الأولى للدين ، ومن يعتقد غير ذلك يكون مضطراً الى التشبث بالأفكار الخاطئة ، ولن تكون خطواته في هذا المجال إلّا سائرة خلف خطى اليهود الذين قالوا بأنّ يد الله مغلولة فلعنوا بما قالوا ، وهو لن يدخل إلّا في مطبات وتعقيدات هو في غنىً عنها في الواقع .

إذن ؛ فخلاصة الفلسفات البشرية تدّعي بأن الخلق كامل الوجود والقوانين ، وأن كلّ شيء قد اكتمل بعد أن فرغ الله منه . ولكن في مقابل ذلك كلّه ثمّة فكرة تؤكد بأنّ الخلق في حالة تكامل وتسامي ، فكلّ شيء يسير الى التكامل ، وهذه الفكرة تنتمي الى الطبيعة الفكرية لمدرسة البصائر الإلهية .

وقد انشعبت هذه الفكرة الى شقّين :

الأول : القول بأنّ الخليقة بطورها الى التكامل ، وأنّ الله وحده هو الذي يأخذ دور المكمّل .

والشقّ الثاني : القول بأنّ الخليقة تتكامل والانسان له دور مؤثر في تكامل نفسه وبمن حوله .

وهذه النظرية قد اعتمدها الشارع المقدّس ؛ وفقاً الى الاعتقاد الصحيح بأنّ الخالق قد سخّر للإنسان الطبيعة من حوله ، وهذا التسخير المبارك يوجب على الإنسان التفتيش عن الإسباب والسنن الالهية في الارض ويعتمدها في مسيرته نحو التكامل .

بل لقد ذهب الإسلام الى أبعد من ذلك ، فقال بأنّ كثيراً من تقلبات الأمور أو بقائها على واقعها مرهون بعبادة مخلصة من كهل من الكهول ، أو خشوع شاب تائب ، أو دعاء واع ...نقرأ ذلك في القرآن الكريم حيث قال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الانفال ، ٣٣) وقال أيضاً : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (الفرقان ، ٧٧).

فقد يكون عابد من العباد مخلص لربه تمام الإخلاص له من الكرامة ما يرحم الله بها أهل مدينة كلّهم .وقد قال رسول الله ﷺ : « **لولا أطفال رضع ، وشيوخ ركع ، وبهائم رتع ، لصب عليكم العذاب صبّاً** »[1].

ولكي لا نذهب بعيداً ، فإن في قصّة قوم النبي يونس عليه السلام التي وقعت في مدينة الموصل العراقية خير دليل على ما نبغي تأكيده والتذكير به . فقد أوحى الله الى هذا النبي بأنّه سيعذب قومه بداعي كفرهم والحادهم ، فغادر النبي يونس ﷺ مدينته على التصديق بوحي الله ، ولكنّه حينما عاد إليها بعد دهر وجد المدينة على حالها ،

١ - روض الجنان للشهيد الثاني ، ص ٣٢٤.

لم يَمس الساكنين فيها العذاب المشار إليه .فسأل النبي من ربّه سرَّ ذلك ، فأوحى له الله بأنّ إيمان قومه واستغفارهم واعلانهم التوبة الصادقة حالت دون تعرضهم للعذاب ، وذلك أنّهم حينما تيقنوا من اقتراب العذاب هرعوا الى أحد العلماء فيهم ، فأوصاهم بالايمان بالله والخروج الى الصحراء لإعلان توبتهم النصوح في ظلّ تضرّعهم الى خالقهم .

وقد أوجز ربنا عزّ وجلّ ذكر ذلك في قوله تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس،٩٨).

وقد صدق الله العلي العظيم حينما قال بأنّ كلماته لا ولن تنفذ، وإن كان البحر مداداً والشجر أقلاماً . وقد يستغرق الحديث عن قدرة الله وقاهريته وتدّخله في مجريات الوجود ما لا يعلمه إلّا هو من وقت ، فكم من واقعة مأساوية سقط فيها الأشداد من الناس ، لكن طفلاً واحداً رأيناه قد أنجاه الله ..وهو عزّ وجلّ لا تزيده كثرة العطاء إلّا جوداً وكرماً .

ولكن مشكلة البشرية أنّها لا تريد أن تعي الحقائق الملموسة لها مراراً وتكراراً ، أو أنّها تعي ذلك في مدّة قصيرة ولكنّها تتغافل عنها عن سابق إصرار.

فالبشرية لها المقام الأرفع بإرادة الله ، وقد أراد الخالق لها أن تؤمن بهذه الإرادة الإلهية ، غير أنّها تجّر نفسها الى الحضيض ، فلا تؤمن بقاهرية الله تعالى ، ولا تؤمن بمقامها الرفيع . فترى الغني في تكبر مطّرد على هذه الحقيقة ، وترى الفقير في يأس وهروب مستمرين ، إلّا من عصم ربّك . في حين كان من الطبيعي للإنسان أن يؤمن بأنّ ما آتاه الله فهو عن فضله ، وما حلّ به فمن نفسه ، وبالتالي يأخذ كل امرئ موقعه الطبيعي دون تكبر أو يأس وهروب ، فيتخلص من الأفكار السلبية والشريرة، ويعرف أنّ للغيب دوراً مؤثراً في وجوده.

كيف نتواصل مع عالم الأمر ؟

حينما نتدبر آيات القرآن الكريم، ونتعمق في محتواها ، نجد أن هناك عالمان يتحكمان بالكون والخليقة، وهما : عالم الخلق، وعالم الأمر . وإذا كان عالم الخلق يخضع لجملة من العوامل التي يتبع بعضها بعضاً ، فإن عالم الأمر المحيط بعالم الخلق لا يخضع لتلك العوامل ؛ بل إنه هو الذي يتحكم بها ويؤثر فيها.

إن عالم الخلق يخضع لما يسميه الناس بالقوانين الطبيعية ، وإن كانت هذه التسمية غير مقبولة شرعاً ، لأن الله تبارك وتعالى لا يخضع لشيء اسمه الجبر ولا تتحتم عليه علّة ، ولا هو بالإله الذي يخلق خلقه ثم يتركهم لشأنهم .

نعم ؛ إن القانون الطبيعي يؤكد أن الماء سائل ، وأن النار تحرق ، وأن المرض الخبيث يقتل ، وأن بإمكان الإنسان تغيير الطبيعة والظروف المحيطة به ..هذا هو القانون الطبيعي .

ولكن هناك قانون يفوق الطبيعة ؛ وهو قانون إرادة الله تعالى ؛ وهو المسيطر كل السيطرة على القانون الطبيعي.

إن آفاق عالم الأمر تؤكد من جانبها على أن النار تحرق ، ولكنها في الوقت ذاته تعلن أن بمقدور الله سبحانه تغيير هذه الطبيعة الحارقة ، لأنه هو الموجد لها ، فهي طوع أمره تكون كيفما أراد. ومثال ذلك ؛ نار الطاغية نمرود التي أوقد حطبها ليحرق النبي إبراهيم ﷺ ، إنها كانت ناراً كبيرة واسعة يحترق منها الطير لمسافات شاسعة . ولكن عالم الأمر أمرها أن تكون برداً وسلاماً على النبي إبراهيم . بل إن ما لفت الأنظار الى هذا التحول المذهل والى هذا الانقلاب الحادث بأمر الله في النار ، أن أحد المتملقين لنمرود أراد الالتفاف على هذه المعجزة الربانية بإيحائه لنمرود بأنه هو الذي تعطف على إبراهيم وأمر النار بأن لا تحرقه ، ولكن حدث ما لم يتوقعه أو يحسب له

حسابه . وهو أن شعلة من النار ـ رغم بعدها ـ تطايرت بأمر الله وأحرقته وهو جالس لم يبرح مكانه ، فأصبح بذلك آية للعالمين .

وفي هذا الاطار روي أنه جرى كلام بين الإمام الرضا عليه السلام وبعض أهل النصب من حجاب المأمون جاء : .. وكان الحاجب أشار إلى أسدين مصورين على مسند المأمون الذي كان مستنداً إليه . وكانا متقابلين على المسند. فغضب علي بن موسى الرضا عليه السلام وصاح بالصورتين : **دونكما الفاجر، فافترساه ولاتبقيا له عيناً ولا أثراً.** فوثبت الصورتان وقد عادتا أسدين ، فتناولا الحاجب ورضاه وهشماه وأكلاه ولحسا دمه والقوم ينظرون متحيرين مما يبصرون.[1]

إن هذه الحادثة ومثيلاتها ليست واردة في طبيعة عالم الخلق والعلة والمعلول ، بل هي فعل من أفعال عالم الأمر الذي هو فوق الخلق وعالمهم القائم على أساس المادة والمحسوس .

ثم إن هناك الكثير من الوقائع التي تمخض عنها معالجة هذا المريض أو ذاك ، ممن أعلن الأطباء الحاذقون عن عجز أدويتهم عن علاجه ، إلا أن عالم الأمر كان له دوره الغيبي في مشافاته ، حتى وكأنه لم يعرف المرض والداء في لحظة من لحظات حياته . وكم شاهد المؤمنون أو غيرهم معاجز الانبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام ، وكراماتهم التي تحققت باذن الله تبارك وتعالى ، حتى راح العديد من الناس الى الإيمان المطلق بهذه الكرامات متغافلين عن حقيقة دور الأطباء والأدوية في المعالجة باعتبارهما الأداة المنطقية لإيفاء هذا الغرض .

وإنه لمن الطبيعي الإيمان بأن ظهور هذه الكرامة أو تلك لمعالجة هذا المريض أو ذلك تابع لحكمة ربانية ، قد يكون الغرض منها مضاعفة إيمان هذا المريض . أو من أجل تعريضه لامتحان ، أو لغرض جعله آية للناس ولفت انتباههم الى دور الغيب في

---

١ - تفسير نور الثقلين . العروسي الحويزي . ج١ . ص٢٧٦.

الحياة ...وإن هذه كلها صفحات نورانية و ربانية تختزل في طياتها ما يمكن أن يهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان وينعم بها عليه .

إن القرآن الكريم يذكرنا في مناسبات شتى بطريقة تدخل عالم الأمر لإنقاذ الانسان فيما يدهمه من مصاعب ، حيث يقول عز اسمه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (يونس، ٢٢ ـ ٢٣).

فالإنسان قد ينسب عملية الإنقاذ الغيبية هذي الى سكون الموج تارة ، أو الى ذكاء وقيادة الربان تارة أخرى. أما المؤمنون الموقنون ، فإنهم لا ينسون أو يتناسون حقيقة تحكم عالم الغيب و قدرة الله عزّ وجلّ على انقاذ الانسان في عملية تفوق قانون الطبيعة .

وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام : بما عرفت ربك ؟

قال : « بفسخ العزائم ونقض الهمم »[1]. أي أن المرء قد يخطط لنفسه أمراً ما وسلوكاً معيناً يعتزمه غداً ، ولكنه يريد شيئاً و يريد الله شيئاً آخر ، ولا يكون إلّا ما أراد الله تبارك اسمه . وهذه الإرادة الالهية التي تصدر عن الله مباشرة ، أو بوسيلة أخرى كما يظهره الصالحون من كرامات مأذونين بها ، هذه هي ما نطلق عليه اسم عالم الأمر .

وعلى هذا الأساس ؛ كان لزاماً على الإنسان أن يجعل كل همه ويبذل كل سعيه في سبيل توطيد العلاقة الإيمانية بعالم الأمر ، لأنه الأهم في تحديد حياته ومصيره ،

---

١ - الخصال ، الشيخ الصدوق ، ص ٣٣.

وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠) .

فالواجب على الإنسان أن يحسن الظن بربه فيتعلق بإرادته ، ويستشعر الفقر والحاجة إليه ، وليس التكبر عن عبادته ، لأن مصيرالمتكبرين الدخول الى جهنم داخرين ، حتى أنه روي في حديث قدسي ، أن الله تعالى قال : « **يا موسى : سلني كلما تحتاج إليه ، حتى علف شاتك، وملح عجينك** »[١] ، لأن الله هو الغني الكريم ، وهو الذي لا تنقصه كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً .

ولما كان الله عزّ وجلّ هو المسيطر على مقدرات الأرض وسائر المخلوقات ، فإنه من الحري بالإنسان ، والمؤمنين خاصة ألّا يتناسوا حقيقة التوكل على الله ، أو يغفلوا - مجرد غفلة - عن مصداقية حفظ الله لمقدرات الحياة ، رغم كل ما يبدو من سيطرة الرؤساء والملوك ممن يطغى بأسلحة الدمار الرهيبة التي يخزنها في ترساناته ؛ ذلك لأن هؤلاء الطغاة عاجزون عن مجرد حفظ شهواتهم ونزواتهم البسيطة ، فكيف يكون بإمكانهم كبح جماح الطغيان المتكرس فيهم ؟ ولكن الله عزّ وجلّ هو الذي يحفظ هذه الارض ، بل والكون كله من طغيان الطاغين وتكبر المتكبرين .

ومن نوعية المعادلة التي وضعها الله وسنّها بين عالم الخلق وعالم الأمر يتبين أن ثمة سنة إلهية جارية في خلقه منذ أول لحظة أوجدوا فيها على وجه البسيطة ؛ أن المؤمنين قد يستحوذ عليهم الشك أو الهزيمة بفعل تأثيرات عالم الخلق في بداية المطاف ، إلّا أن ما يعيدهم الى جادة اليقين ويحقق لهم الانتصار هو تدخل عالم الأمر والقوة الإلهية التي كتبت على نفسها تغيير المرحلة ونصرة المؤمنين ونشر دين الله واستخلاف المستضعفين في الأرض ، والتأكيد على أن العاقبة للمتقين .

١- الجواهر السنية ، الحر العاملي ، ص ٧٢.

حكمة بعث المرسلين

ما هي الحكمة في تواتر الرسل واستمرار الرسالات ؟ إذا كانت رسالة إلهية واحدة كافية لهداية وتوجيه البشرية ، إذاً لانتهى الأمر عند رسالة أبي البشرية النبي آدم ﷺ ، غير أن الرسل جاؤا من بعده : من شيث الى نوح الى ابراهيم الى موسى وداود وسليمان وعيسى وسائر أنبياء الله ﷺ .وإذا كانت البشرية بحاجة الى تواتر الرسل ، فلماذا انقطعت الرسالات وختمت بنبي الإسلام محمد ﷺ ، ولماذا توقّف الوحي عند هذا الحد ؟ فهل يعني هذا أن البشرية قد تكاملت حتى لم تعد محتاجة أو فقيرة الى هداية الرسل والرسالات ؟ وهل يعني اختتام الرسل والرسالات أن نبينا وسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، قد جاء كافياً وللناس كلهم ؛ ولم تعد هناك من حاجة الى رسالة جديدة ؟

هذه الأسئلة هي في غاية الحساسية والخطورة ، لا سيما وأنّ أزمة ـ إن صحّ التعبير ـ ادّعاء النبوة كانت قد استفحلت بعيد وفاة الرسول الأكرم ﷺ ، ثم لم يعد عهد من العهود إلّا وكان فيه متنبئ للناس أشبه ما يكون بالدجالين والمشعوذين ، وحتى عصرنا الحاضر لم يخلو من ظاهرة التنبؤ.

والجواب على الأسئلة المتقدمة أعلاه تكمن في أبعاد شتى ، يقف في مطلعها أن الإنسان قد أتي من المشاكل الذهنية والعقد النفسية ما يحفزّه على تبرير كفره بالله تعالى . فالانسان هو المخلوق الأكثر جدلاً ، وهو بالتالي يستثقل الخضوع الى الحق بسرعة ، إنما يضفي على كفره صبغة فلسفية ، ويغطي تمرده وطغيانه على الارادة الالهية بشتى صنوف الفلسفة الفاشلة .

ومن أساليب الانسان في إطار هروبه من الحقيقة هي تحريف الدين : الدين الذي يأتي للدفاع عن القيم وصون الحقوق وحفظ ومضاعفة العلم والمعرفة ، ولكن هذا الدين بالذات يتناوله المخلوق البشري الطاغي والمتمرد والخصيم ليحوله الى أداة للدفاع عن مصالحه وأهوائه الشيطانية.

فالدين الإسلامي الذي أكمله الله تعالى على يد نبينا محمد ﷺ في غضون ثلاثة وعشرين عاماً ، وضحى من أجله المضحون من أجلاء الصحابة في الصدر الأول ، تحول بعد هذه الفترة القصيرة الى ملك عضوض يتناوشه الطغاة ، وأصبح منبر رسول الله ﷺ الذي كان يجلس عليه ويعظ الناس ويأمرهم بتقوى الله وحفظ حدوده المقدسة ؛ نفسه هذا المنبر أصبح وسيلة للقهر والاستضعاف وتحريف السنن الربانية . فلقد كان الرجل من بني أمية -مثلاً- ينصح الناس بزعمه أن يحاولوا إيصال ألسنتهم الى أرنبة أنوفهم ليدخلوا الجنة ! وكان منهم من يقترح على الناس إقامة صلاة الجمعة يوم الاربعاء ! ولقد سبّوا أمير المؤمنين عليه السلام من على هذا المنبر الشريف ، وهو أقرب الناس من رسول الله ﷺ وهو الإمام الشرعي بنص القرآن والسنة النبوية ؛ الإمام الذي كان يمثل روح الإسلام وقدوة الصديقين ؛ هذا المنبر أصبح هكذا !!

وتحريف وتحوير الدين لم يكن أمراً خاصاً بالدين الإسلامي فحسب ، وإنما قد تعرضت كافة الأديان السماوية ، وبفعل شيطاني متمرس الى هذا المرض عبر التأريخ . فالنبي موسى بن عمران سلام الله عليه جاء بدين التوحيد الخالص والنقي ، ولكن السامري صنع للناس عجلاً له خوار من حلية القوم أنفسهم ، قائلاً لهم : ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ (طه، ٨٨). وتتالت محاولات تحريف دين النبي موسى أثناء وجوده بين الناس مرّات عديدة جداً ، حتى أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم تكفيراً لذنوبهم العظيمة ، ومع ذلك فهم ما أن ينقذهم الله من مشكلة حتى يوقعوا

أنفسهم بأزمة أشكل .واستمراراً لهذا العناد ـ الذي قل أن يكون له نظير في التأريخ البشري ـ بدأت الأفكار الشيطانية بالانتشار والسيطرة فور وفاة النبي موسى بن عمران ﷺ ، فتحول الدين من عقيدة سماوية الغرض ؛ منها إنقاذ الانسان من كل رذيلة.. الى مبدأ عنصري يبيح لهم الاعتقاد بالسيادة على كافة شعوب الأرض وأن نفوس وأعراض وأموال وممتلكات الناس مباحة لهم باعتبارهم أبناء الله وأنهم شعبه المختار.. فأخذوا بالفعل باستباحة المنكرات والمفاسد بشكل لم يسبق له مثيل ، بل لقد وقع بأسهم بينهم فقتل بعضهم بعضاً وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم بغير حق .

عند ذلك ؛ احتاجت البشرية الى مجدد ، يأتي ليعيد الناس الى الدين الخالص والصراط المستقيم ، وأن يعيدهم الى الرسالة التي أنزلت من قبل على النبي موسى بن عمران عليه السلام.

فجاء النبي عيسى بن مريم ﷺ مبعوثاً إلهياً لينفذ هذه المهمة المقدسة ، كما جاء من كان قبله من الأنبياء ليتمموا رسالات الرسل السابقين لهم . وعليه فإن هذه الرسالات المتتالية هي رسالة واحدة في الأسباب والأهداف ، فحينما تقرأ سورة الشعراء أو سورة القصص أو سورة الأنبياء تجدها تبين وتوضح بجد موضوع وحدة الرسالات السماوية ، وعبارة « أن اعبدوا الله » تتكرر على لسان كل نبي الى أمته .

ولكن الرؤى السماوية التي جاء بها النبي عيسى ﷺ قد حرفت هي الأخرى تحت ضغط السلطات الحاكمة أنذاك وبفعل انعدام الوعي الكافي بين الناس ، لا سيما وأن أحبار اليهود الضالين لم يكونوا ليتركوا من فرصة من النيل والتشويه في أفكار وسمعة هذا النبي العظيم أو أمه الصديقة مريم إلا واستغلوها .وإن التأريخ ليذكر بكل صراحة كيف كان اليهود يغرون ويؤلبون أباطرة الروم ـ عبدة الأوثان والخرافات

والأساطير ـ على قتل وتشريد أو محاصرة أتباع وأنصار النبي عيسى بن مريم ﷺ، فمن قتل قتل ، ومن عذب .عذب ، ومن شرّد شرّد .

وجاء المسيحيون الى قسطنطين ـ كبير أباطرة الروم ـ قائلين له : ماذا تطلب منا حتى تكفّ أذاك عنّا ؟

ويبدو أن هذه القصة قد حدثت بعد قصة أصحاب الأخدود التي مثلت مجزرة رهيبة كان المسيحيون في ذلك اليوم ضحيتها .

فقال لهم : أريد منكم أمرين : الأول أن تقدّسوا الأصنام التي نعبدها ، والأمر الثاني أن تبعدوا دينكم عن سياستنا ، فاتركونا في قصورنا نفعل ما نشاء ، واذهبوا أنتم الى كنائسكم ومعابدكم وافعلوا ما تشاؤون .

وتحت ضغوط الترهيب و الترغيب والحصار الاجتماعي الذي كان مفروضاً على جماعات المسيحيين في كل مكان ، وبفعل الجهل وعدم تدوين نصوص الانجيل حال نزوله على النبي عيسى ﷺ ؛ تحت كل هذه العوامل تولدّت فكرة التراجع عن المبادئ من أجل الحفاظ على الحياة والمصالح الذاتية . فمن أجل ايجاد الروابط الحسنة بين الدين المسيحي الجديد العهد وبين السلطات الوثنية الحاكمة المتأثرة بالدعم الاقتصادي اليهودي ، قرر كبار المسيحيين نشر نظرية جديدة تحدد معالم دينهم ، وكان مفاد هذه النظرية أن الإله الواحد عاجز عن البقاء في وحدانيته فأصبح ثلاثة ؛ فجزء منه في مريم وجزء منه في عيسى ، وجزء في روح القدس .

وهذا الزواج غير الشرعي بين الظاهرة الصنمية والديانة المسيحية لم ينجب حتى الأن سوى مجموعة من الاشكالات العالقة التي لا يزال المسيحيون ورهبانهم يقفون عاجزين عن حلها .في الوقت الذي تعد من وجهة نظرنا من أوضح الواضحات .

فترى ما معنى مقولة واحد في ثلاثة ، وثلاثة في واحد ؟ بل وما الداعي القول بها واعتناقها كفكرة ؟

وفي معرض الاجابة ، لا يسع المسيحي إلا اتهام السائل بالجهل وضيق الأفق ! ولكنه حينما يعزم على الاجابة يجد نفسه عاجزاً عن التعبير أو تصور الفكرة ، ولذا فهو يعرب عن ذلك بأنه آمن بهذه الفكرة لمجرد وجوب الايمان بها تبعاً لآبائه وشيوخه الذين سبقوه .

ومع بالغ الأسف ، فإني اسمع من هنا وهناك أن عدداً من المسلمين البسطاء والجهلة أخذوا يرفعون صوتهم في الصحافة بأن نظرية الأطراف أو الأقاليم الثلاثة تمثل عمق التوحيد . وأنا لا أدري كيف تكون نظرية الشرك هذه التي يواجهها القرآن الكريم بكل إصرار ويوضح أن الفرق الأساس أو أساس الفرق بين الاسلام الحق وبين الديانة المسيحية واليهودية في التوحيد وعدمه ، فكيف يمثل الشرك بالله عمق التوحيد به ؟!

إن الله سبحانه وتعالى هو المتكبر وهو الجبار وهو شديد الانتقام والعقاب في قضية التوحيد الحساسة . فهو من الممكن أن يغفر الذنوب جميعاً باستثناء ذنب واحد وهو الشرك بالله ، فكيف يتسنى لمسلم من المسلمين أن يخرج بمثل هذه النظرية لمجرد التقرب من القساوسة ومحاولة إرضائهم ؟

وعلى كل حال ، فحينما اتفقوا مع السلطة في قضية تلبيس الصنمية السلطوية بلباس الظاهرة الدينية جاؤوا بمثل هذا السمّ الخطير وغلفوه بغلاف ديني .

ثم إن عزل الدين عن السياسة يعتبر من وجهة نظر عقلية وفطرية تأليباً مباشراً على ارتكاب مختلف أنواع الجرائم والمعاصي ، فالمجازر التي كان يرتكبها القيصر ضد بعض المدن والقبائل والشعوب المتمردة كانت تلقى سكوتاً من قبل الكنيسة ، كذلك الحال بالنسبة لمفاسد القيصر الأخلاقية والادارية ، مما يعني موافقة الكنيسة مباشرة تجاه ما يقوم به الحاكم ؛ وبالتالي طرح علامات تساؤل كثيرة وكثيرة على هذا الدين الأخرس إزاء ما نصّ هو على منعه من قبل بنفسه .

عندما تحوّل الدين المسيحي الى هذا الواقع المرير جاءت الرسالة السماوية الخاتمة بالقرآن الكريم ، المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ هذا القرآن الذي قطع الله سبحانه وتعالى على نفسه أن يحفظه، فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر، ٩). جاء هذا الكتاب المقدس ليواجه كل تلك الانحرافات والضلالات والتحريفات في الدين .فالقرآن الحكيم صرح بقاطعية بكفر المسيحيين الذين جزؤوا الله سبحانه وتعالى ، ومن هنا لا يبتغي التهاون إزاء من قال بأن الله ثالث ثلاثة ، إذ لا توجد مسافة بين الكفر والإيمان ، ولا يمكن أن نقول بأن هذا نصفه مؤمن ونصفه الآخر كافر. فالله لم يجعل لرجل واحد قلبين في جوفه . ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ (المائدة، ٧٣)، لأن ذلك الذي جزء منه المسيح وجزء منه روح القدس ليس هو الله، وعليه فإنهم يعبدون إلهاً غيره ؛ لا وجود له أصلاً. وما من إله إلا إله واحد ، أما الإله القابل للتجزئة ؛ الإله الضعيف المحتاج الى شرب الخمر ، فهو لاشك غير الله سبحانه .

إن اليهود والمسيحيين يقولون بأن الله لا يمضي أمراً ما لم يوافق عليه العزير - باعتباره ابن الله لدى اليهود - والمسيح باعتباره ابن الله عند النصارى - وبالتالي فإن الفريقين يقولان - باطلاً - بأن يد الله مغلولة .

والقرآن الكريم يحذر المسيحيين من مغبة الكفر ، ويخاطبهم بصراحة بليغة بأن اعتقادهم بنظرية الفداء القائلة بأن المسيح سيخلص أتباعه ومؤيديه من عقاب الأب ، ليس إلا اعتقاداً تافهاً سيعرضهم في نهاية المطاف الى عذاب أليم. قال الله سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة، ٧٣).

وفي مقابل هذا التحذير والتهديد والانذار يفتح الله أمامهم باب التوبة والرحمة والغفران. قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة، ٧٤).

فشأن المسيح بن مريم عليه السلام لا يتجاوز شأن بقية الرسل والأنبياء الآخرين، ومن المحال أن يكون هذا الرسول أو غيره إبناً لله الواحد الأحد. قال الله سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾(المائدة، ٧٥). أما أمه فصديقة كما تعبر الآية القرآنية الكريمة، فهي ليست مقدسة كما يقولون، بل هي صدِّيقة صدقت بكلمات الله .فالفرق بين القدس الذاتي والتصديق بالحقائق، هو الفرق بين نظرتي الشرك والتوحيد. فهي صدّقت برسول الله عيسى ابنها .فهما كانا يأكلان الطعام، الصفة الملاصقة للمخلوق الفقير الى خالقه؛ فلو كانا إلهين لما احتاجا الى أكل وشرب، بل لكانا غنيان بذاتهما كما هي صفات الإله. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(المائدة، ٧٥).

الرسالة الخاتمة

لماذا ختمت الرسالات السماوية برسالة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم؟

إن الجواب يكمن في ثلاثة أوجه:

أولاً: إن مسألة انحراف الدين في الشريعة الاسلامية أخفّ منها في الأديان السماوية الأخرى، إذ أن الإسلام جاء وجاء معه الكتاب المنزل من ربّ العالمين، ونصّ هذا الكتاب محفوظ عن التحريف حتى وإن حرّف التفسير أو تعددت معانيه.

فالكتابة والتدوين كانا منذ عهد النبي ﷺ ، حيث يعتبر نبي الإسلام أول آمر بكتابة القرآن .

ثانياً : إن القرآن الكريم كان قد تسنى له الحكم والتطبيق على عهد الأمين عليه، وهو رسول الله ﷺ . في حين أن اليهود ما كانوا ليقبلوا ما كتبه النبي موسى عليه السلام في الألواح وهو لما يتوفى بعد ، وكذلك القول بالنسبة الى النبي عيسى عليه السلام ، حيث تذكر نصوص الانجيل المتداولة بأن وقت تدوينها لم يكن إلا بعد ما يقارب المائة عام، فضلاً عن أن آيات الانجيل لم تتسنى لها السيطرة على القوانين حال نزولها . ولكن القرآن الكريم كان قد أظهره الله ، ورسوله كان موجوداً بين الناس يقاوم الكافرين ويحكم المسلمين ، ثم أن الحكومات التي تتالت على المجتمع المسلم كانت تحكم باسم القرآن ، وكان من غير الممكن أن تسعى هذه الحكومات أن تحرف نصَّ القرآن وهي تبرر وجودها في المحافظة عليه ، وتعتبر نفسها حارسة عليها ، حتى وإن كان ادعاؤها هذا لمخادعة الناس وتمرير مراميها عليهم.

ثالثاً : إن القرآن الكريم هو بحدّ ذاته معجزة في الخلود ؛ وذلك من وجهات نظر عديدة ، وفي مقدمتها أن اسلوبه في التعبير أسلوب فريد من نوعه ، وليس بمستطاع أي مخلوق كان أن يأتي بمثله ، ولو بمقطع واحد منه ، مهما تضاءل حجمه . وإن أهل اللغة والمعرفة والتفسير ؛ المسلم منهم وغير المسلم أجمعوا على حقيقة إعجاز القرآن في هذا الجانب . فالله العلي العظيم يؤكد بـ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾(الاسراء، ٩) . ومن الطبيعي أن يكون الهادي نوراً ومصدراً مستقلاً بذاته ، مما يعني استحالة حصول الظلام أو الانحراف فيه .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر : فإن الرسول الأكرم ﷺ قد ارتحل الى الرفيق الأعلى ، ولكن الأئمة من أهل بيته ﷺ يتناوبون الإمامة هادياً بعد هاد ، وحسب عقيدتنا ؛ فإن الإمام الثاني عشر الحجة المنتظر ﷺ شاهد غائب وغائب شاهد .

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد وعد عباده أن يجعل لهم في كل جيل وقرن من الزمن مجموعة من الناس تحافظ على الدين ولا تسمح بانحرافه ، وهذه النظرية تدعى بنظرية التجديد ؛ ورغم أنها بحاجة الى البحث والمداولة ، إلا إن هناك آية قرآنية كريمة تقول : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ وفي آية أخرى أكثر صراحة يقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة ، ٥٤) .

إذن ، فعبر هذه الأوجه الثلاثة نستطيع أن نجيب على أنه كيف أن البشرية كانت بحاجة ماسة الى الرسالات الربانية عبر التاريخ ، وكيف انتفت هذه الحاجة بعد انبعاث الرسول الأعظم محمد ﷺ .

أخيراً : نشير الى قول الرسول الأكرم ﷺ : «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**»[١] . وهو قول وثقة جميع العلماء من شتى المذاهب الاسلامية ، وهو يشير الى أن الامة الاسلامية بحاجة الى علماء ـ لا تمر فترة دون حضور لهم ـ كما كان بنو اسرائيل بحاجة مستمرة الى وجود الأنبياء .

وإن تفسير هذه الكلمة في أظهر معانيها وأظهر مصاديقها يعود الى الأئمة المعصومين ﷺ ، ثم العلماء الأعلام التابعين لخط أئمة أهل البيت ﷺ ، وكذلك الى المجاهدين الذين يقومون بدور ابلاغ رسالات الله الى خلقه .

١- بحار الأنوار ؛ محمد باقر المجلسي ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

لماذا بعث الله البشر رسلا ؟

ترى لماذا بعث الله تعالى الرسل من البشر؟ وبتعبير آخر : لماذا كان الانبياء والرسل من جنس بني آدم ؟

هذا التساؤل كان المعضلة الكبرى التي تحولت الى عقبة كأداء في المسيرة الإيمانية لمختلف الأمم مع أنبيائها وعلى مرّ التاريخ الانساني الطويل . وللاجابة عليه نقول : إن الله عزّ وجلّ لو كان قد بعث من ملائكته رسلاً الى البشر ، أو خلقاً ممّا يكبر في أعينهم ، ولو كان هؤلاء الرسل معززين بالقدرة الخارقة ، وإحداث المعاجز المستمرة بحيث تتحوّل الأنهار الى عسل بمجرّد أن يمروا عليها ، وتفتح لهم كنوز الأرض ذهباً وفضة .. لو كان كلّ ذلك وغيره لكان الإيمان المطلوب من هذه الأمم سهلاً يسيراً ، لا يحتاج الى جهد وعناء الأنبياء والرسل ﷺ .

وعلى هذا فانّ المشكلة التي اختلقتها الأمم والشعوب السابقة تكمن في كون الأنبياء والمرسلين ﷺ بشراً من نفس جنسهم ؛ يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، بل أنّ مهمتهم تتركز في الدعوة الى الله سبحانه وتعالى ، هذه الدعوة التي أوجزها النبي ﷺ بندائه التوحيدي المبارك : « **قولوا لا اله الّا الله تفلحوا** »[1] .

إنّ هذا الأمر ـ أي عدم اقتناع الناس بضرورة أن يكون النبي أو الرسول من البشر ـ أوجد العراقيل والصعوبات في مسيرة الدعوة الى الله تعالى .فقد كان يصعب على البشر الإيمان والتصديق برسل من جنسهم ، ولكن الارادة الالهية أبت إلّا أن يكون

---

١ - بحارالأنوار ، الشيخ المجلسي ،ج١٨ ، ص ٢٠٢.

المرسلون من البشر. قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة ، ٢) أي من أصلابهم ، وذريتهم .

ترى لماذا هذا الاصرار الالهي ؟

إنّ الاجابة على هذا التساؤل بحاجة الى تمهيد ، فنقول : عندما أمر الله تبارك وتعالى ابليس بالسجود لآدم ، فانّ ابليس عليه اللعنة أبى واستكبر بحجة أنّه مخلوق من النار ، في حين أنّ آدم خلق من طين .ولقد اقترح ابليس الرجيم على الله جل وعلا على أن يسجد له سجدة تستغرق أربعة آلاف سنة شريطة أن يعفيه من السجود لآدم ، ولكنّ الله تعالى أبى ذلك لأنّه لا يريد عبادته لأنه غنيّ عنها ، ولكنّه يريد الطاعة. لذا فلا حاجة له بسجدته .

وفي الحقيقة فانّ الاستعلاء والاستكبار هما سبب رفض ابليس للامتثال للأمر الالهي ، هذا الاستكبار الذي يؤدي الى الكفر ، كما يصرّح بذلك ربنا سبحانه قائلاً : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة ، ٣٤) .

غير أنّ الأمر لم ينته عند هذا الحدّ ، فبعد أن هبط آدم الى الأرض وهبطت معه زوجه ، تزوّجا وتكاثرت منهما الأقوام والأمم ، وأنّ مشكلة ابليس هذه هي نفسها المشكلة التي ظلت تعاني منها البشرية على مرّ العصور ، ألا وهي الكبر والتفرعن والطغيان .. علماً إنّ الله جلت قدرته قد حرّم الجنة على الانسان الذي يستشعر في نفسه ولو أدنى ذرة من الكبر ، فهو بهذا يريد منّا أن نقتلع هذه النزعة الذميمة من أنفسنا ، لأنّ صفة الكبر خالصة لله وحده .

ولقد خلق الله عزّ وجلّ الأرواح قبل أن يخلق الأبدان ، وكانت هذه الأرواح حرّة طليقة تسمو في عالم الملكوت العلوي بعيدة عن ثقل الجسد ، وأوزاره والمشاكل

التي يواجهها في الحياة الدنيوية المادية ، وعندما أودعها الله سبحانه في هذه الأجساد كان يبغي انتزاع الكبر منها، وتطهيرها منه . وفي هذا المجال يقول الله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ (غافر، ٣٥).

وهكذا فانّ الكبر صخرة صمّاء تجثم على القلب ، ولابد للانسان من ازالتها ولو من خلال تحطيمها شيئاً فشيئاً . فالكبر هو الغلّ الذي يقيد الانسان ، ولابد من تحطيمه والتخلص منه ، وإن كان ذلك خلال سكرات الموت فانّها الفرصة الأخيرة. فإن لم يستطع الانسان التخلّص منه في أيام القوة والشباب ، وإن لم يستطع أثناء سكرات الموت ، فانّ هذا الكبر سيتحوّل في القبر الى عذاب هو من أشدّ العذاب وذلك على يد ملائكة غلاظ شداد .

وبناء على ذلك فانّ الانسان المؤمن لا يمكن أن يدخل الجنة وفي قلبه ذرّة واحدة من الكبر، فالأحرى به أن يتخلص منه في هذه الدنيا عبر التضرع الى الله تعالى ، والدعاء والخشية والتواضع له ، ومن خلال أداء الممارسات العبادية ، كالصلاة والصيام والطاعة والتسليم لأولي الأمر من المؤمنين. فعندما يمتثل الانسان المؤمن لأمر انسان مثله هو أهل للطاعة، فانّه سيتخلص بذلك من آفة الكبر الشيطانية.

وهنا نعود ـ بعد تلك المقدمة الضرورية ـ للاجابة على السؤال السابق، وهو : لماذا الاصرار الالهّي على أن يكون الأنبياء والمرسلون من البشر؟

إنّ السرّ في هذا الأمر هو أن الله جل وعلا أرسل الأنبياء والرسل عليهم السلام دون أن تكون لهم السطوة وأسباب الهيمنة والجبروت. ذلك لأنّ الأنبياء والرسل عليهم السلام إنّما بعثوا لاختبار الانسان ، وليتنزع الله بهم الطاعة من بني آدم من خلال ازالة الكبر من مكامن القلوب ، ولباب العقول . وبالفعل فانّ المؤمنين الذين انضووا تحت لواء

الأنبياء ﷺ استطاعوا أن يتطهّروا من هذا الداء الدفين والآفة المقيتة ، فاصبحت نفوسهم نقية لا تشوبها أدنى ذرّة من الكبر .

وفي عصر الرسول الأعظم ﷺ كانت الأوامر والنواهي تدخل حيز التنفيذ حال صدورها دون اعتراض معترض ، إلاّ أولئك الذين لم تتطهر قلوبهم بعد من داء الكبر . فالصفوة المؤمنة كانت تبادر الى تطبيق و تنفيذ كلّ ما كان الرسول الأكرم ﷺ يرسمه لها دون أيّ اعتراض، لأنّها كانت ترى الاعتراض عليه ﷺ بمثابة السقوط والهلاك ، كما يقول ربنا سبحانه بصريح العبارة :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء، ٦٥).

وعلى هذا، فانّ المطلوب هو السمع، والطاعة، والأنقياد، والأنضباط ..ولذلك فاننّا نجد إنّ أفضل ما يستشفع به عند الله سبحانه وتعالى هو حبّ الرسول ﷺ، وحب أهل بيته ﷺ، الذين هم الواسطة الى رضوان الله تعالى .

ومن الملاحظ أنّ الروايات تؤكد علينا كثيراً في أن نكثر من الصلاة على النبي وآله، وسرّ هذا التأكيد هو أن تتكون بيننا وبين رسول الله ﷺ وشائج الحب والاخلاص ؛ وهذه الوشائج هي الرابط الموصل بيننا وبين الله سبحانه وتعالى. فعندما نكون على اتصال مع الرسول وآله في الدنيا فانّ هذا الاتصال سينتقل الى الآخرة، حيث سيكون سائداً في الجنة أيضاً .

وبالطبع فانّ هذه المحبة لا تتوقف عند حدود الكلام ، فكيف السبيل الى بلوغ المعنى الحقيقي لهذا الحبّ ، أو كيف يتجسد في سلوكنا ؟

إنّ هذا الحبّ ليس مجردّ لقلقة لسان ، أو اضمار في القلب لا ينعكس على صعيد الواقع الحياتي ، فهو إنما يبلغ معناه الحقيقي عندما يتجسّد من خلال اتّباع نهج . وسلوك ، وسيرة النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ قولاً وعملاً .

وللاسف فانّ المناهج والبرامج التربويّة لدينا بعيدة كلّ البعد عن منهاج حياة الرسول ﷺ. فنحن لم نستطع أن ندرك بعد عظمة وسمّو المنزلة التي بلغها النبي الأعظم ﷺ ، فقد كان نوره يشّع على العالم منذ أن كان جنيناً مباركاً في بطن أمه ، ويوم مولده الميمون اخضرت وأينعت بمقدمه الصحاري القاحلة حتى تحوّلت السنة الجدباء التي ولد فيها الى سنة تفيض بالخيرات ، فكانت البركة تفيض من كلّ حركاته وسكناته .

ويوم طلّ نوره المبارك على هذه الأرض حدثت في هذا اليوم الأغر انقلابات كونية صارت حقائق خلّدها التاريخ ؛ فغيض ماء بحيرة ساوة ، وانطفأت نيران المجوس ، وتصدّع ايوان كسرى وتهدمّت شرفاته ، وتألقت نجوم السماء في وضح النهار ..

على أنّ النور لم يولد مرّة واحدة وعند مولده فحسب ، بل إنّ هذا النور انبعث أيضاً ببعثته ، وهجرته ، وانتصاراته ، ودخوله مكة المكرمة .. فهذه كلّها أحداث أطلّ من خلالها النبي ﷺ ، بنوره الوضاء على البشرية ، بل إن جميع أيام حياته كانت عبارة عن اشعاعات ظلت منطلقة على مدى الزمن .

عندما خلق الله سبحانه وتعالى الأرواح قبل الأبدان ، أسكنها الفضاء اللامتناهي ، حيث عالم الملكوت والقدس ، وكانت فيه محرّرة من كل قيد ، طليقة تسبح في هذا العالم دون أن تواجه أية صعوبة ، إلا أن حكمة الله جل وعلا شاءت أن تدخل هذه الأرواح في الأجسام .

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : أَوَ لم يكن من الأفضل أن تعيش هذه الأرواح في الفضاء اللامتناهي بتلك الحرية الأولى ؟

وللجواب على هذا السؤال نقول : كلا ؛ ذلك لأنّ هذه الأرواح كانت تعيش في ذلك الفضاء دون أي قيد ، فأدخلت الأجساد نتيجة للكبر الذي يعتريها ، لأن روح كل إنسان زعمت أنّها تشبه الآلهة في تصرفاتها دون أن تكون لها أية إرادة ، فاخضع الله تبارك وتعالى هذه الأرواح بطبائع المادة ، وقيودها ، وشهواتها ، ومصاعبها ، لكي يشعر الانسان بضعفه ، ولكي يسلم أمره لله سبحانه ، وبالتالي لكي يعرج الى أعلى درجات القرب من الحضرة الالهية.

فلسفة العبادات

ترى ما هي درجات القرب هذه ، وكيف يتقرّب الانسان من ربّه ، ولماذا شرعت هذه الشرائع المختلفة ، وما هي فلسفة وحكمة هذه العبادات والطقوس والشعائر التي أمرنا الله عزّ وجلّ بها ؟

الجواب : لكي تخضع النفس البشرية لربها ؛ فمن دون الخضوع لله تعالى ، ومن دون معرفته ومعرفة النفس ، فانّ الإنسان لا يمكن أن يسمو . فهو إنّما يسمو الى

الدرجات العلى من خلال إحساسه بضعفه ، ومن جهة أخرى عبر تسليمه لخالقه . فالاحساس بالضعف ، والتسليم للرب لا يأتيان إلا من خلال الصعوبات التي يعيشها الانسان .

حكمة بعث الأنبياء

وهذه الحكمة هي نفس الحكمة التي من أجلها أمرنا أن نسلم لبشر من أمثالنا . فلو أنّ الله تبارك وتعالى ، بعث النبيين في صورة ملائكة أقوياء مقتدرين ، وأصحاب قوة مادية هائلة ، لكان خضوع الإنسان للملائكة خضوعاً طبيعياً ، لأنّه في هذه الحالة سيرى أمامه مخلوقات أسمى من خلقه ، وأقوى وأعلم منه ، وبالتالي فانّ الإنسان مفطور على اتباع من هو أعلى وأقوى منه .

ولكن الله جل وعلا لم يفعل ذلك ، لأنه أراد من الإنسان التسليم لله تعالى ، لكي يكون هذا التسليم بمثابة القربان الذي يقدمه له ، وبالتالي لكي يكون هذا العمل سبباً لتقربه منه.

وهكذا فقد بعث الخالق جل جلاله أنبياءه و رسله من البشر ، يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، ويتألمون ، ويفرحون ، ويشيبون ، ويهرمون ، ويموتون ، وبالتالي فانهم بشر كسائر البشر ، كما يقول الله تعالى على لسان نبيه الكريم : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الكهف ، ١١٠) .

كل ما هنالك إن الفرق بين هذا البشر وذلك البشر ليس في جسده وطبائعه ، وإنّما في أنّ الأول يوحى إليه ، في حين لا يوحى الى الآخر.

وتأسيساً على ما سبق فانّ حكمة خلق الأنبياء ، وبعثهم ، وأمر الناس بطاعتهم واتباعهم ، تتلخص في كلمة واحدة هي (الابتلاء) ، ولذلك فان الأنبياء عليهم السلام هم باب

رحمة الله عزّ وجلّ ، وسبيله ، والطريق إليه. فمن اراد أن يتقرب الى الله تعالى بعيداً عن الأنبياء والأولياء ، فانّه لايمكنه ذلك ، لأنّ الله جلّ جلاله له في خلقه باباً واحداً هو باب التسليم لمن أمر الله أن يسلم الانسان له.

وبناء على ذلك فلو كان هناك رجل يقول مخاطباً ربّه : يا ربّ إني مستعد لأن أصلّي لك ، وأصوم ، وأحجّ بيتك ، وأنفق في سبيلك من أموالي ، وأجاهد لوجهك ، وأقوم بكل الأعمال الصالحة ، ولكني غير مستعد لأن أؤمن برسولك ، فانّ الله سبحانه وتعالى سوف لا يقبل منه صلاته ، وانفاقه ، وجهاده .. لأنه قد وضع له من أجل طاعته ، والحصول على رضاه ، باباً وطريقاً يتمثلان في النبي ﷺ.

التسليم حكمة طاعة الأئمة عليهم السلام

وهكذا الحال بالنسبة الى الأئمة من أهل بيت النبي عليه وعليهم السلام ، فقد جعلهم الله تعالى مصابيح ، ووسائل ، وسبلاً ، وبالتالي فقد جعلهم وسائط بينه وبين خلقه ، وأمر الانسان أن يأتي إليه من هذا الباب ؛ أي من باب الأئمة عليهم السلام .

وعلى هذا فانّ الحكمة من خلقهم عليهم السلام وفرض طاعتهم على الناس ، تتمثّل في أن يسلم الناس لهم ، ليكون هذا التسليم قرباناً يقدّمونه للتقرب الى الله جل وعلا ، لأنّ الله تعالى لا يحتاج الى قيامنا ، وقعودنا ، وسجودنا ، وركوعنا ، ولا يحتاج الى أموالنا ..بل يريد منّا العبادة المتمثّلة في الخضوع والتسليم.

وفي هذا المجال يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (الاحزاب،٥٦) . فالصلاة على الرسول ﷺ هدفها أن تتقرّب الروح وتبذل التسليم والخضوع والطاعة للخالق ، لأن هذه هي

العبادة المطلوبة ، ولذلك يقول الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران . ٣١) .

فمن أراد الوصول الى الله ، فان عليه أن يبدأ بهم ، وأن يخضع لهم ، وأن يطيعهم ويتبعهم ، لأنهم طريق الله ، والسبل والوسائل إليه .

حب الله جزاء اتباعنا لأهل البيت

وجزاء اتباعنا للرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام هو أن الله تعالى سوف يحبنا ، ومن أعظم الصفات أن يحب الله جل جلاله الانسان ، لأن الحب هو أسمى درجات الصلة بين الانسان وبين أيّ شيء آخر . فعندما تندمج الروح بالروح ، وتتصل النفس بالنفس ، والقلب بالقلب ، وعندما يرتفع الانسان الى أعلى درجات العلّيين ، فانه سوف يضمر الحبّ لله ولرسوله . فهو في حالة الحبّ سوف لا يشعر بذاتيته مطلقاً ، ولا يحس بالأنا ، ولا يحسّ بلذة أفضل وأكثر إمتاعاً من لذة مناجاة الله سبحانه وتعالى . والمؤمنون الذين تتجلى فيهم هذه الصفة ، هم الذين نجدهم يعشقون الشهادة ، ويقومون الليل ، ويصومون النهار ، فاذا بافئدتهم تنبض بالرجاء والخوف ، لأنهم ذاقوا لذّة المناجاة ، ووصلوا الى مقام القرب من الله سبحانه وتعالى .

فاذا أردنا أن نصل الى مقام يحبّنا فيه الله ، ويقرّبنا إليه ، فعلينا أن نتّبع النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام .

ويعود القرآن الكريم ليؤكد على تلك الفكرة مرة أخرى ، فيقول : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ (آل عمران ، ٣٢) . فهاهنا لا يوجد فرق بين طاعة الله تعالى وبين طاعة الرسول ، لأن طاعة الله تتجلى في طاعة الرسول .

ثم يقول ربنا عزّ وجلّ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(آل عمران، ٣٢) ؛ أي إنّ من لا يطيع الرسول ، ولا يطيع الأئمة المفروضة عليه طاعتهم ، فانّ الله لا يحبه . والسبب في ذلك يوضحه لنا ربنا سبحانه في قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران، ٣٣) .

الاصطفاء الالهي ليس عبثا

فهنا يوجد اختيار وانتخاب ، فقد تختار من بين أولادك ولداً ، ومن بين أصدقائك صديقاً واحداً ، وبين الكتب كتاباً تصطفيه اصطفاء ، وقد يكون اختيارك هذا سليماً ، وربّما يكون غير سليم ، ولكن اختيار الله عزّ وجلّ واصطفاءه لا يمكن أن يكونا عبثاً. فلا يجوز لك أن تقول : لماذا فرض عليّ أن أطيع الرسول أو أن أتبّع الإمام ، أو أن أحب هؤلاء الأئمة ؟

وكما أنّ الله اصطفى آل ابراهيم ، وآل عمران، فانّه اصطفى أيضاً آل محمد ﷺ ، وآل عليّ ﷺ على العالمين ، وافترض علينا طاعتهم ، وحبّهم ، لأنّ هذا هو الطريق الطبيعي لطاعة الله عزّ وجلّ وحبّه ، والسير وفقاً لمنهجه وهداه، ومن دونه لا يمكننا أن نسلك الطريق المستقيم الذي يوصلنا الى رضوانه تعالى والفوز بجنانه .

الولاية الالهية اساس العقيدة

إنّ من أهمَ ما يجسد الولاية الإلهية التشريع الإلهي للكون ، والانسان جزء من هذا الكون فلابدّ من أن يعترف بولاية الله تبارك وتعالى على كلّ مظاهر الكون ، فهو واجب شرعي وأساس من أسس العقيدة الإلهية.

والاعتراف الحقيقي بالولاية ينبغي أن يستوجب اعتقاد الانسان بأنّ ولاية الله تمتد وتمتد لتشمل منهج تفكيره ، واسلوب حياته ، وقانون مجتمعه ، وعلاقاته مع الآخرين .

وربما يكون هذا هو الهدف الحقيقي من الولاية .فالله عزّ وجلّ له الولاية الكبرى ، فهو الذي خلق السماوات والأرض ، واستوى على العرش ، وهو الذي يدبّر أمر الليل والنهار ..

شمولية الولاية الالهية

فلابّد ـ إذن ـ من أن تنعكس هذه الولاية على حياتنا ، فاذا فصلنا عقيدة الولاية الإلهية على الكون عن العقيدة بهذه الولاية على الحياة البشرية ، فاننا نكون قد ألغينا دور الولاية الإلهية في الكون أيضاً .

والملاحظ في تاريخ الرسالات الالهية أن المعركة الحامية بين الرسل وأقوامهم لم تكن حول الاعتراف بوجود الله سبحانه ، والعلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان يقول في هذا المجال : لم أجد في القرآن من أوله الى آخره إن كلمة (الكفر) اطلقت على من يجحد بالله سبحانه ، بل إنّها اطلقت في كل مرّة على أولئك الذين يفصلون بين ولاية الله في التكوين والتشريع.

وهنا يكمن المنعطف الذي يربط بين الجانبين ، كما توحي إلينا بذلك الآيات التالية من سورة المائدة : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (المائدة ، ٤٣ ـ ٤٤) .

عدم الاعتراف بالولاية يعني الكفر

هذه الآيات تصرح في نهايتها إنّ من لا يعترف بحكومة النبيين ، وحكومة الأحبار القائمة على أساس التوراة ، والتي هي حكومة دينية قائمة على أساس كتاب الله المقدّس ، فانّه كافر.

ونحن ربّما لا نجد من استنتج من هذه الآية موضوع (ولاية الفقيه) ولكنّها ـ مع ذلك ـ من الآيات الصريحة في هذا المجال . فالقرآن الكريم يقول : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ (المائدة ، ٣٤) ومن خلال التدبّر يمكن للانسان أن يكتشف الفرق بين الهدى والنور ، ومفعول (يحكم) هنا غير مذكور في هذه الجملة ، بل في العبارة التالية ، والذي يحكم بالتوراة هم النبيّون ، والمحكوم عليهم هم الذين هادوا ؛ أي إن الذين اعتنقوا الديانة اليهودية يحكمهم الأنبياء عليهم السلام عبر التوراة .

فالتوراة ـ إذن ـ هي أداة الحكم ، والنبيّون هم الحكام ، والمحكوم عليهم هم الذين هادوا . ومن خلال التدبّر في هذه الآية ربّما يتضح لنا سبب استخدام أداة الجرّ

(اللام) في (الذين) ، فلماذا لم يقل الله سبحانه : يحكم بها النبيون الذين هادوا ، ولكنه قال : للذين هادوا ؟

إنّ كلمة (اللام) هنا تأتي لتقول لنا إنّ هدف الحكومة منفعة الناس .فاللام توحي بالمنفعة ، في حين كلمة (على) تعطي معنى الضرر.

الإسلام ملاك القيادة

ثم إنّ الآية تصف النبيين الذين يحكمون بني اسرائيل بأنهم أسلموا ، فهل يوجد نبيٌ غيرمسلم ؟

حاشا لله تعالى أن يبعث نبيّاً غير مسلم . فالانبياء جميعهم أسلموا لله تعالى ، و هذا شيخ النبيين إبراهيم الخليل ﷺ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة ،١٣١) . كما إنّ الآيات القرآنية كلها تؤيد إسلام الأنبياء ﷺ ولكن الأمر الملحوظ هنا هو بيان العلة والملاك . فملاك قيادة النبيين للناس هو مدى إسلامهم ، وخضوعهم لله جل شأنه ؛ أي إنّهم لا يخضعون الناس لهم بقوتهم ، ولم تعط السيادة لهم لأنهم من أبناء الشرفاء والنبلاء ، ولأنّهم أصحاب ثروة ..بل لأنّهم أسلموا لله تعالى .

وبناء على ذلك فانّ التوراة يحكم بها النبيّون للذين هادوا ، فالذين هادوا. مفعول به هنا ، وربما كانت اللام للتأكيد ، أمّا الذي يحكم بعد النبيين منهم الربانيون كما تصرّح بذلك الآية السابقة ؛ أي أولئك الأوصياء المخلصون الذين أطاعوا الله تعالى في كل تصرفاتهم ؛ فبسبب خلوصهم ، وتجردّهم في ذات الله ، فانّهم يحملون الرسالة ، ثم يأتي بعدهم في الدرجة الثالثة الأحبار ؛ أي العلماء .فان لم نجد من هم في مستوى الربانيين ، فعلينا أن نحتكم الى العلماء .

ملاك حكومة الربانيين

والسبب الذي يؤهل الربانيين والأحبار لحكم الناس وقيادتهم، يشير إليه الله تعالى في قوله : ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ (المائدة ، ٤٤) .

فملاك الحكومة بالنسبة الى الربانيين والأحبار يتمثل في أمرين هما :

١ـ حفظ كتاب الله ؛ أي إنّ الله سبحانه جعلهم حفظة لكتابه ، وعيبة لعلمه وخزنة لحكمته ، فهم يعلمون الكتاب ، ويعرفون المبادئ القانونية له .

٢ـ إنّهم يطبقون الكتاب ، وعندما يطبقون الكتاب فانّهم يكونون شهداء عليه ؛ أي يقومون بدور الرقابة على تنفيذه.

الشهادة أصعب المراحل

إن حفظ كتاب الله هو أمر ليس بالعسير جداً ، فانت باستطاعتك أن تدرس لفترة ما لتصبح عالماً بعد ذلك ، ولكن الأمر الصعب أن تكون شهيداً .فنحن عندما نصل الى آية كآية الشهادة فانّ فكر الانسان ينذهل ، فأي مستوى عظيم أن يصل الانسان الى مستوى الشهيد الشاهد؟

إن الشهيد يراقب طول حياته تطبيق الكتاب في نفسه وفيمن حوله ، والفرق بين كلمة (الشاهد) و(الشهيد) إنّ الشهداء جمع شهيد وليس جمعاً للشاهد، فأنا وأنت شهود الآن ، والشهود هي جمع للشاهد. وعلى سبيل المثال فاننا جميعاً شهود على هذا المجلس ، ولكن الشهيد يتمثل في جهاز التسجيل ، لاننا ننسى ولكن هذا الجهاز يبقى وتستمرّ شهادته ، في حين أن شهاداتنا لا تستمرّ.

والفاعل يفعل الفعال ثم ينتهي دوره ، في حين إنّ الصفة المشبهة كـ (كريم) و(جميل) و(شهيد) وما الى ذلك تمثل صفة الاستمرار ، فاذا قيل إنّ فلاناً كريم فهذا

لا يعني أنّه كريم في لحظة ثم تنمحي عنه بعد ذلك صفة الكرم ، بل إنّ هذه الصفة تمثّل ملكة مستمرة ومستقرة فيه.

ومن الناحية العملية فانّ (الشهادة) تمثل أمراً صعباً لوجود مقاومة اجتماعية ، فالناس يقفون ضدّك عادة عندما تريد أن تنهاهم عن الصفات السلبية ، ولذلك فانّ القرآن الكريم يأمر الانسان الشهيد قائلاً : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ (المائدة ، ٤٤) .

فالشهيد يحتاج الى خشية الله ، ومن أوتي هذه الخشية فقد أوتي خيراً كثيراً ، لأنه لا يخشى أحداً إلا الله سبحانه ، ومن يكون كذلك فانّه سوف يستقيم على الطريق ويستمّر .

وهكذا فانّ من أبرز صفات من يريد أن يحكم للناس بكتاب الله : العلم والشهادة ؛ أي أن يكون شهيداً ومقياساً ؛ بمعنى أن يكون ملاكاً يعرفون الناس من خلاله مدى قربهم أو بعدهم عن الرسالة الالهية .

وأمام الانسان الشهيد خطران : الخطر الأول هو خشية الناس ، والخطر الثاني هو الإغراء ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (المائدة ، ٤٤) مشيراً الى هذين الخطرين .

وخلاصة الحديث ؛ علينا - إذن - أن نعتقد اعتقاداً كاملاً ومطلقاً بالولاية الالهية سواء في المجال التكويني أوالتشريعي ، وأن لا يتسّرب الى نفوسنا أي شك فيها ، لأنّ الكفر لا يتمثل بالضرورة في اعلان الانسان لجحوده بوجود الخالق ، بل إنّ له معاني وتجليات كثيرة لعّل أبرزها أن لا يحتكم الانسان في حياته الى ولاية الله و ولاية الذين يعينهم الله عزّ وجلّ لادارة شؤون حياته .

الولاية دعامة الدين

في الكون نور وظلام، وظل وحرور، وخير وشرّ، وحسنات وسيّئات.. وهذه الثنائية يقّر بها كل وجدان، ويؤمن بها كل إنسان، وعند تحديد المصاديق والأولويات والمفاهيم فانّ التفسير والتحليل يختلفان لدى الناس من مجموعة الى أخرى، ولكنّ أصل الوجود يشتمل على خطين اثنين، ونحن نلمسهما أيضاً في قلب الانسان؛ ففي مقابل الحّب هناك بغض، وهناك حنين وشوق الى النور يقابلهما اشمئزاز وهروب من الظلام.. فلا يمكن للانسان أن يضمر الحب لكل شيء، بل إنّه يحبّ ما ينفعه، ويبغض ما يضرّه؛ فهو يحبّ الخير والاحسان والوفاء والمكرمات، في حين يبغض في الجانب الآخر الشر والخداع والكذب والنفاق.

وبالاستناد الى هذه الثنائية الكامنة في قلب الانسان وضميره ننطلق لمعرفة حقيقة اجتماعية، وهي أن هذه الثنائية كما هي موجودة لدى الانسان الفرد فانّها موجودة أيضاً على صعيد المجتمع. فهناك اتجاهان؛ اتجاه ايجابي وهو اتجاه الحب والحنان والعطف، وآخر سلبي يتمثل في البغض والعداوة والاشمئزاز. وعلى سبيل المثال ففي المجتمع هناك أصدقاء نكن الحب لهم والعطف عليهم، وننسجم معهم في المبدأ والمعتقد، يقابلهم أعداء لابّد لنا من بغضهم والاشمئزاز منهم من الناحية النفسيّة.

وعلى هذا فلابّد أن يكون في الانسان جانبان؛ جانب الولاء، وجانب البراءة. وهذان (التولّي والتبرّي) يمثلان فرعين أساسيّين من فروع الدين؛ فهناك أناس يجب أن نتبرّأ منهم وهم الكفار والمشركون والمنافقون والعصاة والطغاة، وهناك أناس ينبغي أن نودّهم ونواليهم ونتقرّب إليهم، ألا وهم الأنبياء والصديّقون والأئمة والمؤمنون التابعون لهم باحسان.

وهذه المعادلة بين الحب والبغض، وبين الولاء والبراءة، لابّد لنا من المحافظة عليها بكل دقة؛ فاذا بغضنا الجبت، وتنفرنا من الطاغوت، وتبرأنا من العصاة، فلابّد من الجهة الأخرى أن نحب الله تعالى ونود أولياءه وخلفاءه في الأرض.

حديث التولي في القرآن

وهناك في سورة النور المباركة، وفي آية النور بالتحديد: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (النور، ٣٥)، حديث مسهب عن التولّي، وعن النور الالهي الذي أشرقت له السماوات والأرض، وصلح به أمر الأولين والآخرين. فأين - ياترى - يتجلى هذا النور، وهل له ما يتجلى به في الأرض؟

للجواب على ذلك نقول: بلى؛ فمثل نوره كمشكاة، فهو يتجلى في أيّ مكان، وأيّ موضع. ثمّ يصف السياق القرآني الكريم هذا النور فيقول: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور، ٣٥)، وهذه هي الصفات المتتالية لنور الله عزّ وجلّ عندما يتجلّى في المجتمع، وأوّل هذا التجلّي يتمثل في مشكاة النبوة في شخص رسول الله محمد ﷺ، فقد كان النور في قلبه ﷺ، نور النبوة الذي أودعه الله تعالى في ضمير هذا الكائن الطاهر المطهّر الذي يفيض حناناً وحباً واشعاعاً.

وعلى هذا فإن الرسول ﷺ مشكاة. علماً إنّ المعنى اللغوي لهذه الكلمة هو الثغرة التي كانت تصنع في الجدار، ويوضع فيها المصباح. وكلمة (مشكاة) من الشكّ الذي يعني التقسيم. أمّا المصباح فانّ المراد منه النبوة، وهذه النبّوة (المصباح) مودعة في

قلب الرسول ﷺ الذي يمثل الزجاجة، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾، ولولا هذه الزجاجة لكان مصير ذلك النور الخمود والتلاشي.

ترى من هو ذلك الانسان الذي حافظ على نور النبوة، وأدّى الى أن يستمّر هذا النور ويبقى؟

لا شك أنه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. فكما أن الزجاجة تحفظ المصباح من الرياح، والعواصف الهوج، فكذلك علي بن ابي طالب عليه السلام، فقد صان النبوّة والرسالة بسيفه وخطبه ومواقفه، بل بكل وجوده، وهو الذي جعل هذا النور يستمّر في الاشعاع.

ثم يقول ربنا عزوجل: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. والمراد من الكوكب الدرّي فاطمة عليها أفضل الصلاة والسلام. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وبالطبع فقد وردت في تفسير آية النور عدّة روايات، وقد جاء عن أحد الأئمة عليهم السلام قوله إنّ هذا النور سوف يستمّر في التجلّي والضياء حتّى يأتي اليوم الذي ينتشر فيه هذا النور فوق البسيطة كلّها على عهد إمامنا الحجة بن الحسن المهدي عليه السلام.

تجلي النور في الرجال

ثم يقول سبحانه وتعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾

(النور، ٣٦).

فلقد تجلى هذا النور في بيت، وفي عائلة، وفي ذريّة من سلسلة مباركة، وعلى هذا فانّ البيوت يجب أن ترفع لأن أنوار الله سبحانه تتجلى في هذه البيوت التي يذكر فيها اسمه الجليل، ففيها أودع علمه، ورسالته، وأمانته.

وهذه البيوت هي مرابض وقواعد لرجال تحدوا شهواتهم، وصرعوا أهواءهم، وخالفت مواقفهم مصالحهم، كما يشير الى ذلك جل جلاله في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ❁ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (النور، ٣٦- ٣٧). صحيح إنهم يشترون، ويبيعون، ويتعاملون مع الآخرين... ولكن كل ذلك لا يحجبهم عن ذكر الله تبارك وتعالى؛ فألسنتهم تلهج بذكره، وقلوبهم معمورة بحبه وخشيته، وأرواحهم تستضيء بنوره. فهم لا يفكرون عند البيع بغش أو مكر أو خداع، وعند الشراء لا تراهم يفكرون في مصالحهم، بل بمصالح الآخرين يضعونها نصب أعينهم. وهؤلاء هم الرجال المعنيون في الآية الكريمة السابقة، أما الذين يفكرون عند البيع والشراء والتعامل بمصالحهم، وينسون الخالق، ويغفلون عن ذكره وتعاليمه في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، ويتناسون العمل الجهادي، ويخلطون حقاً بباطل، فانهم لا يستطيعون - والحالة هذه - أن يرتقوا الى مستوى أولئك الرجال الذين يقول عنهم الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ (النور، ٣٧).

والسبب في ذلك أنّ البيع والشراء، والاقتصاد، والسياسة، وكلّ مظاهر الدنيا تتضاءل أمام أعينهم، لأنّها مشدودة الى ذلك اليوم الثقيل، فهم في رهبة منه عظيمة وفزع كبير كما يقول الله تعالى:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (النور، ٣٧). وفي آية من سورة الدهر نقرأ قول الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان، ٢٧).

وهذا اليوم الثقيل تنفطر له السماوات، وتنشقق له الأرض، وتندك له الجبال، فكيف الحال بنا؟

التولي قبل التبري

وقبل أن يبيّن القرآن الكريم حالة التبرّي، يوضح لنا التولّي، ذلك لأنّه قبل أن يأمرنا بأن نكفر بالطاغوت، ونقاوم الجبابرة والمستبدين، فقد أمرنا بالالتفاف حول النور والاستلهام منه، وهو نور الرسالة والوحي الذي يتجلّى في شخص الرسول الأعظم ﷺ، ومن ثم الأوصياء والأئمة الذين يمثلون الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وبعد أن يرسي القرآن الكريم قواعد الصرح الإيماني المتكامل، ينطلق ليبين الجانب السلبي الآخر، وهو جانب البراءة والتبرّي فيقول الله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(النور، ٣٩). أي إن أعمال الكافرين هي كالسراب في أرض بلقع لا ماء فيها ولا كلأ سوى السراب الذي يتجلى للناظر في الهاجرة على امتداد الأرض فيظهر وكأنّه بحيرة ماء، ولكنّهم سرعان ما يكتشفون أنّه مجرّد وهم، لأنّهم لا يمكن أن يصلو إليه مهما جروا وراءه.

وهكذا فأنّ الأعمال التي لا تكون قائمة على أساس من النور الالهي، وليست في إطار القيادة الالهية الشرعية، والمنهج الرباني في الأرض، فانّ مثلها كمثل السراب. وما أروع هذا التمثيل والتصوير، على أنّ هناك تصويراً وتمثيلاً أكثر عظمة ورهبة جاء في قول الله تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾(النور، ٤٠). فلنتصوّر هذا الموقف؛ بان الانسان الكافر مثله كمثل من يقف في قاع من البحر حُجب عنه نور الشمس فهو في ظلام دامس، وهناك أيضاً الأمواج المتراكمة المتلاطمة، فوقها سحاب أسود، والوقت ليل حالك... فالأعمال السيّئة

تجعل قلب الانسان مظلماً لا حظ له من النور، ذلك لأنّ النور من الله سبحانه، وعندما يحرم شخص من هذا النور فمن أين يأتيه؟ هذا ما يشير إليه تعالى في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

وبناء على ماسبق، فانّ هناك خطّين في الكون هما: خط الظلام، وخط النور. ونحن نجد هذين الخطين في قلب الانسان: خط الحب والمودة، وخط المقت والبغضاء، فهناك من نتولاّهم، وهناك من نحن منهم براء.

لابد من التوازن

والمشكلة المشهورة في بعض المجتمعات الإسلامية تتمثل في حدوث التولّي مباشرة دون حصول التبرّي المقابل له. فنحن نعرف أعداءنا، ونميز الطغاة بسهولة وسرعة، وهذا التبّري قد يكون دون أن نبذل أدنى جهد، ولكنّنا ـ للأسف ـ لا نعرف من الذي نتولّاه عند التولّي، ومن هم أولياؤنا الحقيقيون. وربّما لا نذعن لهذه الحقيقة، ونحتج بأننا نعرف أولياءنا جيّداً، ونتولّاهم. أقول: نعم، نحن نعرف أولياءنا، ولكّن المقصود هو أنّنا هل نمتلك العزم الكافي عند التولّي، وهل نتمتع بالارادة القوية الكافية التي تنعكس عملاً وتطبيقاً عندما نتولى من ينبغي أن نتولاهم؟

إنّ المفهوم السائد الذي له وقع كبير على نفوسنا، والذي نعيشه حالياً في بعض المجتمعات والبلدان الاسلامية هو أنّنا نهدم دون أن نفكر في أن نبني شيئاً مقابل ما هدمناه. ونحن كثيراً ما نجهل أنّ في الأرض رجالاً ينبغي الالتفاف حولهم ومبايعتهم والخضوع لهم والتسليم لأمرهم. وهذه الحالة ـ حالة جهلنا للقيادة الشرعيّة التي يجب أن نلتف حولها ونؤمن ونتمسك بها ـ هي التي أدّت وتؤدّي الى استمرار تخلفنا وتراجعنا.

الاعتصام شرط الوحدة

وعندما يأمرنا القرآن الكريم بالوحدة والاتحاد، فانّه يوجّه إلينا النداء التالي: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾(آل عمران، ١٠٣).

فهو يأمرنا ـ أولاً ـ بالاعتصام والتمسّك بالمحور الالهيّ، والالتفاف حول القيادة الايمانية، وكتاب الله تعالى ونهج رسوله ﷺ، والأئمة ﷺ، وخلفائهم الحقيقيين الذين يمثلون الفقهاء الأمناء. وهذا هو التمسك بحبل الله جل وعلا، ثم يأتي بعد ذلك النهي عن التفرقة والتشتت.

ونحن لو سبرنا جميع الأديان والمذاهب في العالم، وبحثنا في آرائها ومعتقداتها فانّنا سوف لا نجد ديناً أو مذهباً له من دقة التنظيم الايجابيّ كما هو في مذهب أهل البيت ﷺ، وهذا التنظيم يتمثل في الاتباع، والتقليد.

وللأسف فان البعض من بسطاء المسلمين يتصورون أن مسألة التقليد هي مسألة ثانوية وجانبيّة في الحياة، ولايدرك أنّ التقليد هو الأساس، فهو حلقة الوصل بالقيادة، لأنّه يعطي المنهاج الصحيح في الحياة، وينتشل الأمّة من واقع الفوضى والتمزّق، الى واقع النظام والوحدة. فهو من الخصائص الحميدة التي من الممكن أن تتصف بها الأمة. فعندما يأمر الاسلام ـ وخصوصاً مذهب أهل البيت ﷺ ـ كل إنسان اتخذ الاسلام ديناً، بالبحث بكل دقة عمّن يقلّد من المجتهدين الجامعين للشرائط، فانّه يعمل ـ في الحقيقة ـ على تنشيط عقول الناس، وتحريكها.

وعلى هذا الأساس فانّ من فضائل الاسلام، ومذهب أهل البيت ﷺ، أنّه جعل المسلمين كلّهم مسؤولين عن أمّتهم وواقعهم، فيكون بذلك مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1]. وهذا هو الأمر الذي يصدع به القرآن الكريم حيث ينادي قائلاً: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾(الصافات، ٢٤).

١ - بحار الانوار، ج٧٢، ص٣٨.

وبناء على ذلك فانّ الإبن عندما يبلغ سن الرشد، وتبدو عليه علامات البلوغ، وكذلك الحال بالنسبة الى الفتاة، فانهّما يكونان مسؤولين حالهما كحال أي عالم كبير في البلد، فيجب عليهما أن يسألا، ويستقصيا من ذوي العلم، والخبرة والدراية، أو يميّزا بأنفسهما إن كانت لديهما القدرة على التمييز.

والى تلك الأسباب وغيرها فانّ الدين الاسلامي هو الأرقى والأقوم لما يتمتع به من دقة التنظيم، فنحن لا يمكن أن نجد دستوراً، أو مذهباً، أو قانوناً حضارياً متطوّراً كما هو الحال بالنسبة الى دستور الاسلام، وخصوصاً قانون الاتباع والتقليد، فهو - أي قانون التقليد - يمثل دستوراً راقياً ومتطوّراً للغاية، لأنه يجعل كل فرد في المجتمع الاسلامي - صغيراً كان أم كبيراً، عالماً أم جاهلاً، رجلاً أم إمرأة - أناساً مسؤولين عن واقع أمتهم، واختيار القيادة الرشيدة، وهذا هو المقصود بالتولّي.

وللاسف فانّ البعض منّا يكتفي من التأريخ بقراءة جانبه السلبي؛ فتراه - مثلاً - يلعن يزيد، ومعاوية، وآل أبي سفيان، لكنّه ينسى أنّ هناك ما يقابله وهو جانب السلام والتحيّة على أنبياء الله عليهم السلام، والأئمّة المعصومين عليهم السلام، وأصحابهم، وأوليائهم، وخلفائهم؛ أي جانب التولي، ذلك لأن لهؤلاء امتدادهم.

تولي المؤمنين

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن علاقاتنا مع المؤمنين. فالمؤمنون اخوة، ولا يحق لي أن أنام الليل وأنا على بغض لأحد المؤمنين. وهذه هي أخلاقية التولّي التي أودعها الاسلام لدى المؤمنين به، فقد أمرنا أن نتولّى كل إنسان مؤمن في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة،٧١)، ولكن الشيطان الرجيم- للأسف الشديد - يتغلغل في نفوس بعضنا، ويوسوس في قلوبهم، الأمر الذي يجعل نظرية التقليد، والإمامة الاسلامية، والوحدة الايجابية معرضاً لمجموعة من الشكوك

والظنون والأفكار والتبريرات السلبيّة، لأنّ الإنسان - في هذه الحالة - سوف لا يستطيع التمييز بين أصحاب الحق، وأصحاب الباطل، ويعيش على هذا الحال، ويموت - بالتالي لا سمح الله - ميتة جاهلية كما يشير الى ذلك الحديث الشريف في قوله:

«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة».[1]

كما جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: **«لو لم يبق في الأرض إلا إثنان لكان أحدهما الحجة على صاحبه»**[2].

أي إنّ احدهما إمام والآخر مأموم. وهذا يعني أنّ الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يخلي الأرض من إمام، فلابد أن يتواجد من يبيّن معالم الدين ليرجع الناس إليه.

التقليد والمرجعيّة أمانة

وعلى هذا الأساس فانّ قضية (المرجعية والتقليد) هي أمانة الله جل وعلا في رقابنا، فلا يجوز لنا أن نمس أيّ عالم مخلص بكلام يسيء إليه، لأن الله سوف يحبط جميع أعمالنا في هذه الحالة. فالمطلوب منا أن نتولّى، ونبيّن الصفات المثالية الحميدة لدى العلماء، أما أن نفعل العكس من ذلك فانّ هذا السلوك هو الذي سبّب تدمير مجتمعنا بحيث أصبح مجتمعاً متمزقاً متفرقاً يعيش كل شخص فيه داخل اطار ذاته ولذاته، وهذه هي الحالة السلبية المتدهورة.

فلنحاول جميعاً أن نقرّر تبنّي الجوانب الإيجابية فحسب، وندع جانباً الجوانب السلبيّة، لنرى كيف أنّ الله سبحانه سوف ينزل علينا نصره، ويغيّر حياتنا نحو الأفضل.

١- وسائل الشيعة، ج٦٦، ص٢٤٦.

٢- بصائر الدرجات، ص٤٨٧ - ٤٨٨.

من أعظم الكرامات الالهية والسنن الربانية على الخلق ، هو أنّ الله سبحانه وتعالى عرفهم بتلك المنازل العظمى ،والمراتب الرفيعة التي مهّد السبل لهم لكي يبلغوها ، ولولا هذا التمهيد لضل الانسان ، وظل يتردّد في التيه والضياع والحيرة غارقاً في بحر من الظلمات المطبقة.

وهكذا فانّ الله جل وعلا خلق هذا الانسان الضعيف ليعلم ويدرك إنّ بامكانه أن يسمو عالياً ، ويرتفع في هذه الحياة الدنيا بعد أن يترفع عن الأمور الدنيئة ويرقى حتى يكاد يبلغ درجة النبيين .

والمرسلون والأنبياء ﷺ أجمعون قد استطاعوا أن يبلغوا تلك المنزلة السامية التي ليس بعدها منزلة ، وهم بشر مثلنا يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق، فدنوا من حضيرة القدس الإلهي ، حتى أن الله جل وعلا وصف تلك المنازل والدرجات القدسية التي بلغها الأنبياء والمرسلون بتعابير شتى في كتابه الكريم ؛ فمرّة يتخذ بعضهم خليلاً ، وبعضهم يكلمه تكليماً ، وآخرون يرفعهم الى مقام محمود ..

قدرة الانسان على التكامل

ولعمري فانّ الانسان لا يستطيع أن يبلغ بعقله المحدود فهم ودرك تلك الدرجات العلى مهما أجال تفكيره ، وسبر أغوار الفهم والتدبر.

وبذلك يتبين مدى الانعام والاكرام الالهيين لبني آدم بأن دلهم وعرفهم على كيفية الوصول الى المقامات السامية ، والدرجات المرموقة ..وفرصة هذا السعي هي هذا العمر الذي وهبه الله تعالى للانسان .ففي هذه الفترة الزمنية القصيرة يمكن

للانسان أن يحقق في محطات معينة قفزات كبيرة ، وطفرات شاسعة في سلم العلى لبلوغ المرتبة العليا والمقام السامي ؛ فمن خلالها بمقدور الانسان أن يختزل طول تلك الفرصة التي قد تفوته في كثير من الأحيان بفعل النفس الأمارة بالسوء ، والأهواء والشهوات ، ووساوس شياطين الانس والجن . فتلك محطات في الزمن تتكرر في كل دورة من أعمارنا ، يكفّر فيها الانسان عن ذنوبه ، ويطهر نفسه بالتوبة والعودة الى الصراط المستقيم ، وسبيل الصالحين والصديقين .

الإمام علي عليه السلام منار التكامل

ولنا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قدوة حسنة لبلوغ الدرجات الرفيعة والمنازل السامية..

فلنتجّول معاً في عالم الإمام علي عليه السلام ،وفي رحابه ، وأجوائه الربانية العطرة ، حيث السمّو والإباء والزهد والعبادة والجهاد.. وقبل كل شيء الى حيث التقوى وخشية الله تعالى ، وأمّا العدالة فهو عليه السلام جسدها النابض .

فلنرسم في أذهاننا صورة الإمام علي عليه السلام ولنعمل بجد على الاقتداء به .

صحيح أنه من المستبعد أن نبلغ درجة الإمام علي عليه السلام ومنزلته المتميزة مهما جهدنا أنفسنا في البحث عن شخصيته ،وخصاله ، ومناقبه ، وفضائله ، وجهاده ، وتقواه ، وعوالم إيمانه وتعبّده ، ممّا لا يمكن للمجلدات أن تحصيه فضلاً عن هذه الأسطر القليلة .

نعم ، يمكننا أن ننال شيئاً من ذلك القطاف الإيماني ، وتلك الدرجات من التقوى وأن نبلغ بها الدرجات العلوية السامية ، وما ذلك بالعجز لو كانت هناك الارادة والمشيئة الخيرة في أنفسنا ، و التصميم والعزم .

ثم إننا يجب أن لاندع مجالاً للاحباط في أن يدخل الى نفوسنا، بأن نوحي إليها بأنّ من المستحيل علينا بلوغ تلك الدرجات والسمو إليها.

فلننبذ الشك عن انفسنا جانباً ، فالله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة ، ١٠٥) .

الولادة الجديدة

إنّ الانسان من الممكن أن يولد ولادة جديدة شريطة أن يتمكن من التوبة ، وأن يعاهد نفسه عليها ، وأن تكون توبة صادقة تنعكس على مسيرته المستقبلية بعد أن يزيل عن نفسه ركام الخرافات، ومخلفات الماضي ، والافكار المنحرفة ، والسلوك السلبي الذي كان ينتهجه في السابق ، ثم يبدأ من تلك اللحظة التي قطع العهد فيها على نفسه بالتوبة فيحيى حياة جديدة ؛ وعندئذ يكون بامكان هذا الوليد الجديد المتمّرد على الماضي ، والثائر على شيطان الهوى والشهوات أن يبدأ المسيرة الصالحة من جديد بعد أن يرسخ ثقته بالله العزيز ، ويتوكلّ عليه . وهذا ما يؤكده الحديث الشريف الذي يخاطب فيه النبي ﷺ الإمام علياً عليه السلام قائلاً : **« يا علي، شيعتك هم الفائزون يوم القيامة ، فمن أهان واحداً منهم فقد أهانك ، ومن أهانك فقد أهانني، ومن أهانني أدخله الله نار جهنّم خالداً فيها وبئس المصير».**[1]

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : بينا رسول الله ﷺ **في نفر من أصحابه ، فيهم علي بن أبي طالب** عليه السلام **، فقال : يخرج قوم من قبورهم وجوههم أشد بياضاً من القمر ، عليهم ثياب أشد بياضاً من اللبن ، عليهم نعال من نور شركها من ذهب ، فيؤتون بنجائب من نور ، عليها رحائل من نور ، أزمتها سلاسل من ذهب ، وركبها من زبرجد ،**

١- الأمالي للشيخ الصدوق ، ص ٦٦

فيركبون عليها حتى يصيروا أمام العرش والناس يهتمون ويغتمون ويحزنون، وهم يأكلون ويشربون .

فقال علي ﷺ : من هم يا رسول الله ؟

فقال : أولئك شيعتك وأنت إمامهم .[1]

وروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال : كنت ذات يوم عند النبي ﷺ إذ أقبل بوجهه علي بن أبي طالب ﷺ ، فقال : الا ابشرك يا أبا الحسن ؟

قال : بلى يا رسول الله .

قال : هذا جبرئيل يخبرني عن الله جل جلاله أنه قد أعطى شيعتك ومحبيك سبع خصال : الرفق عند الموت ، والانس عند الوحشة ، والنور عند الظلمة ، والأمن عند الفزع ،والقسط عند الميزان ،والجواز على الصراط ،و دخول الجنة قبل الناس ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.[2]

يا علي ، إنّ شيعتك مغفور لهم على ما كان فيهم من ذنوب وعيوب .

يا علي ! أنا الشفيع لشيعتك غداً إذا قمت المقام المحمود، فبشرّهم بذلك .

يا علي ، شيعتك شيعة الله، وانصارك أنصار الله ، وأولياؤك أولياء الله ، وحزبك حزب الله.

يا علي، سعد من تولاك ، وشقي من عاداك .

يا علي، لك كنز في الجنة أنت ذو قرنيها.[3]

وبعد فهذا هو اليسير من الكثير المروي عن النبي الأعظم ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام في فضل الإمام علي ﷺ وفضل شيعته . والأمر المهمّ في ذلك أن نعطي إجابات واضحة ومحددّة لتساؤلات من مثل : من هم شيعة الإمام علي ﷺ الذي عنتهم تلك

١- المحاسن، الشيخ البرقي ، ج ١ ، ص ١٧٩

٢- الخصال، الشيخ الصدوق ، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

٣ - الأمالي، الشيخ الصدوق ، ص ٦٦ ـ ٦٧.

المجموعة من الأحاديث الشريفة ، وهل كلّ من ادّعى حب وموالاة الإمام عليّ عليه السلام سيصبح كذلك بمجرد هذا القول والادعاء ؟

الانسان سجين ذاته

قبل أن نعرف حقيقة شيعة الإمام علي عليه السلام ، ونحددّ هويّتهم ، لابد من أن نمهد لذلك بالقول : إنّ الانسان وانطلاقاً من طبيعته كثيراً ما يكون أسير ذاته ، وسجين نفسه الأمارة بالسوء ، والأهواء والشهوات الرخيصة . ومن المعلوم إنّ زنزانة الذات مظلمة ضيقة تجثم على الماكث فيها ، ولذلك فانّ تحطيم قضبانها ، والتحرر من أسرها ، ليس بالأمر الهيّن ، والعمل البسيط ، بل إنّه عمل صعب مستصعب يحتاج الى بذل تضحيات وجهد جهيد ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩) .

وإذا ما جمعنا بين الآية السابقة التي جاءت في سورة الحشر ، وبين معاني الأحاديث الشريفة السابقة ، ومنها قول النبي صلى الله عليه وآله : « **يا علي ، شيعتك هم الفائزون** » ، وإذا علمنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى علمّه شديد القوى ، فماذا يعني ذلك ، وما هي النتيجة المستخلصة ؟

السبيل الى الحريّة

إنّ معنى ذلك أن الذي يدعيّ التشيع والولاء والحبّ للإمام علي وأهل بيته عليهم السلام لابد له قبل كل شيء أن يسقط الأنانية في نفسه ، وأن يخرج من تلك الحدود الضيقة التي تعتقله ؛ من حدود الذات ، والنفس الأمارة ، وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بـ « شحّ النفس » في الآية السابقة ، فكيف لنا - يا ترى - أن نتقي شح النفس هذا ؟ وبتعبير آخر : كيف السبيل الى الخروج من إطار الذات الضيقة ، والنفس الشحيحة

الأمارة بالسوء ؟ وكيف يصبح الانسان حراً بالمعنى الحقيقي والمقدس للحرية ، فينطلق في رحاب الحقيقة القدسية ، وعالم التكامل والسير نحو الكمال المطلق المتمثل في الله سبحانه وتعالى ؟

قبل كل شيء لابد أن نعلم أن النفس الأمارة بالسوء هي أعدى أعداء الانسان ، وهي التي جرّت وساقت الكثير من الأمم الغابرة والحاضرة الى المصير الاخروي المخزي ؛ الى نار جهنّم وبئس الورد المورود، وهذه النفس هي التي نخوض معها صراعاً مريراً ؛ فإمّا أن نتغلب عليها ، ونطرحها في الهاوية السحيقة ، وإمّا أن ننتصر عليها بالتضحية والإيمان والتقوى وعمل الصالحات والصبر على الشهوات. والله جل وعلا يوّجهنا في هذا الصراع مع النفس في آيات كثيرة من مثل قوله : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر، ٩٩).

الولاية سبيل التحرّر

وبناء على ذلك فانّ الولاية هي السبيل الى التحررّ من النفس وأهوائها ، والولاية التي أريد تسليط الأضواء عليها هنا تتضح من خلال مخاطبتنا للانسان المسلم قائلين له : إنّك عندما تقارن نفسك وما أنت عليه من وضع في هذه الحياة بكل نواحيها من حيث الإيمان، والتقوى ، والتضحية ، والإيثار ، والجهاد ، والخلق النبيل ، والتعامل السليم مع أبناء أمتك ، وما الى ذلك ممّا يصوغ شخصية الإنسان؛ أقول : عندما تقارنها مع تلك الشخصية التي اختارها الله تعالى ، فانّك ستشعر بعظم وبعد المسافة بينك وبينها ، وستفقد الإحساس بوجود نفسك وشخصيتك ، وعندما تفيق من شدة الهول تبادر الى القول إجلالاً وتعظيماً لتلك الشخصية : « فداك أبي وأمي».

فماذا يعني تريدنا لهذا القول ؟ ألا يعني أنه بداية الانطلاق ، والتحرر من النفس؟ ألا يعني أنك تكسر قضبان أسرها ، وبدأت تخرج من معتقل الذات الى رحاب النور والحقيقة؟

الولاية محور الرسالات الالهية

ومن ذلك يتضح لي بمقدار تدبري في معاني القرآن الكريم ، إن المحور الأساسي الذي اختلف حوله الأنبياء مع أقوامهم ، وخاضوا غمار الجهاد مع الأمم وطغاتها ، هو محور الولاية . فالأمم كانت تتقبل عبادة الله سبحانه ولكن مع الشريك ، فكانت تجمع الى عبادة الخالق عبادة الأوثان والطواغيت في آن واحد ، وكانت تؤمن بالشرك من حيث الطاعة ، والتوجه ، والانقياد . صحيح إنها كانت تعبد الله سبحانه في المسجد أو الصومعة ، لكنها كانت ـ في ذات الوقت ـ تعبد الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء . فكانت تسبح لله في المعابد وفي نفس الوقت تسبح بحمد الطاغوت في مواقف السياسة ، وتتوجه في سلوكها ونشاطها انطلاقاً مما ترسمه لها الأهواء والشهوات . وهذا هو أساس ومكمن الانحراف الذي نهى الله تعالى عنه ، عندما دعا الناس الى التوحيد ، وحذرهم من الشرك ؛ هذه الدعوة التي تتجسد في كلمة هي (الولاية) .

ومما يجدر ذكره إنّ مسألة الشرك ليست هينة ، فكل مصائب البشرية ، ومعاناتها تمتد جذورها الى داء الشرك المتأصل في النفس الانسانية ، والى تلك العقدة الكامنة في داخل الانسان ، وهي رفضه التسامي على الذات ، ورفضه الخروج من هذه الزنزانة الضيقة ، والانطلاق الى رحاب النور الواسع ، وعوالم الهداية . فالانسان الرافض للولاية والولاء يريد دائماً أن يبقى قابعاً في إطار النفس ، وحدود الذات .

الولاية معراج الى الجنة

ومن كل ذلك يتبيّن لنا معنى الولاية ، وكيف أنّها تعرج بالانسان الى تلك الدرجات العلوية ، والمنازل الرفيعة التي أشارت إليها الأحاديث السابقة . فالولاية هي المعراج الى الجنة والنعيم والرضوان في جوار الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الكرام عليهم السلام وجميع الأنبياء والرسل والصالحين في التأريخ .

فهذا هو المعنى الحقيقي للولاية ، فهي المعراج الى الجنة بعد أن تكون معراجاً الى الفضيلة والنبل والخلق الرفيع والتخلق بأخلاق الأنبياء والأئمة عليهم السلام .

ويبقى لنا ـ حينئذ ـ أن نقرر ؛ هل نسلك هذا المعراج أم ندير أظهرنا عنه ؟ وهذا القرار بحاجة الى همّة وعزم وتفكر وتدبر في ذلك النور الوضّاء .

والطريق ما يزال مفتوحاً أمامنا ، فليكن سيرنا باتجاه عالم النور ، وذلك الطريق المفتوح ، والسبيل الممهد ألا وهو الولاية . علماً إنّ الولاية واحدة ؛ ففي ولاية الإمام عليّ عليه السلام تكمن الولاية للرسول ﷺ وسائر الرسل والأنبياء عليهم السلام ؛ وهي بكلمة مختصرة الولاية الحق للحق ، وهذه معادلة واضحة المعالم . فما دامت الولاية يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى وهو الحق ، فهي ـ إذن ـ للحق . ومادام الإمام علي عليه السلام مع الحق ، والحق معه أينما دار دار معه ، ومادامت الولاية للرسالة والقرآن ، والإمام علي مع القرآن والقرآن معه.. فالولاية ـ إذن ـ للإمام علي عليه السلام ، ومن ثم للأئمة من ذريته عليهم السلام ، لأنّهم يمثلون امتداد نهج الإمام عليّ عليه السلام الذي هو امتداد الرسول الأعظم ﷺ ونهجه ونوره .

الولاية كلّ لا يتجزأ

وعلى هذا الأساس فانّ الولاية كلّ لا يتجزأ ؛ فأنت عندما تدعيّ الولاية ولكنّك لا تضمر الولاء لشيعة الإمام علي عليه السلام ، فانك تكون ـ عندئذ ـ قد عملت على نسف

هـذا الـولاء مـن أساسـه . مـادام معنى الولايـة يتجسد قالباً في الترفـع عـن الـذات ، وزوال الأنانية من النفس . فمن غادر دنيا الـذات المضيقة ، وخـالف أهـواء الـنفس ، وقمع وساوسها الشيطانية ، فهذا يعني إنّه صـار محبّاً ، ومواليـاً ، وأخـاً لكـل إنسان مؤمن .

ومن هذا المنطلق ورد في مجموعة الأحاديث الشريفة إنّ محبّة الشيعة الموالين إنّما هـي من محبة أهل البيت عليهم السلام ، حيث روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ أنه قـال : « **يا علـي ، أنـت مني وأنا منك ، وروحك من روحي ، وطينتك من طينتي ، وشيعتك خلقـوا مـن فضل طينتنـا ، فمـن أحـبهم فقـد أحبنـا ، ومـن أبغـضهم فقـد أبغـضنا ، ومـن عـاداهم فقـد عادانا ، ومن ودهم فقد ودنا** »[1] .

فالقضيّة ـ إذن ـ عبارة عن سلسلة متصلة ، فليس من القبول حكماً وعقلاً أن نعبد الله تعالى ، ثم نكفر برسوله ، أو نطيع الرسول ثـم نعـصي أوليـاءه وخلفـاءه الاثـني عشر المعصومين .

الولاية أساس السيرة الحياتية

فالولايـة ـ إذن ـ تبقـى محـور وأسـاس المسيرة الحياتيـة ، ونحـن لـو أدركنـا وعرفنـا أهميتهـا وقيمتهـا الحقيقيـة ، لأصـبحت سـلمنا ومعراجنـا الى عـوالم النـور الربانيـة ، وطريقنا الى الجنة بعد أن تنتزع وتزيل من قلوبنا وأنفسنا الـداء الـذي يحـول بيننـا وبـين الجنة ونعيمها ، ألا وهو (الكبر) أعاذنا الله منه .

والولاية ـ بالتالي ـ تسير بنا نحو الحق على الصراط المستقيم الـذي لا عـوج فيـه ، والله سـبحانه أراد ـ إرادتـه الحق ـ أن توجـد في خلقـه عـبر التـولي والولايـة الحقـة فئـة متميزة متفوقة يكون وجودها ـ بذاته ـ حجّة على سـائر النـاس والأمـم ، وهـي الفئـة

---

١ - الأمالي للشيخ الصدوق ، ص ٦٦

التي أطلق عليها النبي الأعظم ﷺ اسم (الشيعة) الذين يمثلون الموالين حق الولاء للنبي ﷺ واهل بيته الأطهار ﷺ اعتباراً من أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب ﷺ وحتى الإمام الحجة المنتظرعجّل الله تعالى فرجه الشريف ، الذي سوف تتجسّد في شخصيته العظيمة الفذة ولاية جميع الأنبياء والرسل على مرّ التاريخ ، والذي سيعطي للولاية معناها الحقيقي في آخر الزمان ، وسوف يكون المحك الذي يميزّ بين الموالين الحقيقيين وبين المتسترين تحت قناع الولاية.

من أراد الضياء لا يحطم مصباحه ، ومن أراد الشراب الطهور لا يحطم اناءه ، ومن أراد الإسلام لا ينكر الولاية ، والله نور السماوات والارض ولكن هذا النور إنما ينبعث عبر مصباح ، ومن دون هذا المصباح كيف يجتمع النور. فالضياء النافع هو الذي يكون في مصباح ويكون عبر مشكاة، لذلك قال ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (النور، ٣٥).

الولاية حدود الدين

وهكذا الحال بالنسبة الى الدين فهو كالضوء، فمن دون وجود حدود تحافظ على الضوء كما يحافظ المصباح عليه، فان نوره سيذهب هدراً. ومن دون وجود حدود للدين، فانّ هذا الدين سوف لا يجدي النفع المرتجى منه .

والولاية هي تلك الحدود ، فهي تحافظ على مفردات الدين وعلى ما فيه من مثل وقيم وأحكام وشرائع وأخلاق وما الى ذلك ، تجمعها في كتلة واحدة لينتفع الناس من الدين .ولذلك كانت آية الولاية آخر آية نزلت في القرآن الكريم ، ألا وهي آية البلاغ المتمثلة في قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة، ٦٧). لأنّ ختام هذا مسك .

الولاية مائدة سماوية

ولندرس في هذا المجال سورة المائدة ، علماً إنّ المائدة تعني النعمة الالهية التي يجتمع عليها الناس ، وقد سميت آخر سورة بـ « المائدة » لأنها سورة الولاية ، وهذه الولاية تجمع الناس لأنها مائدة سماوية . ونحن إذا تدبرنا في آيات سورة المائدة وجدناها تتحدث عن الولاية ، ومنها الآيات التي نزلت قبل أن يبين القرآن الكريم فكرة وبصيرة الولاية . فالله سبحانه وتعالى يحدثنا عن ارتداد قوم في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة ، ٥٤)

والآية التالية لها تقول : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ (المائدة ، ٥٥).

ومن خلال المقارنة بين هاتين الآيتين نستطيع أن نفهم لماذا يحدثنا القرآن أولاً عن الارتداد ، ثم يحدثنا عن الولاية . فهو يريد أن يحذرنا ، لأن كثيراً من الناس لا يتحملون الولاية ، فهي أمر صعب مستصعب ، كما يقول الإمام علي عليه السلام : « إنّ **أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد امتحن الله قلبه للإيمان** »[1] .

الولاية من عند الله

وبناء على ذلك فانّ قضية الولاية هي قضية عجيبة وثقيلة لا يتحملها الانسان العادي ، بل حتى كثير من المؤمنين ، فمنهم من يرتدّ عندما يسمع بها. أما إذا صمد

١ - نهج البلاغة ، الشريف الرضي ، خطبة رقم ١٨٩ .

الانسان وتحملها ، فانه سوف يستطيع أن ينزع جلبات الكبر ، والحسد ، والحقد ، ويعترف بعبوديته لله سبحانه وتعالى ، ويطيعه في جميع أوامره .فكما إنّ الله أمره أن يطيع الرسول ، فانّه أمره أيضاً أن يطيع وليه والإمام من بعده .

فالطاعة - إذن - هي أمر الهي ، وعلينا أن نسلم أمرنا لأولئك الذين يصلون الى درجة الولاية ، علماً إنّ هؤلاء المطيعين لهم درجات رفيعة ، ومن درجاتهم أنهم يصلون الى مستوى الحبّ المتبادل بينهم وبين رب العزة والعظمة . فلقد أمعنوا في الارتقاء حتى وصلوا الى مستوى حب الله ، والله تعالى يحبّهم لأنهم هم الذين بادلوه الحبَ في البدء ؛ فقد كانت أعمالهم مرضية ، ونفوسهم زكية ؛ فأحبهم الله عزّ وجلّ ، وعندما أحبهم أودع نور الولاية في قلوبهم .

ومن صفاتهم الأخرى أنّهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(المائدة : ٥٤).

فالواحد منهم لا يرى لنفسه ميزة أمام أخيه المؤمن ، فهو يتواضع ويذلل نفسه له ، وفي المقابل فانّ هذا المؤمن عندما يواجه الكفار نراه يحمل نفساً عزيزة ، ومتعالية ، ويقف ازاءه وقفة الشموخ والعزة .

وهكذا فانّ القرآن الكريم يبين لنا بوضوح تلك الصفة ، ويجعل أقل الناس معرفة يفهمون الحقيقة. فليست هناك حاجة لأن يقدم لنا حسابات ومعادلات رياضية معقدّة ، بل يقول لنا باختصار ووضوح : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. والذي لا يمتلك هذه الصفة فانه يفقد الولاية حتى وإن ادّعاها ليل ونهار . لأنّها لا تنبت في قلب متكبر ، فهي نور والله جل وعلا لا يعطي نوره للانسان المتكبّر الذي لا يترك في قلبه مجالاً للرحمة ، والحب ..

وبالطبع فانّ الانسان إذا أصبح عزيزاً على الكافرين ، فانّ هؤلاء الكافرين سوف لا يقفون مكتوفي الأيدي ، بل سيبادرون الى محاربته ، والانسان المؤمن سوف

يجاهدهم بدوره بنفس مبتهجة ، ولذلك يقول ربنا عزّ وجلّ : ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍ ﴾ (المائدة ، ٥٤) .

وبناء على ما سبق فانّ نور الولاية هو نور الهي ، وإذا لم نحصل عليه في هذه الدنيا فانّ الله تعالى سوف يعطينا إياه في الآخرة من بعد تصفية قلوبنا ، لأن الانسان المؤمن لابدّ أن يطهّر قلبه قبل أن يدخل الجنة من خلال التعرض للبلاء في الدنيا أو عند سكرات الموت أو ضغطة القبر.. فلنصف قلوبنا منذ الآن بأن نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على أنفسنا .

ثم يقول الله سبحانه ، مستأنفاً حديث الولاية : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ (المائدة ، ٥٥ ، ٥٦) وقد خصت هذه الآية الكريمة أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ونحن نعتزّ ، ونحمد الله سبحانه وتعالى بأن هدانا الى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام .

هل اكتملت الولاية في أنفسنا ؟

والسؤال المهّم المطروح في هذا المجال هو : هل اكتملت الولاية في أنفسنا ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول : إنّ الولاية لا تكتمل بمجرد أن نقول - مثلاً - أشهد أنّ علياً وليّ الله ، بل يجب أن تمتد هذه الولاية حتى تصل الى يومنا هذا . فالذي يقرأ التاريخ دون أن يطبقه على الواقع الراهن لا يؤمن بالتاريخ ، والذي يؤمن بالحاضر دون أن يربطه بالتاريخ لا يؤمن بالحاضر. فالانسان إنّما يعيش ضمن سلسلة من الأولين الى الآخرين .

فقدان اطار الولاية سبب مآسينا

إنّ ظلامة الشيعة عبر التاريخ هي ظلامة الأئمة عليهم السلام ، وظلامة الصديقة الطاهرة عليها السلام التي كانت وما زالت راية يحارب تحتها كل ثائر ، وتقام حكومات في البلاد الاسلامية باسمها ، فلماذا لم ينتفع المظلومون في العالم وخصوصاً الموالين لأهل البيت عليهم السلام من هذه الراية ، ولم يستغلّوا هذه الفرصة ؟

الجواب : لأنهم فقدوا إطار الولاية . فالقران هو نور الله تعالى والثقل الأكبر . ولكننا وضعناه - للأسف - على الرفوف ، ولم نستفد من نوره ، لأننا لم نجعل هذا النور في مصباحه ، ونحن إذا أردنا أن نكون أولياء أمير المؤمنين عليه السلام حقاً فيجب أن نتمسّك بحبل الولاية الحقيقي .

فالولاية ليست لقلقة لسان ، بل إنّها تجمع المؤمنين تحت اشراف الفقهاء العدول الذين يأخذون الشريعة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله من أمير المؤمنين وأبنائه الأئمة الهداة عليهم السلام ثم نتحرك في الواقع بهذه الشريعة .

ضرورة معرفة الولاية

وهكذا فانّ حقيقة الولاية تتمثّل في أنها مواقف حياتية واضحة بين الحق والباطل ، فاذا فصل بين الحق والباطل فيجب علينا أن نقف مع الحق . وهنا تعطي الولاية معناها الحقيقي . ولذلك فانّ علينا أن نرجع الى الفقهاء ونسألهم : في يد من الراية اليوم لكي نتمسّك بها ؟ ذلك لأنّ تفسير وتأويل القرآن لديهم ، وبالتالي فانّ مجموعة القيم الدينية لابد أن تنتظم تحت راية الولاية لكي تخلق هذه القيم انتصاراً في العالم ، وإلّا فان مشاكلنا سوف تبقى ، وتبقى بلداننا كما هي ، وتبقى حكومة الظالمين مسيطرة علينا ، لأننا لم ننتفع من نور الولاية الذي يجب أن يمتدّ من الإمام علي عليه السلام مروراً بالأئمة من ولده عليهم السلام ، وحتى ولاية الإمام الحجة المنتظر عجل الله فرجه الشريف ، وولاية المؤمنين بعضهم لبعض .

الولاية جوهر العبادات وروحها

على الرغم من أنَّ الصلاة هي جسد العبادة وهيكلها الماثل ، وأنّ الصيام هو إطار الطاعة ، إلا أنّ معيار العبادة الحق ليس بكثرة الصلاة والصيام ، بل يكمن في روحها وجوهرها .

وروح العبادة وجوهر الطاعة يتمثلان في الإيمان والتسليم المطلق لله سبحانه وتعالى ، وهذان الأخيران إنما يكمنان في الطاعة والتسليم لتلك النخبة المطهرة التي أمر الله تبارك وتعالى بوجوب الطاعة والتسليم لها ، ألا وهم الرسل والانبياء والأئمة المعصومون عليهم السلام .

ولذلك فانّ من يروم ويبتغي أن يكون أعبد الناس ، فلا بدّ له من أن يكون أكثرهم معرفة وادراكاً وإيماناً بحقيقة الولاية الالهية ، لأن الثواب والأجر يرتبطان بدرجة هذه المعرفة ، والإيمان بهذه الحقيقة ؛ فإذا ما كانت تلك المعرفة والإيمان ضحلين ساذجين كان الأجر قليلاً ضحلاً.

وبناء على ذلك فانّ الركعتين من الصلاة التي نؤديها يختلف أجرهما وثوابهما من شخص الى آخر تبعاً لمستوى تلك المعرفة والإيمان ؛ فشتان ما بين صلاة يؤديها انسان لا يعرف ولا يفهم منها سوى القيام والقعود والسجود وترديد بعض السور والآيات وعبارات التسبيح والحمد دون التعمق في معانيها ، وبين صلاة يؤديها ذلك الانسان العالم العارف الذي يفقه ما يقوله ويردده في صلاته.

وهكذا الحال بالنسبة الى معرفة الإمام ، وإدراك حقيقة وجوهر الإمامة . فمن الناس من تسأله عن ماهية الإمامة وأهمية الإمام ، فيجيبك بأنّ الإمام رجل عالم رزق معرفة بعض المغيبات ، والى هذا الحد ينتهي فهمه للإمامة والإمام ؛ ومثل هذا

الانسان يختلف، ويفترق كلياً عن ذلك الذي عرف الإمام حق المعرفة ، وأدرك عظمة الإمامة وأهميتها.

فلابدّ - إذن - إذا أردنا نيل الثواب والأجر الإلهي الكبير من أن نسعى لتكون طاعتنا عميقة ، جوهرية ، خالصة ، ملأى بالروح والمعنوية العالية ، ولنجعل صلاتنا التي نصليها لله تعالى ترتفع وتسمو فيتقبلها منا ، ويثيبنا عليها بذلك الثواب الذي نطمح الى الظفر به ، ولنؤدّ تلك الصلاة التي تكون سبباً لدخول الجنّة . فركعتان خالصتان كل الخلوص لله عزّ وجلّ من الممكن أن تكونا مفتاحاً لدخول الجنة.

الولاية روح الصلاة

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : ترى ماذا نعني بروح الصلاة وجوهرها الذي يجب أن يتوفّر في صلاة الانسان المؤمن لكي تتقبّل منه ، فيتقرّب بها الى الله سبحانه ؟

لا شك إنّ هذه الروح والجوهر هما الولاية ؛ فروح الصلاة تعني أنّ الإنسان عبد خاضع ، ومسلّم لأمر الله عزّ وجلّ ، علماً إنّ كل مفردة من هذه المفردات ليس من الهيّن الأخذ والعمل والاتصاف بها كما قد يتصوّر البعض . فالربوبية ، والخضوع ، والتسليم هي تتجلّى عظمتها عند المواقف التي يمحص فيها الانسان المؤمن ، ولذلك كان أعظم ما وصف به رسول الله ﷺ هو الشهادة له بأنّه عبد الله .

التسليم من أركان الإيمان

ولو تناولنا مفردة التسليم بالبحث لوجدنا أنّ هذه الصفة هي ركن عظيم من أركان الإيمان . ذلك لأنّ الله عزّ وجلّ قد يختار نبيه وهو ما يزال في المهد صبياً ، كما كان الحال بالنسبة الى النبي عيسى بن مريم عليه السلام أو النبي يحيى بن زكريا عليه السلام : فقد اختارهما الخالق نبييّن ، وآتاهما الكتاب والحكمة ؛ وفي هذا الوضع يمحّص

الإنسان، ويمتحن إيمانه ؛ فهل سيبدي الطاعة لطفل في المهد ، أو صبيّ أوتي النبوة والحكمة ؟

واذا ما تغلب الانسان على غرور نفسه ، وشيطان الكبرياء فيها ، وأبدى التواضع والخضوع والطاعة ، فانّه سيكون ـ حينئذ ـ قد أظهر غاية التسليم .

وفي التاريخ الإسلامي العديد من مثل هذه المواقف لأبناء الأئمة عليهم السلام ، فمنهم من أرتفع وعلا ، ومنهم من ضلّ وسقط وإن كان أقرب الأشخاص الى الإمام عليه السلام .

وعلى سبيل المثال فانّ علياً ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عاصر أربعة من الأئمة ، أولّهم والده الإمام الصادق عليه السلام ، ثم الإمام الكاظم عليه السلام ، ومن بعده الإمام الرضا عليه السلام ، ومن ثم الإمام الجواد عليه السلام ، ورغم أنه كان شيخاً هرماً عندما تولّى الإمام الجواد عليه السلام مهمّة وعبء الإمامة ، وقد كان عالماً وفقيهاً إلا أنّه عندما يلتقي الإمام الجواد عليه السلام كان يبدي له الخضوع والطاعة الى درجة أنّه كان يصف نعلي الإمام أمام قدمه ، ويقبّل يديه الكريمتين .

إنّ هذا القبول ، والخضوع ، والطاعة ، لم يكن من أجل طمع في دنيا أو جاه أو مال يكسبه..بل هو من أجل الله تبارك اسمه . فطاعته هي من طاعة أولي الأمر من أوليائه الذين اختصهم لعباده ، وهي قبول وخضوع طمعاً برضوان الله سبحانه ونعيمه الخالد.

وعلى هذا الأساس فانّ الاقتداء بالإمام عليه السلام وطاعته ليس بسبب كبر سنه ، أو شهرته وعظم جاهه بين الناس ، ولا لأموال وفيرة يمتلكها ، بل إن الطاعة والاقتداء هما امتثال لأوامر الله تعالى . فخضوعنا وطاعتنا للإمام عليه السلام هما خضوع وطاعة لله تعالى ، وهذا هو جوهر الإمامة والولاية.

الجنة درجات

والجنّة ليست محلاً واحداً يجتمع فيه جميع المؤمنين وإن تباينت درجات إيمانهم ، بل إنّها ذات درجات ، ومقامات . ولذلك فانّ درجة المؤمن في الجنّة تتبع درجة إيمانه واعتقاده بالولاية ؛ أي بمدى تعلقه ، ودرجة طاعته وخضوعه لإمامه.

ومن المنازل الرفيعة ـ ولعلّها من أرفع المنازل وأقرب المقامات الى الله ـ منازل الأئمة عليهم السلام ودرجاتهم ، ولذلك كان لابد لمن يروم التقرب الى هذه المنازل ، ومجاورة الأئمة من أن يزداد معرفة ، وتعلّقاً بهم ، وتبصراً في فهم وادراك معنى الإمامة والولاية ، وإلّا فانّ بساطة الإيمان ، وسذاجة العقيدة بالإمامة لا يمكن أن تقرّبنا منهم.

وهكذا فانّ درجات الانسان في الآخرة ترتبط بالإمامة ، وبمدى معرفته لها وقبوله لحقيقتها..

الصلاة على النبي وآله تعمق الولاء

ومن ضمن الأساليب التي تعمق ولاءنا ، وتزيد تمسكنا بالأئمة الاطهار عليهم السلام ، الأكثار من ذكر الصلاة على النبي محمد وآله الأطهار ، حتى جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « **الصلاة عليّ وعلى أهل بيتي تذهب بالنفاق** ».[1]

وقال صلى الله عليه وآله : « **ارفعوا أصواتكم بالصلاة عليّ ، فانها تذهب بالنفاق** ».[2]

ولعلّ سائلاً يسأل هنا : ترى ماعلاقة زوال النفاق بالصلاة على محمد وآله عليه وعليهم السلام؟

١- الكافي ، الشيخ الكليني ، ج٢ ، ص ٤٩٢.

٢- الكافي ، الشيخ الكليني ، ج ٢ ، ص ٤٩٣.

ونحن نجيب قائلين : إنّ هذه العلاقة نابعة من كون الصلاة على النبي وآله تطهّر قلب الهاتف بها ، فيزال الكبر منه ، ويتطهر من الأنانية ، وحبّ الذات ، وروح الحسد ، إن كان شيء منه فيه . فالكبر والأنانية داءان لابد من علاجهما بهذه الصلوات التي تجعلنا نذوب في بوتقة الإمامة ، ونضحى بعدها قطرة في هذا البحر الزخار الذي يطهّرها عندما تندمج به ، وهذا لايكون إلّا بحبّ النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام وولائهم ، وطاعتهم بعد معرفتهم ، وادراك عظيم درجاتهم ومنازلهم عند الله جل جلاله .

وخلاصة القول : فاننّا إذا أردنا التمتع بنعيم الإمامة والولاية ، فانّ علينا أن نبذل لهم الطاعة والتسليم ، وأن نزداد معرفة بهم لتقديم ما أمكننا من بذل وعطاء وخدمة في سبيلهم .

كيف نتعامل مع حقائق الغيب؟

﴿ طسٓمٓ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۞ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۞ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۞ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

(الشعراء، ١-٦)

الغيب محيط بعالم الشهود ، كما السماء محيطة بالأرض ، فأينما تذهب فوق البسيطة تجد السماء محيطة بك ، وأينما تذهب في الحياة فلابد أن يحيط بك الغيب ، شعرت بذلك أم لم تشعر .

ومن عرف كيف يتعامل مع هذه الحقيقة المؤكدة ، وكيف يتعايش مع الغيب ، وكيف يؤمن بهذا الغيب ، وكيف ينطلق منه ، فسيحقق أهدافه وتطلعاته في عالم الواقع والشهود ، وسيتمكن من إقامة العدل والوصول الى الحرية والأمن وسائر الأهداف المشروعة الأخرى في الحياة .

ومن جهل أو تجاهل هذه الحقيقة أو لم يعرف كيف يتعامل معها ، فسيغرق - لا محالة - في ظلمات عالم الشهود ومتغيراته ، ثم لن يخرج منها ؛ إذ سيتحول الى مجرد ضحية من ضحايا عالم الشهود ومتغيراته المحيطة به .

إنّما مثل دور وتأثير الغيب على الإنسان كمثل دور وتأثير الأعصاب على الجوارح ، فهي لا تتحرك ولا تشعر دون اتصالها بالأعصاب التي تأخذ وتؤدي وظيفة الايعاز الى المخّ والروح .

الغيب دليل الى الله

إننّا نعيش في عالم يوصف ـ خطأ ـ بعالم الصدف ، حيث كثيراً ما ننسب وقوع الوقائع والأحداث والمتغيرات غير المرتقبة الى الصدفة ، كأن يلتقي أحدنا صديقاً له على غير موعد ، أو تتوقف عجلات سيارة ما على شفا وادٍ سحيق دون تدخل من قبل سائقها ، فيقال عن هذا وذاك إنّه حدث صدفة ؛ إلّا أن الحقيقة تجانب وتتضاد مع هذه التسمية وهذا الوصف ، فهي تدخّل غيبي في مجريات عالم الشهود ، وهذا بالذات ما نطلق عليه من ناحية أخرى اسم القدر والقضاء : فهاتان الحقيقتان تتحكم فينا الى حد كبير.

إنّ من الصحيح القول بأننا نحن الذين نأكل الطعام ونشرب الماء ونزاول بقية الأعمال بصورة مباشرة ، ولكننا كثيراً ما نغفل أو نتغافل عن الآلاف من القوانين والأوامر الالهية المحيطة بنا والتي من شأنها التحكم بحركتنا وتمكننا من الانطلاق .

فقد تكون حركة واحدة غير طبيعية يتعرض لها مخّ الانسان ، أو غصّة بسيطة لدى شربه الماء ، كافيتين للقضاء عليه تماماً ، إلّا أنّ الله تبارك وتعالى لما كان قد كتب له عمراً محدداً فإنّه قد تكفّل بحفظه ورعايته ودرء النوائب عنه .

ثم إنّ الناس قد يبذلون المزيد من جهودهم ومخططاتهم للقيام بعمل ما ، حتى أنهم يتقنون تماماً من إحكام تلكم الخطط والتدابير ، إلّا أنهم يفاجؤون بالفشل الذريع والإحباط القاتل دون أن يعرفوا لذلك سبباً حسب ما تتيحه لهم إمكاناتهم . وهذا بالذات ما حصل لوكالة الفضاء الاميركية عام ١٩٨٦ ، حيث أطلقت المكوك الفضائي تشالنجر ، أي التحدي ، فروّعوا بانفجاره ، بتناثر أشلائه بعد أقل من نصف دقيقة على إطلاقه ، ولم يهتدوا الى معرفة الأسباب الحقيقية التي تسببت بهزيمتهم الساحقة هذي .

وهكذا الأمر بالنسبة للعلماء والباحثين ، ومنهم علماء الفيزياء والكيمياء والطبيعة ، فهم حينما يصلون الى القمة ، فانّهم يعرفون بأن هناك عوامل وقوانين يعجزون مطلق العجز عن التحكم بها .

وكثيراً ما يقع للإنسان أنّه يعزم على القيام بعمل ما ولكنه يواجه بما يحول بينه وبين ذلك . وهذه الحقيقة ليست فقط تدلل على دور الغيب في حياة الإنسان ، بل هي تمثل دليلاً مهماً على وجود الله عزّ وجلّ ، وأنّه هو المسيطر على شؤون مخلوقاته. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم ، وحل العقود ، ونقض الهمم** »[1] .

إذن : فالغيب يحيط بعالم الشهود ، شئنا أم أبينا ، عرفنا ذلك أم لم نعرف .

إنّ من الأخطاء البشرية الفادحة والقاتلة اعتقادهم بأنّ الله جل جلاله قد خلق الخلق ثم فوضّ شأنهم إليهم ، أو أنّه قضى على نفسه بعدم التدّخل في شؤونهم . فقد قالت اليهود يد الله مغلولة ؛ أي أنّه قد فرغ من الأمر منذ أن خلق أول مخلوق ، وإن استدامة الحياة تتواصل بالتزاوج والتلاقح ، نافين عنه سبحانه الإرادة والبداء ، ومفوضين الى أنفسهم مطلق القرار والحركة .وعليه فإن اليهود يؤكدون في توراتهم المختلقة والمكتوبة بأيديهم بأن الله بدأ الخلق يوم الأحد ، ثم نظمه يوم الاثنين ، ثم قسم الأرزاق يوم الثلاثاء ، وهكذا حتى وصل الى يوم الجمعة فأنهى كلّ شيء ، ويوم السبت بدأ باستراحته الطويلة !!!

إنّ مثل هذه الأفكار الجاهلية الكافرة هي التي أنزلت لعنات الله والناس على اليهود ، وهي التي أدّت بهم الى التشرذم في الآفاق ، وهي التي كرست فيهم الحقد

---

١ - نهج البلاغة ، الشريف الرضي ، حكمة رقم ٢٥٠.

الدفين على سائر الأمم . فقد قال الله تعالى بهذا الشأن : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة ، ٦٤) .

الدعاء والغيب

إن الإيمان بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة، ٦٤) يثير في نفس الانسان المسلم الرغبة في الدعاء ؛ بل إن قول الله المشار إليه إنما هو دعوة مباشرة للإنسان أن يطمع بما عند ربه سبحانه . فلا يظنّن الواحد منا أنّ الدعاء والإلحاح فيه شيء غير ذي بال ؛ فهو اعتراف مطلق بوجود الله الواحد الرازق الوهاب ، الذي ينفق كيف يشاء ويرزق بغير حساب .

وعلى ذلك اعتبر الدعاء في العقيدة الإسلامية مخّ العبادة ، وقد روي عن ميسر بن عبد العزيز ، عن الإمام جعفر الصادق ﷺ ، أنه قال : **يا ميسر، ادع ولا تقل إن الأمر قد فرغ منه ، إن عند الله عزّ وجلّ منزلة لا تنال إلا بمسألة ولو أن عبداً سد فاه ولم يسأل ، لم يعط شيئاً، فسل تعط.**[1]

وقال الإمام موسى الكاظم ﷺ : **عليكم بالدعاء ، فان الدعاء لله ، والطلب الى الله يرد البلاء وقد قدر وقضي ولم يبق إلا امضاؤه ، فاذا دعي الله عزّ وجلّ وسئل صرف البلاء صرفه.**[2]

وهكذا فان الدعاء يمثل الوسيلة الأولى لمعرفة كيفيّة التعامل مع حقيقة الغيب .

وأودّ هنا نقل نصّ دعاء عظيم ممّا جاء على لسان أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ، حيث يعتبر باباً واسعاً من أبواب التربية الإنسانية ، فقد جاء فيه : « **إلهي**

١- الكافي ، الشيخ الكليني ، ج٢ ، ص ٤٦٦.

٢- الكافي ، الشيخ الكليني ، ج٢ ، ص ٤٧٠.

هب لي كمال الانقطاع إليك ، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل الى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك ..»[1] .

وأتساءل : أين هو معدن العظمة ؟ وكيف يستطيع الإنسان المؤمن - وبتوفيق الله وبنور بصيرته - أن يخرق بنور قلبه حجب العلم والقدرة والعزّة والكبرياء والأسماء فيصل الى معدن العظمة ؟ ومن هو ذلك الإنسان الذي يتمكن من كل ذلك ؟ والإنسان أمام هذا النصّ العظيم والمقدس ؛ هل يتمكن من السيطرة على أحاسيسه وتوازنه العقلي والعاطفي ، بل هل يكون في يقظة أم يغرق في الخيال؟!

وأتأسف بشدة على هذا الإنسان الذي يستطيع بلوغ هذه الآفاق اللامتناهية ، ولكنّه يختار العيش في أوحال الدنيا وظلمات عالم الشهود ، فيقضي فرصته المحددة و عمره القصير بالاهتمام بماذا يأكل و يشرب وكيف يحصل على المال ، فتراه يشبه البهيمة المربوطة ؛ همّها علفها ..

وبحق أقول : إنه لا فرق بين البهيمة وهذا المنكب والمتكالب على حطام الدنيا والغافل أو المتغافل عن الأنس بعالم الملكوت والعرفان ، فتراه يقضي سويعاته القصيرة حتى يواجه بالموت ، فيعرف عنده أنّ حياته ما كانت إلّا أطناناً من الطعام والشراب وشيئاً من التكبر والغرور الباطلين..

الولاية الإلهية

أمّا الوسيلة الثانية في إطار الإيمان و التعامل مع حقائق الغيب فهي التوجه نحو الولاية الإلهية على الأرض ، وهي تتمثل في ولاية الأنبياء ثم الأئمة المعصومين

---

١ - مفاتيح الجنان ، الشيخ عباس القمي ، أعمال شهر شعبان العامة .

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهي الآن تتجلّى في ولاية الإمام الحجة بن الحسن عجل الله فرجه .

وقد يسأل سائل عن السبب في تخويل الأنبياء والأئمة هذه الولاية ؟ أو ليست ولاية الله شاملة ومحيطة بالناس؟

ويتكرس الجواب في حقيقة مشيئة الله عزّ وجلّ في أن تكون للدنيا قوانين، وأن تسير هذه القوانين وفق الصورة الطبيعية والمنطقية ، ولو لم يكن الأمر كذلك لاضطررنا الى رفع أصابع الاتهام ، أو على الأقل الى مناقشة معظم الحقائق والقوانين والمسلّمات الكونية.

فمثلاً : إذا كان الله هو نور السماوات والأرض ، فما الحاجة الى خلق الشمس وضيائها إذاً ؟

و إذا كان الله هو الجمال بعينه ، فما الداعي الى تصوير الخلائق على هيئة جميلة؟

وإذا كان الله هو مصدر الرحمة ، بل هو الرحمة بعينها ، فلماذا كان نزول رحمته على مخلوقاته عبر وسائل محدّدة كالرياح والغيوم والأمطار ؟

أوَ ليس بمقدور الله سبحانه الاستغناء عن هذه الوسائل والتعامل مع مخلوقاته بشكل مباشر ؟!

بلى ، إنّ ذلك من مقدوراته التي لا تحدها الحدود ولا تعرف كنهها العقول ... ولكنّ حكمة الله اقتضت أن نتقرب ونتخذ إليه الوسيلة ، كما قال ربنا عزّ وجلّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ (المائدة ، ٣٥) .

وما أروع أهل البيت ﷺ من وسائل الى الله تعالى ، إذ فيهم تتجلى وسائل الله ، وعبرهم تتنزّل الرحمات والأرزاق ، ولهم فوّض الله أمور الناس ، تماماً كما أراد أن يثبت للملائكة مصداقية أبينا آدم ﷺ لخلافته في الأرض ، فعلّمه الأسماء ، أسماء أهل البيت ﷺ .

إذن ؛ فالمهم هو معرفة الوسائل الى الله عزّ وجلّ ، ثم التمسك بهذه الوسائل والاستفادة منها.

وكما هو معروف ؛ فان درجات الالتزام بهذه الوسائل متفاوتة وفق تفاوت درجات الناس ؛ فالبعض يكتفي بإظهار الفرح لفرحها ، والبعض الآخر يقتصر على إظهار الحزن لحزنها ؛ ولكن البعض الآخر - وهم القلّة القليلة - يعيش في كل لحظة من لحظات حياته في بيعة صادقة ومصداقية مطلقة مع من أمر الله بموالاتهم ، حيث قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (التوبة ، ١١٩) . وهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب والأئمة من ولده ﷺ كما جاء في معظم تفاسير العلماء من كافة المسلمين .

ويمكن القول بثقة مطلقة إنّ هؤلاء الموالين بحقّ تغمرهم دوماً حالات التألق والسمو وجدية الحركة نحو الله تعالى ، لأنهم غير محجوبين عن أئمتهم ، فهم على معرفة بحقيقة أنفسهم وحقيقة أئمتهم .

ثم إنهم لا تغمرهم الغفلة ولا تجرهم مهاويها المظلمة ، وهم أيضاً على درجة عالية من التقوى والورع ، إذ هم لا تغرهم مصالح الدنيا فيضطرون الى ممارسة الكذب والغيبة وأكل المال الحرام ونقض العهد والجلوس في مجالس اللغو والتهمة والتآمر على حقوق الله والآخرين.

وصفوة القول : إنّ الولاية المتمثلة بالإمام الحجة المنتظر عجل الله فرجه الشريف موجودة وقريبة منّا غاية القرب ، وهذا القرب بحد ذاته يعدّ دعوة صريحة للناس كي يخطوا خطوات الاقتراب ، وذلك بإصلاح أنفسهم وإقامة أسس التربية القرآنية في نفوسهم ، حتى تعمر القلوب بذكر الله . فهذه القلوب لا ولن تعمر إلّا بطاعة الله تعالى وإصلاح الأعمال والورع عن محارم الله .

ذلكم القضاء والقدر

لله سبحانه وتعالى طريقتان للتأثير في الكون : الطريقة الأولى طريقة مباشرة ، والآخرى غير مباشرة . والطريقة الأولى تسمّى طريقة الأمر والقضاء والوحي والغيب وما الى ذلك من مسمّيات عديدة يطلقها القرآن الكريم على الطريق المباشر للتأثير في الكون .

أما الطريقة غير المباشرة فيطلق عليها في القرآن الكريم أسماء عديدة من مثل السنّة والفطرة والتقدير . وأسماء أخرى تدل كلّها على الطريقة غيرالمباشرة للتأثير في الكون .

وهنا نضرب للطريقتين مثلين يوضحانهما ؛ مثال الطريقة الأولى إنّ الله سبحانه عندما خلق الكون أوّل مرة فقد خلقه من غير أداة ، ومن غير أن يحتاج الى وقت وتفكير وسبب ، بل كان أمره إذا قضى شيئاً أن يقول له كن فيكون بسرعة قصوى ، بل وبدون وقت . فهو ـ تعالى ـ لم يكن محتاجاً الى وقت لكي يخلق الكون ، فليست هناك فاصلة بين (كن) و (الكون) ، بين أمر الله وبين أن يحقّق شيئاً ، فالزمن معدوم في خلق الله .

أما الطريقة الثانية فمثلها مثل كلّ ما يقع في الحياة ، وعندما تشرق الشمس أوّل الصبح فانّها تشرق بالسنّة الفطرية ، وهكذا الحال بالنسبة الى غروبها . وعند ما يمطر السحاب فانّه يمطر أيضاً بسنّة فطريّة ، وهذه سنن خلقها الله تعالى في الكون ، وقوانين ، ونظم ، وتقديرات ، وتدبيرات .

فالله تعالى هو الذي يجري السنن ولكن بطريقة غير مباشرة . وهكذا فانَّ الطريقة الأولى تسمى بطريقة القضاء ، والثانية بطريقة القدر ، وهذا هو الذي ما اصطلحنا على تسميته بـ (القضاء والقدر) .

وعلى كل مؤمن أن يؤمن بكلٍّ من القضاء والقدر ، فيؤمن بالقدر لكي يعرف أنَّ هناك سننا طبيعية فطرية تتحرك الحياة كلّها وفقها ، وأنّ هذه السنن هي سنن الله : ويؤمن بالقضاء لكي يعرف أنّ الله عزّ وجلّ له سنّة كونية مهيمنة ، وتأثير غيبي مباشر ، وأنّ السنن الفطرية الموجودة لا يمكنها أن تقف حائلاً دون سنن الله المهيمنة : بمعنى أنّ الله تعالى لو أراد للنار أن لا تحرق فانها ستفقد خصوصيتها هذه ..وهذا هو معنى القضاء الذي يجب على الانسان أن يؤمن به .

لماذا الإيمان بالقدر ؟

عند التأمل في سورة (فصلت) ثمّ تساؤل يتجدد : يا ترى ما هي علاقة (الإستقامة) في قول الله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ (فصلت،٦) . ويبين (الاستقامة) المشار إليها في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت،٣٠).

الجواب على ذلك يكمن في كلمة واحدة مذكورة في سورة (فصلت) أيضاً ، في قول الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت،٥٣) .

فكلمة (الحق) هي الكلمة التي تجيب على ذلك التساؤل ، وذلك أنها تعني أن تقدير الله تعالى في الكون حق ، وأن كل ما حولنا يسير وفق مخطط حقّ ينتهي الى أجل حقّ ، وهناك حدود بسيطة للغاية أمرنا الله سبحانه أن نختار فيها بالحق .

إنّ هذا المفهوم هو مفهوم القدر ،وعندما يطلب الله تعالى منا أن نؤمن بالقدر . وعندما يبيّن لنا أنّه خلق السماوات في يومين ، فانّه يريد أن يفهمنا أنّ هناك حدودا .

فالأمور في الحياة ليست فوضى ، بل محكمة محددّة . فالقرآن الكريم عندما يقول إنّ الله قد خلق السماوات في يومين ، فانّ هذا تحديد زماني . وعندما يقول إنّ أهل الأرض قدّرت أقواتهم في أربعة أيّام ، فان هذا تحديد كمي . كما أنّ الانسان مقدّر هو الآخر ، فهناك أنظمة تحكم حياتنا ، وهناك علاقات تضبطها ، والانسان ليس بعيداً عن هذه الحياة ، فكلّ ما يقوم به من أنشطة حياتية يتأثر بحركة السماوات والأرض والشمس .

الحق سبيل الوصول الى الاستقامة

وهكذا فانّ الكون تقدير كله مادامت الحياة كلها تقديراً ، وأنّ الحياة تتحرك ضمن فلسفة الحقّ ، فلابدّ أن أكون أنا أيضاً على الحقّ ، وأستقيم عليه ، ولذلك فانّ القرآن الكريم يقول : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ (فصلت،٦). أي استقيموا إليه من خلال سيركم في الطريق الصحيح .

ومن المعلوم إن الانسان يحمل في نفسه نوازع تجّره يميناً وشمالاً ، ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ ؛ أي ارجعوا بسرعة الى الحقّ كلمّا تطرفتم الى اليمين واليسار ، لكي تحصل لكم الاستقامة . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ (فصلت ، ٣٠)؛ أي الاستقامة على طريق الحقّ .

وعلى هذا فانّ حكمة القدر الموجودة في القرآن ، وخصوصاً في سورة (فصلت) قائمة على أساس أنّ الانسان يجب أن يعرف أن حياته هي حياة مضبوطة ، وأنّ حريّته محدودة ضمن إطار الحقّ ،وأنّه لا يمكنه استخدام حريّته هذه في غير هذا الإطار .

ولذلك فانّ القرآن الكريم يضرب لنا بعض الأمثلة الحازمة والقوية التي يجب على الانسان المؤمن أن ينتبه إليها ، ويدقق فيها. إنّه يقول لنا : انظروا الى الأمم التي هي أكبر من الفرد الواحد ، وأقوى وأكثر استمرارية منه ، ولكنّ هذه الأمم ـ أياً كانت ـ إذا انحرفت عن الحقّ ، فانّ الله تعالى سيوجه إليها ضربة قوية علّها تعود الى هذا الحقّ ، وترتدع عن غيّها.

فما بالك بالفرد الذي من المستحيل عليه أن يخالف الحقّ وينتصر عليه ، لأن القرآن الكريم يقول : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت ،١٣) ؛ أي إنّ صفعة قوية ستأتيكم من الحقّ ـ تعالى ـ ذلك لأنّه قد أرسل إليكم الرسل ، وألقى عليكم الحجّة .

قال الله سبحانه ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ (فصلت ، ١٤) ؛ أي إنّهم انحرفوا عن الحقّ ، واستكبروا عليه قائلين : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ؟ في حين أن القوة المتجلية في رب السماوات والأرض ، هي الأقوى منهم . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (فصلت ، ١٥)

ثم يبين الله تعالى نوع العذاب النازل عليهم ، بقوله سبحانه : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (فصلت ،١٦).

وهكذا فانّ حكمة التقدير والقدر تستوجب منّا أن نؤمن بالحقّ ، وأن نعتقد أنّ ربنا سبحانه هو ربّ الحقّ ، وأنّه خلق الأشياء بالحُقّ ، فلابد لنا من أن نستقيم على هذا الحقّ، لنجزى الجزاء الأوفى ، وإلّا فانّ الحقّ - تعالى - سيأخذنا بعذاب الهون كما حدث للأمم السابقة.

القضاء والقدر في العقيدة الاسلامية

إنّ الإيمان بالقضاء والقدر هو من الأركان الأساسية للعقائد الإسلامية ؛ فلو اختلّ هذا الايمان ، فقد انهدم ركن اساسي من كيان إيمان الفرد.

والتساؤلات المهمّة المطروحة في هذا الصدد هي : ما هو القضاء والقدر ، وما هي حكمة الإيمان بهما ، وكيف يكمل الانسان إيمانه من خلالها ، وما هي فائدة الإيمان بهما في حياتنا اليومية ؟

الايمان بالقدر إيمان فطري

من المعلوم انّ كلّ انسان قد أوتي قدراً من العلم والحكمة ، فهو يعلم أنّ الحياة من حوله إنّما هي منظمّة مدبّرة تتحرك وفق السنن والقوانين ؛ فالشمس لا يمكن أن تتأخر عن ميعاد شروقها أو غروبها ، والقمر لا يغيّر مساره ، والنبات لا يستطيع أن يتمّرد على قانون الطبيعة والبيئة ...فكل شيء محكوم بنظام محدد ومعلوم .

وللاسف فانّ هناك البعض من الناس ممّن معلوماتهم دون المستوى الطبيعي يزعمون أنّ الحياة لا تحكمها السنن والقوانين ، ومن أبرز هؤلاء الذين يخالفون الاقدار والسنن الالهية أولئك الذين يعيشون بعيدا عن ذكر الله ورسالاته ويريدون أن يطبقوا القوانين الوضعية في المجتمعات غافلين عن حقيقة بسيطة و واضحة ، وهي أنّه كما انّ للكون قوانين ، فللمجتمع قوانين أيضاً ؛ فحركة الانسان في المجتمع ، وحركة المجتمعات والتاريخ تخضع بدورها لقانون ، ولكنّ هؤلاء يزعمون أنّ قوانين الله تعالى تقتصر على الطبيعة ، وأن ليس له سنن في الحياة الاجتماعية ؛ ولذلك

يدّعون أنّ عليهم أن يضعوا هذه السنن ، ويخترعوا ويبتدعوا مجموعة من الانظمة والقوانين الوضعيّة.

ومع ذلك فانّ الانسان بفطرته يؤمن بوجود قانون في الحياة يسمى (القدر) الذي هو من أركان الإيمان ؛ أي إنّ على الانسان أن يؤمن أنّ الله جل وعلا قد جعل لكلّ شيء قدراً ، وأن سننه لا يمكن أن نجد لها تبديلاً ولا تحويلاً . فالانسان المؤمن يجب أن يوقن بأنّ كلّ شيء خاضع لقانون. ففائدة الإيمان بالقدر هو الوعي الحضاري لدى الانسان ، فهو عندما يؤمن بالاقدار فانّه سيحاول توظيف القوانين من أجل رفاهه وتقدمّه. فعلى سبيل المثال ، إن لم يكن الانسان مؤمناً بقانون الجاذبية ، وقانون الحركة وسائر القوانين الفيزيائية لما كان باستطاعته أن يمتطي الجوّ ليتحرك من الشرق الى الغرب خلال ساعات معدودة ، ولما استطاع أن يغزو الفضاء الخارجي ثمّ يعود الى الأرض . فإيمان الانسان بالقانون يجعله يستخدم هذا القانون لمصلحته ، وهذا هو القدر .

حاجتنا الى القضاء

وهنا يطرح السؤال المهمّ التالي بشأن القضاء ، وهو : هل نحن نحتاج أساساً الى القضاء مادام كلّ شيء في هذا الكون خاضعاً لقانون ونظام وسنّة ؟

الجواب على هذا التساؤل هو بالايجاب طبعاً . فكلّ شيء خاضع لارادة الخالق ولكن بشرط وجود القضاء ، وكلّ شيء يتبع السنة الالهية والقانون ولكن في اطار القضاء والهيمنة الالهية ؛ بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى كما وضع القانون فقد وضع أيضاً ما هو فوق القانون ، ألا وهو إرادته ومشيئته.

وعلى سبيل المثال ، فانّ من القوانين الطبيعية أنّ العصا لا يمكن أن تتحوّل الى ثعبان ، ولكن من قضاء الله تعالى أن يحوّل عصا النبي موسى عليه السلام الى ثعبان يأكل

ويبتلع حبال سحرة فرعون . ومن القوانين الأخرى إنّ النار تحرق ، ولكن من قضاء الله أن يسلب صفة الاحراق من النار فيجعلها برداً وسلاماً ، كما حدث مع النبي ابراهيم عليه السلام .

وهكذا فانّ الإيمان بالقضاء والقدر هو ركن أساسي لمعرفة الحياة ، والانسان الذي يزعم أنّ كلّ شيء في الحياة يعيش حالة الفوضى ، ولا يتبع أي قانون ، إنّما هو إنسان متخلّف ، وفي نفس الوقت فانّ الانسان الذي يدعي بأنّ كلّ شيء في الحياة يخضع خضوعاً مطلقاً للقدر ، والقانون ، والسنة دون أن يؤمن بامكانية خرق هذا القدر والقانون ، فانه ليس إنساناً مؤمناً ، لأنّ من خصائص المؤمن الإيمان بالغيب الذي هو القضاء .

القضاء والقدر في القرآن

والقرآن الكريم من بدايته الى نهايته يؤكد على أنّ هناك قضاء فوق القدر ، وإرادة عليا فوق القانون والسنّة ، والآيات التالية المقتطفة من سورة الواقعة تذكّرنا بهذه الحقيقة من خلال قول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ❁ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الواقعة ، ٥٨ ـ ٥٩).

وللاسف فانّ هناك أناساً سفهاء يقولون إننا نحن الذين نخلق أبناءنا من خلال زواجنا وحمل زوجاتنا وولادتهنّ لهؤلاء الأبناء! وعندما نسألهم : وهل تستطيعون أن تخبرونا أنّ زوجاتكم هل سيلدن ذكوراً أم إناثاً ، وهل ستكون عيون هؤلاء المواليد زرقاء أم سوداء ، وهل سيكونون مرضى أم سالمين ؟ فانهم سيبهتون ولا يستطيعون أن يحيروا جواباً.

وقد ثبت في علم الأجنّة أن ليس من الضروري والحتمي أن يولد للانسان الذي يتزوّج ، فهذا تقدير الله سبحانه وتعالى . فهناك بعض الأمور لا يمكن للعلم أن يصل إليها. صحيح إنّ الانسان الذي يتزوج يمنحه الله عادة الأولاد ، ولكن هناك قضاء ، فالبعض من الناس يجعلهم الله عقماء.

بعد ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الواقعة، ٦٠-٦١) .

فهل يستطيع الانسان أن يدفع عن نفسه الموت ؟

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (الواقعة، ٦٣-٦٤) .

فربّما يزرع الانسان الأراضي الواسعة ثم تأتي العواصف أو السيول .. فتدمر المحصول كلّه ، فهل يستطيع الانسان أن يمنع ذلك ؟

إنّ هذا هو القضاء الذي هو فوق القدر. وفي سورة القلم، الآيات ١٧ - ٣٣، يذكر لنا ربنا عزّ وجلّ قصة أولئك الذين زرعوا أرضهم ، وزعموا أنّهم سوف لا يعطون من محاصيلها للفقراء والمساكين ، فما كان من الخالق عزّ وجلّ إلا أن أرسل عليها ناراً محرقة أتت عليها فجعلتها كالصريم ، وهذا هو القضاء .

ثم يقول ربنا عزّ وجلّ في سورة الواقعة : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة ، ٦٥-٧٠)

فماذا ينفع الماء إن كان أجاجاً ؟ وهل يستطيع الإنسان أن يشرب من مياه البحر؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(الواقعة . ٧١ . ٧٤).

فالهدف من الايمان بالقضاء والقدر هو تمتين العلاقة بالله العظيم ، كما يشير الى ذلك ربنا عزّ وجلّ في قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

فلنعلم بأنّ الحياة ليست تحت سيطرتنا واشرافنا، بل هي مقضية بقضاء الله، ومدبرة بتدبيره.

الفهرس